الذكرى المئوية لإستشهاد السلطان علي دينار

السلطان علي دينار

شهيد جسد التضحية والفداء

(موت ولد ولا خراب بلد)

الدكتور الأمين محمود محمد عثمان





المؤلف في سطور

* الإسم – الأمين محمود محمد عثمان مواليد طرة جامع جبل مرة 1956 م
* تخرج في جامعة الخرطوم – كلية العلوم قسم الرياضيات 1980 م
* عمل معلما للرياضيات في المرحلة الثانوية حتى العام 1991 م
* المؤهلات فوق الجامعة – ماجستير الادارة العامة ، دكتوراة في الادارة العامة من جامعة ام درمان الاسلامية عنوانه (ادارة التنازع السياسي – دراسة تأصيلية مقارنة) .
* المشاركات العامة – عضومجلس الشعب الاقليمي الاول لدارفور 1981 م – وعضو اللجنة الشعبية للاقليم – محافظ لمحافظة ام روابة باقليم كردفان ثم محافظا للكرمك و لمحافة باو بولاية النيل الازرق – عضو المجلس التشريعي لولاية غرب دارفور .عضو مجلس ادارة جامعة زالنجي
* اهم المشاركات في المؤتمرات – مؤتمر الصلح ما بين الفور وبعض القبائل العربية بالفاشر 1989 م – مؤتمر السلام الشامل في دارفور نيالا – مؤتمر نيرتتي لقيادات الفور اغسطس 2002 . معظم مؤتمرات حل ازمة السودان في دارفور داخليا وخارجيا في طرابلس ، و ابوجا ، ومن معدي وثيقة هايدلبيرج حول سلام دارفور ، ومن ممثلي المجتمع المدني بمحادثات الدوحة ، وعضو الآلية التنسيقية للحوار الوطني ممثلا للمجتمع المدني الدارفوري .
* الكتب والاوراق العلمية الصادرة للمؤلف –

- سلطنة الفور الاسلامية دراسة تحليلية من 1400 1916- م
– ادارة التنازع السياسى دراسة تأصيلية مقارنة
– الجودية دراسة في حل النزاعات بالاشارة الخاصة لدارفور
– اطلالة السلطان احمد حسين ايوب
– المهمة الدعووية في دارفور ، مقاربة دعوية لحل النزاعان – ورقة حول حل النزاع في دارفور
– ورقة حول محتوى النزاع حول الارض
– ورقة التواصل ما بين السلطنات الاسلامية في بلاد السودان واخرى عن علاقات دارور والفونج
- نظرات في التاريخ القديم لدارفور . . .

كتب تحت الطبع –

الحكم الرشيد – تنميط لحكم يهتدي بقيم الاسلام -

- سياحة في ادب الحكم و السياسة (مقالات منشورة في الصحف)


ISBN 978-99942-73-65-2



الذكرى المئوية لإستشهاد السلطان علي دينار

السلطان علي دينار

شهيد جسد التضحية والفداء

(موت ولد ولا خراب بلد)

الدكتور الأمين محمود محمد عثمان

عنوان الكتاب : السلطان علي دينار - شهيد جسد التضحية والفداء

الكاتب:الدكتور الأمين محمود محمد عثمان

تاريخ النشر: الطبعة الأولى 2021

رقم الإيداع: 2020/0016

الناشر

دار المصورات

للنشر والطباعة والتوزيع



2 0 2 1

الخرطوم غرب

شارع الشريف الهندي

المتفرع من شارع الحرية

ت:249912294714+

elrayah1995@gmail.com

المدير المسؤول: اسامة عوض الريح

التصميم : مبارك بكري خضر

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

962.404 أ م.س الأمين محمود محمد عثمان ، -1956

السلطان علي دينار : شهيد جسد التضحية والفداء Sultan Ali Dinar an-example of sacrifice and devotion - death of son rather than (ruining acountry) / الامين محمود محمد عثمان - ط1. - الخرطوم : ع.ع.عبود ، 2020

190ص : 24سم

النص باللغة العربية والانجليزية

ردمك: ISBN 978-99942-73-65-2

1. السودان - تاريخ - سلطنة دارفور . 2. علي دينار ، 1867 - 1916

أ.العنوان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستهلال

(ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يُرزقون) (169)

آل عمران

ويقول (ولا تقولوا لمن يُقتلُ في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) (154)
البقرة

صدق الله العظيم

الإهداء ...

اهدي ثواب كتابي لوالديّ وللمؤمنين والمؤمنات يوم يقوم الناس لرب العالمين .

تقريظ الدكتور ادريس يوسف أحمد

كنت اول مطلع لمسودة كتاب الدكتور أمين ''السلطان علي دينار'' بمناسبة إحياء الذكرى المئوية لإستشهاده، إذ عهد إلي ترجمة الكتاب للغة الانجليزية و لما يفرع من التأليف ، كان يدفع الي بما كتب للترجمة حتى كانت نهاية الترجمة متزامنة تقريبا، بفضل الله تعالى، مع تاليف الكتاب . ومن واقع التأني الذي فرضه فهم مادة الكتاب للترجمة فانني اعتقد انني أستطيع أن أكشف عن المضامين المهمة في الكتاب وتقديمه للقراء.

فالكتاب الذي بين يدي القارئ موسوعة تاريخية وعلمية وبحثية شاملة لفترة مهمة جدا من تاريخ وارث وتراث وحضارة دارفور غير المعلوم عند الكثيرين من اهلها والتى سماها الكاتب بحضارة هضبة جبل مرة وما حولها .

الكتاب يمثل جهدا مضنيا ومخلصا لجمع المعلومات المهمة وتحليلها بعد تدقيقها وتوثيقها بطريقة علمية ابرازاً للجوانب غير المعلومة من التاريخ القديم لهذه المنطقة منذ ان كانت براكين نشطة تقذف بحممها الى ان خمدت قبل حوالي الثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . فهضبة جبل مرة وما حولها تذخر بالآثار القديمة الكثيرة والمتنوعة ، الظاهرة منها للعيان واخرى تحت الارض ، وحاول الكاتب الكشف عن اسرارها من واقع انه شب وترعرع وشاب في المنطقة ، ومن واقع ما سمعه من الكبار الذين سماهم السيد ليوبولد سنغور بمكتبة افرقيا ، وكذلك من اطلاعه الواسع على المراجع الكثيفة التي كتبت اخيرا عن المنطقة .

الكاتب يكشف عن حضارة مدنية قديمة قامت في هذه المنطقة منذ القدم ، صاغت انسان دارفور الحالي في مدنيته وحياته الاجتماعية المستقرة ، وكانت الاساس في قيام السلطنات والممالك الغابرة التي سبقت سلطنة دارفور في نسختها الاخيرة كسلطنة

اسلامية تتدفق معلوماتها التاريخية . فالسلطنة الاسلامية ما كانت لها ان تقوم الا على قاعدة حضارة مدنية وحياة اجتماعية راسخة ومزدهرة في هضبة جبل مرة التي كانت مستقرا لاجداد الفور العماليق المعروفين بالتورا الذين خلفوا آثارا واضحة منسوبة لحقبتهم في بقاع واسعة من المنطقة السودانية . وتساءل الكاتب ؛ وهو محق ؛ اي حضارة من حضارات وسط افريقيا سبقت اختها ؟ أهي حضارة هضبة جبل مرة ام حضارة حوض النيل ام حضارة بحيرة تشاد ونهر النيجر ؟

ثم تحدث الكاتب عن عنصر جديد مهم لدراسة تاريخ البشرية والعلاقات القديمة ما بين المجموعات والمجتمعات التي لم تدون تاريخها ؛ هو عنصر دراسة اللغات ومعرفة التداخل اللغوي واعطاء مدلولات للاعلام في الجغرافيا خاصة وايلولتها للغة التي جاءت بها المسميات ، فبهذه المقاربة اللغوية استطاع الكاتب ان يكتشف حقيقة وجود علاقة قوية ما بين الحضارة المروية وحضارة هضبة جبل مرة بالتداخل اللغوي الكبير ما بين اللغة المروية ولغة الفور . لذا فان الكاتب خلص على ضرورة دراسة تاريخ الحضارات القديمة بدارسات علمية متخصصة بعيدة عن الاهواء وقوفا على التاريخ المذهل لبلاد السودان وربطها مع بعضها في كل البلاد جنوبي الصحراء الكبرى وحتى شمالها .

ويلاحظ الكاتب الخلل في عدم كتابة التاريخ بمنظور وطني ، ومخاطر حجب حقائقها لاغراض الكُتّاب الاجانب الخاصة بهم بما في ذلك اغفال دراسة موروثات الحكم الوطني – اي تجارب الحكم القديمة – تخوفا من الهاب مشاعر رفض الحكم الاجنبي ، فالمعلومات لم تكن غائبة عن كُتّاب التاريخ من الاجانب ، فالآثار مشهودة ، وقصص الكبار الذين يمثلون مكتبة القارة الافريقية كانت متاحة للتدوين من شفاه الشيوخ . اما اليوم ومن واقع تعلم ابناء المناطق فبامكانهم كتابة تاريخهم الوطني وتاريخ اجدادهم بصدق وبالتفاصيل المطلوبة ، وسيسعفهم المامهم بلغاتهم وكذلك التطور الكبير في مجال المعلومات والاعلاميات ووسائل التوثيق والحفظ الحديث لا سيما الانترنت .

الكاتب وقف ايضا على التفاصيل الدقيقة على التجربة الفريدة للسلطان علي دينار في الحكم ولجوئه الى الحكمة السياسية لاستعادة حكم اجداده من خلال المهادنة

والمحاورة والمناورة سواء كان ذلك مع المهدية او الانجليز ، وتعامله مع كل اهل دارفور بمختلف قبائلهم ، فخلق علاقات اقليمية ودولية ، لذا كان هو نفسه شخصية قومية واقليمية ، ودولية وترك بصماته واضحة في تاريخ دارفور وتاريخ السودان .

الكتاب بيّن بجلاء ان السلطان علي دينار رجل الفداء والتضحيات من اجل شعبه منذ صباه الى ان لاقى ربه شهيدا ، فكان يحرص على ابعاد اهله من مواضع وميادين الاحتراب ، فدى اهله بنفسه بالالتحاق بالمهدية ، وبالخروج من الفاشر ، وحين عزل معسكره من معسكر اهله في كولمي ، فاستشهد لوحده وبمعية ابنه من صلبه ، منقذا البقية و تاركا النظام الاداري دون تقويض من الاصول التي اسسها عليها اجداده .و اكد الكاتب الايمان العميق للسلطان علي دينار وعلى تفقهه في الدين الذي كان هاديا له في ادارة سلطنته وفي تخلق المجتمع بقيم الاسلام ، حيث كانت تعاليم الاسلام مرعية في السلوك والمعاملات ، وكان مؤمنا بالوحدة الاسلامية في كنف الخلافة الاسلامية فوقف معها حتى استشهد .

كما ان حنكة وحكمة السلطان في التعامل مع الحكومة المستعمرة للسودان ، ومع مؤامراتها ومحاولاتها في القضاء عليه ؛ قد كلفتها الوقت الطويل والاموال الطائلة واللجوء الى الاساليب الغاشمة غير الاخلاقية كاستخدام قوة الطيران في مواجهة العصي والسيوف ، كل ذلك اسكاتا لصوت آخر دولة اسلامية في سلسلة من الحروب الصليبية التي كانت قد بدات من القرن الخامس عشر .

عليه فان الكتاب جدير بالطبع والنشر الواسع باللغتين العربية والإنجليزية وأية لغات أخرى ، وإعتماده ضمن مراجع تاريخ السودان ، وتضمين فقرات منه في المناهج التعليمية بالبلاد.

والله ولي التوفيق .د . مهندس / إدريس يوسف أحمد

تقديم السلطان احمد حسين ايوب علي دينار

(سلطان دارفور)



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى ءاله وصحبه

اما بعد : - ففي ذكرى مرور المائة عام على استشهاد الجد السلطان على دينار ؛ نلحظ قلة المعرفة بدوره في تاريخنا الوطني وبادوار معظم الابطال من ابناء الوطن الذين ناهضوا الاستعمار فضحوا من اجل الكرامة الوطنية . واستدراكا لزيادة المعرفة ؛ جاءت فكرة تخليد ذكرى القادة السودانيين بتبنى مناشط مختلفة تُذّكر الناس بصنائع هؤلاء الذين قدموا انفسهم فداء للكرامة و العزة الوطنية بما يُعرّفنا بعظمة الابطال الذين سقوا ارض السودان والاسلام بدمائهم الذكية ، فكان منها كتابة سيرة السلطان علي دينار برؤية وطنية .

لم يخف المستعمر حنقه و سعيه في تشويه صورة السلطان الشهيد علي دينار في حياته و بعد مماته ، قاد حملة مسعورة لقتله فابتدرها بالافك و البهت ونسج القصص المكذوبة تشويها لصورته وهو المتخلق بالاسلام الذي اكرمه الله بان يكون فقيها و حافظا لكتاب الله الكريم ، وضرب عليه الحصار الاقتصادي بقفل طرق التجارة القديمة ، ومنع تحديث سلاح جيشه ، فمنعوا حتى ارسال ما دفع قيمتها من الاسلحة ! وسعوا لتفريق كلمة ابناء الوطن ليتحقق لهم استغلال موارد البلاد باقل كلفة بما تعرف بسياسة فرق تسد ، وبعد استشهاده اقبلوا على محاصرة ابنائه بشتى الاساليب خوفا من انبعاث المقاومة من بيته .

لقد تصدى الدكتور امين محمود للتاريخ المزيف فعرى اسانيده ، و اكد في كتابه ان السلطان علي دينار نسمة مباركة لآباء اداروا حكما متصلا عبر قرون في تجربة لا تُضاهى ، فربط حاضر السلطان بماضي اجداده .

اكرر شكري لدكتور امين محمود على الجهد العلمي اظهاراً لحقائق التاريخ بحيدة وامانة من غير اغفال للغاية المتمثلة في كتابة التاريخ الوطني برؤية وطنية .

السلطان أحمد حسين ايوب علي دينار

المقدمة العامة

الحمد لله واهب النعم و رافع ذكر خاصته من المؤمنين ، و الصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أخبره ربه بأنه سيرفع له ذكره ؛ فها ذكره يجري صلاة عليه و على آله وصحبه ، محبة له ، وشهادة بنبوته ، وبانه ادى الامانة و نصح الأمة و جاهد في الله حتى أتاه اليقين ؛ يجري كل يوم عشرات المرات بلسان كل مؤمن في الارض اجمعين ، فالصلوات الطيبات الذاكيات له الى يوم الدين .

أما بعد :-

فقد كان من الوفاء والعرفان تخليد ذكرى السلطان الشهيد علي دينار ، من ابناء السودان للذين جاهدوا من اجل دينهم ووطنهم و قدموا انفسهم في سبيل ذلك .

و رأت اللجنة العليا للذكرى المئوية لاستشهاد السلطان ؛ بأن تصدر كتابا يحوي سيرة السلطان علي دينار برؤية وطنية تُعرّف الناس به ، و توفر مادة لواضعي مناهج التاريخ في البلاد لتضمينها في مناهج الدراسة خاصة وان المناهج تفتقر لمثل هذه المعارف التي تُمتّن اركان الهوية الجامعة للسودانيين ، وتغرس في النشئ حب الوطن بالتمثل والتشبه بالرجال الذين جاهدوا من اجل قيمهم ومبادئهم .

وعمدنا الى اثارة موضوعات قيمنة بتركيز البحوث العلمية اجلاء لحقيقتها ، فهي في نظرنا ستعزز الشعور بالوحدة الوطنية لأن التاريخ يثبت وجود تلك الوحدة السودانية بوجوه أفضل مما تُرتجى من تناول التاريخ السياسي ، خاصة حينما تكون الوحدة السياسية بعيدة من القدرة على إحداث الاندماج المجتمعي الكامل الناتج من يسر التنقل والتكسب والتصاهر والتزاوج عبر الحدود السياسية ، فلا بد ان الجغرافيا لعبت دورا مهما في صهر السودانيين ، يقول ج سبنسر تريمنجهام في كتابه الاسلام في السودان (لإدراك فهم حي للسودانيين ؛ علينا ان نضع في الاعتبار حركتين — عاملين — هما حياة الشعب في اتصاله المباشر مع بيئته الجغرافية ، والثاني الدين العالمي —

الاسلام – والثقافة والنظام الاجتماعي المشترك لاعداد مختلفة من الشعوب واللذان ينتجان التفاعل والتركيبة العقلية والبدنية ؛ ويمضي قائلاً ؛ من النادر ان نجد اي نمط سلالي خالص وسط اي من شعوب السودان ، فكل السكان تشكيلة ما بين السلالة القوقازية الخالصة والزنجية الخالصة ، لذا فان الشعوب سوداء البشرة في الجنوب عادة ما يُعّدون زنوجا . اما مصطلح عرب فهو ذو دلالة لغوية وثقافية اكثر من كونه مصطلحا سلالياً ، ويستخدم فيما يتعلق بمحصلة الامتزاج الحالي للسكان الاصليين والقبائل العربية التي استقرت في العصور الوسطى في الاقاليم الشمالية والوسطى (1)

السلطان علي دينار وريث لسلطنة عتيدة ، فقد حكمت اسرته دارفور منذ ما قبل العام 1400 م ، و تتابع الحكم في اجداده دونما انقطاع الى ان وصلته ، ولذلك رأينا ونحن نتحدث عن سيرته ان نلقي نظرات في تاريخ دارفور القديم قبل القفز لتاريخه كشخص معني بالتخليد والتذكير بمآثره ومكارمه ، ثم ختمنا الكتاب باستشهاده رحمه الله رحمة واسعة .

انني اشكر كل من شجعني على تقديم شيئ في ذكرى مئوية استشهاد السلطان ، و اخص منهم اخي الاكبر السفير الشفيع احمد محمد رئيس لجنة المناشط ، فقد اقتديت به منذ معاصرتي له بمدرسة زالنجي الاميرية الوسطى وفي جامعة الخرطوم وما زال قدوة لي وللعديد من ابناء دارفور . واشكر جميع العاملين في مئوية السلطان على تضحيتهم بوقتهم وجهدهم و تطوعهم ، فالسلطان قامة وطنية ويحق ان يحتفي به كل السودان . ولا بد من كلمة شكر خاص للذين باشروا معي اعمال المئوية من اللجنة العلمية ؛ الدكتور ادريس يوسف أحمد الذي لم يقتصر دوره في ترجمة هذا الكتاب للغة الانجليزية ترجمة متلازمة مع كتابتي فحسب ، فالرجل من اساطين المعرفة بالتراث الدارفوري ، باحث في اللغة ومؤلف كتب في الحواكير وفي لغة الفور وفي الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، ومهموم مستغرق ومستهلك جهدا في قضايا حقوق المواطنين ، وقدم لي ملاحظات قيمة في مسودة الكتاب عنيت بتحريرها فله الفضل على اذكاء جهدنا ، والدكتور خليل ادم عبدالكريم والدكتور يوسف سليمان اللذان صحباني رحلة توثيق آثار دارفور الشاقة ، و لكل التيم المصور والمخرج ، والاخت رحمة ابراهيم بدري ؛ ولكل من لا استطيع ذكره ممن لا يعلمهم الناس بالضرورة باسهامهم في اعداد هذا الكتاب ، فالله يعلمهم و مجزيهم بما وفّوا .

ثم الشكر الجزيل على من أعان في طباعة ونشر هذا الكتاب .

د . أمين محمود محمد عثمان

رئيس اللجنة العلمية لمئوية السلطان علي دينار / ابريل 2018 م

الهوامش

1 - ج تريمنجهام سبنسر- الاسلام في السودان ، 1946 م ، ترجمة فؤاد عكود ، المجلس الاعلى للثقافة ، 2001 م .

الفصل الاول

نظرات في تاريخ دارفور القديم

نشوء الدولة

نشأت سلطنة دارفور في كنف هضبة جبل مرة ، وهي بيئة صالحة لاقامة الحضارة من عدة اعتبارات نرى محصلتها في ايجاد الاستقرار لسكانها ؛ ومنها توفر المياه والحماية البيئية التي تحمي الانسان من الغزو والعدوان . فجبل مرة توصف في المصادر كوطن ام لشعب الفور ، ومن الطبيعي اثارة اسئلة حول تاريخ تواجدهم واصولهم ، وحدودهم و تاثيرهم ، ونمط حياتهم وعلاقاتهم مع الشعوب الاخرى . .

وقبل الخوض في هذا التاريخ القديم ؛ ندحض كلية مزاعم قيام اول دولة على ارض دارفور في القرن الرابع عشر او اي قرن بعيد الميلاد ، لأنه من السذاجة التسليم بان الحضارة ذات الطابع المديني على هضبة جبل مرة – محور ارتكاز – دارفور و القارة الافريقية ايضاً ؛ حضارة تأسست من دون وجود دولة تُعنى بتنظيم حياة بناة تلك الحضارة التي قامت قبل هذا التاريخ الفطير الذي حدد بمجهول ودون سند علمي لقيام اول دولة في ارض دارفور ! يمكنهم ان يتحدثوا عن اول دولة سُمع بها خارجياً و لكن لن يعني ذلك ابداً انها اول دولة قامت على الاطلاق بدارفور طالما ان شواهد نشوء الحضارة المدنية اقدم من هذا التحديد ، وطالما ان قيام الحضارة المدنية مرتبطة بشكل متلازم مع وجود الدولة ، وطالما اجمعت اساطيرهم المرتبطة بنشوء الدولة ؛ أن الغريب الذي أقام الدولة تزوج من بنت ملك كان موجودا أصلا

ان ادلتنا بقدم نشوء الدولة ستتعزز بدراسة علمية لآثار حضارة هذه الهضبة ، وبمعرفة تاريخ بناء المساكن والملاجئ والانفاق ومدرجات المزارع واستصلاح اراضيها ، ودراسة المنحوتات الصخرية العملاقة ، والخزف والمدافن القديمة و محتوياتها ولربما

مدنا تحت الارض . . . وعندها سيتعرف الانسان على المقاصد الحقيقية لمن تعمّد اسقاط ازمنة تاريخية غنية بالابداع الحضاري كانت ساحتها هذه الهضبة ، وسيتبين اعتسافهم على بناة تلك الحضارة بالحاقها ونسبتها لغير اهلها ، مثلما دحضنا بالصور الموثقة مزاعم البروفسور الن ثيوبولد في كتابه علي دينار آخر سلاطين الفور حين زعم انه وجد دليلا على المسيحية من اثرين عرضا له في عام 1958 م تم العثور عليهما قبل تسعة وعشرون عاما في عين فارا عبارة عن انائين فخاريين مرسوم على احداها سمكة وعلى الثانية حمامة مجنحة في شكل صليب ، وان المعبد الذي عثر عليه آركل كنيسة ! وكنت قد استبعدت منذ البداية هذا الرأي قبل مشاهدتي عيانا للآثار في عين فارا – وهذا هو الاسم الصحيح عوضا لعين فرح – بالقول : ان التصاوير على المنقولات التي تُستجلب لا تعطي اي دلالات على المعتقدات عند المنقول اليهم ، و اعطيت دليلا بكسوة الشرف التي قامت الملكة فكتوريا بالباسها للزعماء السودانيين الذين زاروا بريطانيا لابداء تاييدهم للاستعمار والتهنئة بالانتصار في الحرب العالمية الثانية ، وكانت عليها صورة صليب ضخم ، فلبسوها ولم نسمع بان واحدا منهم قد تنصر . وقلت ايضا ان العقيدة السماوية غالبا لا تنمحي دون بقاء معتنق لها او وجود مادي للاثار مثل المعابد ، وهو ما لم نسمع عنهما ابدا في كل تاريخ شعوب دارفور .

لقد تعجبنا عندما شهدنا آثار مسجد عين فارا ؛ من دوافع ثيوبولد وربما من دوافع آركل ايضا ، والذي وصف المسجد بالمعبد لاتاحة التأويلات المضللة بافتراض البناء المبني من الطوب الاحمر في جبل فارا كنيسة ؟ والبيّنات انه مسجد واضحة لا يمكن ان تخفى على عالم متخصص في الآثار في مثل قامته ! وكان عليه التثبت في رأيه بان الرسم لمسجد ، بدليل وجود المحراب الباقي الذي صوره بنفسه ، او من اتجاه المبنى نحو بيت الله في مكة المكرمة لا في اتجاه بيت المقدس !

نعود للحديث عن التاريخ الاقدم لدارفور – تاريخ ما قبل الحقبة الاسلامية – فنقول : – انه لمن حسن الحظ ورود اشارة من باحث متخصص هو الدكتور الجيولوجي وليمز الذي يظن انه عثر على فاس حجري من هذه الهضبة ، و يقدر وليمز عمر الفأس باكثر من مليون سنة (1) ، وقد تكون هذه مقاربة لتحديد وجود الانسان في هذه الهضبة التي هي ضمن حدود النظرية التي تقول ان الانسان الأول بدأ حركته لبقية ارجاء الدنيا من افريقيا ما بين ؛ جنوب الصحراء الليبية ، وحوض

النيجر ، وبحيرة تشاد ، و هضبة حبل مرة ، و حوض النيل . وقد شهدت في متحف برلين خارطة تحدد انطلاقته من هذه المنطقة بهذا التحديد والتي تحوي ضمن ما تحوي هضبة جيل مرة ، فتوزع الانسان من تلك المنطقة في افريقيا لبقية القارات .

واستطرادا لايجاد مقاربات موضوعية لتحديد وجود الفور الذين تعتبر جبل مرة وطنهم الام ؛ فقد اوردت في كتابي سلطنة الفور الاسلامية ، ان الفور كانوا وجودا اثناء تكوُّن جبل مرة بالبركان ، بدليل انهم وصفوا الحدث بمفردات لغتهم . هم يسمون جبل مرة (فوقو مرّا) ، و في لغتهم فان فوقو تعني (الجبل) و (مرا) تعني القذف المتتابع successive throw ، وهو وصف دقيق لانبثاق الحمم البركانية من باطن الارض ، و تتعزز نظرية تواجد الفور اثناء تكون جبل مرة بتوصيفهم للحدث بلغتهم ؛ بتوصيف ظاهرة اخرى اضافة لوصف انبثاق الحمم ؛ الا و هو تسميتهم للبحيرة التي تكوّنت في فوهة البركان ب (دريبي) و ترجمتها الحرفية (المديدة) وهو وصف دقيق ايضاً للبحيرة فور تكونها مكدرة قبل ترسب دقائق التراب وصفاء المياه ! قال الشاعر :-

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا و طينا .

وليس بعسير تحديد تاريخ ثورة البركان الذي كان سببا في تكون جبل مرة و بحيرة دريبي ، و بهذه المقاربة يمكن الجزم بوجود الفور في الهضبة التي ليست كلها بركانية قبل حدوث البركان الذي شهدوه ووصفوا مشاهده بمفردات لغتهم . ولا شك ان التيّقن علميا ممكن باجراء دراسات اثرية وجيولوجية في الهضبة . و لقد منحتنا رحلة توثيق آثار دارفور فرصة اخرى لتعزيز نظرية وجود قوم شهدوا حدوث البركان و بقائهم احياء بعد البركان كدليل ثالث ، بما عثرنا من آثار لاقدام مطبوعة على طائفة من الصخور البركانية في عدة اماكن فوق الهضبة البركانية ، منها آثار لاقدام بشر ومنها آثار لاقدام حيوانات مختلفة .

ان صهير اللافا قد ساح لمسافات بعيدة من فوهات البراكين ، كما ان تراب البركان قد انتشر فوق ارض واسعة من الهضبة ، وسير الاحياء فوق المقذوف الدقيق المتبرد طبع آثار لأقدام تلك الاحياء ، فعمل الجير البركاني كالاسمنت بعد هطول الامطار وتحول التراب البركاني لصخور رسوبية مختومة بآثار الحيوانات التي سارت

فوقها ، ونسج السكان فيضا من الاساطير حول آثار هذه الاقدام المطبوعة في الصخر.

ومن بين كل هذه الآثار المرتبطة بالاساطير ؛ أذكر آثار حجرية من المنحوتات في منطقة وادي نقيدا التي تفصل ما بين شرتاويتي كوبرا وسورو كما حكى لي ذلك السيد أحمد الحاج ، قال : هناك اربعة دبنقات— محفظة طينية ضخمة لتخزين الغلال - اثنتان بحجم كبير وكلها مصنعة من الضخور ، واعتادت نساء المنطقة أخذ مقاسات الدبنقات التي تصنعنها من تلك الدبنقات الحجرية ، وواحدة من الدبنقات الكبيرة مقسمة من الداخل طوليا لتخزين الدخن و الذرة كل على حدة في كل جانب .

ويقول : توجد كذلك آثار مطبوعة على الضخرة لجميع انواع الانعام الجمال والخيول والابقار والحمير والماعز والضأن ، كما توجد سروج حجرية منحوتة للجمل والحصان والحمار ، واعتاد اطفال المنطقة في لعبهم الركوب فوق هذه السروج الحجرية . ويقول أحمد الحاج أن هناك اثر لقدم مطبوع في الضخر ، وان الروايات والاساطير تقول ان اثار القدم لقدم سيدنا موسى عليه السلام ، وان آثار الحيوانات تعود للانعام التي كان يسرح بها ، ويمضي فيقول : ان الاسطورة تقول انه جاء من الجنوب وانه اراد قطع الوادي للشمال فترك سروج دوابه في الضفة الجنوبية للوادي وان متجهه كان لجبل مرة فتحجرت تلك السروج من ذلك العهد .

ثم يحكي قصة حقيقية حدثت في عهد قريب مع رجل لعبت فيها المعتقدات بهذه الآثار وخاصة الاعتقاد حول أثر القدم المحفور في الصخر والمنسوب لسيدنا موسى عليه السلام فعلتها ، فهناك اعتقاد محلي بأن قدم اي رجل او امرأة فيه صلاح ، ينزل بيسر في أثر ذلك القدم ، أما قدم الشقي فلا ينزل ابدا فيه . وحدث ان ان رجلا مشهورا بسرقته للاغنام ، وجد رجالا يننون بنفير منزلا في قرية تيرو قورلا القريبة من موضع آثار الاقدام المطبوعة على الصخرة ، فشرب مع اهل النفير المريسة ، فقال له احد ندمائه : لقد ربيت بطنك الكبير هذا بالحرام — يعني بالسرقة — واليوم يجب اختبار صلاحك كسارق مصيره جهنم وصلاحنا كشاربي مريسة قد نتوب ؛ بأن نذهب ونضع جميعا اقدامنا في أثر قدم النبي موسى ؛ فمن لم ينزل قدمه عرفنا شقاوته وعرفنا ان شراب المريسة اخف من السرقة . قبل الرجل تحدي السكاري فذهبوا ،

وجربوا انزال اقدامهم واحدا واحدا ، فنزلت اقدام كل السكارى ولكن قدمه كبر على الأثر فلم ينزل ! اغتم الرجل غما شديدا فمرض نفسيا ولم يتكلم ابدا حتى مات .

وكما ذكرت فان الاثار المنحوتة لأقدام بشرية في الضخور او لاقدام حيوانات ظاهرة متكررة في مناطق عدة في دارفور ومنها آثار ماعز وبقرة في وادي مرقا دييه ، شرقي قارا على الحدود ما بين محليتي كاس وشرق جبل مرة . وعلى بعد حوالي واحد كلم غربي هذه المنطقة وعلى جبل نيليبا يوجد أثر لقدم انسان بأصابعه الخمسة منحوتا في الصخرة ، وهو من اضخم الآثار لقدم ، ولذلك سار الاعتقاد في المنطقة بانه أثر لقدم ملك من الملائكة . وعند السؤال عن اسمه او اسم الرسول او القوم الذين اقترن الملك بهم لم اجد اي تفسير لذلك .

في هايديل بيرج بألمانيا ؛ نحت لقدم انسان في صخرة تحت قصر ملكي مطل على نهر ، وتقول الاسطورة ان رجلا دخل القصر في غياب الملك الذي خرج لرحلة صيد ، لكن الملك عاد في غير ساعة عودته ، فما كان للرجل من مهرب الا ان يقفز من اعلى القصر الشاهق ليستأنف الهروب عبر النهر، فاحتفر بوقعه من اعلى القصر حفرة على الصخرة بقدمه . واعتاد الالمان بان يقيسوا اقدامهم مع اثر قدم الهارب ، فاذا تطابق قدم احدهم مع الاثر المطبوع على الصخرة ، قالوا ان صاحب القدم يحمل دماء ملكية ، اي انه من نسل الرجل الذي اختلى بالملكة !

سبق ان اشرت الى ان للمنحوتات الأثرية قصص لا يمكن تفسيرها على الروايات الجارية اليوم في ألسنة الناس ، ومنها تلك القصة عن قدم سيدنا موسى ، وقصصا اخرى عن سيدنا صالح وعن اهل الكهف ، والنساء اللاتي سخرن من الفقرا في دبنقا ، وفي الغالب كانت للمنحوتات قصصاً مختلفة قبل الاسلام وتأثر الرواة بما قرأوه من قصص القرآن الكريم وعملوا اسقاطات تراثية للقصص التي ضاعت .

ولا بد من ذكر شئ عن الجثامين التي يُعثر عليها اما عند الحفر لاغراض كالبناء او بالتجريف المائي للمقابر ، فكل الهياكل القديمة عبارة عن هياكل لعماليق ، يطلق عليهم الفور اسم التورا ، ويقرون انهم اسلافهم ، ومتوسط اطوالهم ستة امتار ، ومن المؤكد ان حفرا في مدينة الجنينة لإنشاء مدرسة قد كشف عن هيكل بشري طوله ستة امتار ، وفي سوبارو بعيد مارا في الطريق الى موريني جرف الوادي قبرا لشخص

ضخم من العماليق ، وفي طرة جرفت المياه وفتحت جرة ضخمة استخدمت كتابوت لعملاق شهدت جمجمته وعظم ساقه . وعلى العموم فان مثل هذه الهياكل الضخمة توجد في بقاع مختلفة من السودان وقد وجدت في البطانة وفي مناطق اخرى .

توصيف لبعض معالم حضارة هضبة جبل مرة

1 – البيوت الحجرية :- التي تعرف ببيوت التورا (تورانج تونقا) معلم في كل المناطق الجبلية التي تتوفر فيها الحجارة ، لكنها كثيرة بشكل ملفت في طرة ثم جبل سي ، ثم في اوري بجبال فورنونج ، ويمكن ملاحظة الترتيب الزمني لبناء هذه البيوت بحجم وضخامة الاحجار المستخدمة في بنائها ، فاقدمها هي اضخمها حجارة بناء . كما انها تختلف عن بيوت جبل مرة الحجرية الحالية في انها تبنى برص صفين من الحجارة محشوة باحجار صغيرة Gravels كمونة وتسوى لتبدو مستوية ودون نتوءات من الداخل والخارج وبدون نوافذ ، كما انها تتميز بانها ملتصقة الغرف المتصلة بأبواب فيما بينها ، وهي ودائرية الشكل وتشبه في تداخلها خلية النحل ، مستوية السقف بينما بيوتنا الحالية مخروطية وتسقف بالقش ، وكان التورا يسقفون بيوتهم بعرشها باعمدة صلبة كاعمدة الابنوس والسنط والمخيط وكلها تقاوم السوس والارضة ، ثم يفترشون فوقها القنا او الكداد ، ثم تفرش فوقها صف من رقائق الاحجار المستوية ، ثم يهيلون فوقها نوعا خاصا من التراب الذي يمنع نفاذ الماء تحت سطحه ، وسمك حائط هذه الابنية متفاوت ، فسمك اسوار القلاع والقصور الملكية تصل احيانا الى ثلاثة امتار ، بينما متوسط سمك الحائط الفاصل ما بين الغرف الملتصقة سبعون سنتمتراً تقريبا ، ولا توجد فراغات ما بين الاحجار الضحمة التي تبنى بها بيوت التورا لانهم يحشون تلك الفراغات باحجار مكسورة تسوى بفن دقيق مع الاحجار الضحمة ، و يبدو ان كل اسرة كانت تتخذ مسكنها المنفرد وتحتفظ ببعد مناسب عن بيوت غيرها ، فالاسرة في مُجمّعها السكني كانت تحتفظ بمساحة لزراعتها ولرعيها ، وكانت هذه البيوت تورث لاجيال فعلى سبيل المثال ظل قصر تونق كيلو بطرة قصرا لادارة الدولة لحقب مختلفة من حكم السلاطين قبل وبعد ان قام السلطان تيراب بنقل العاصمة من طرة لسوبا . فالقصور كانت عبارة عن قصور ملكية يتناوب عليها السلاطين جيلا بعد جيل خاصة انهم كانوا من نفس السلالة .

و نلاحظ تنسيب اكثر من قصر للسطان شاودورشيد في بيئات جغرافية مختلفة من الهضبة ، فله قصور في كل من جبل فارا بجبال فورنونج ، و قصر في توري بجبل سي ، وقصرين في طرة في كل من تونج كيلو وكوسيه . كما كان للسلطان دالي قصراً في جبل اوري بجبال فورنونج ، وقصراً في جبل فوقا بطرة ، و للسلطان كورو قصر في هضبة فوري بطرة ، وقصر اخر في جبل دا در شمال اوري بجبال فورنونج . فهناك عدة قصور وعدة مدن تحتاج للدراسة والتحديد خاصة قصور غربي الهضبة في جبال كونو وكارقو وسندو التي لا تتصل الروايات ببناتها ، وقصورا اخرى في السلسة شرقي الهضبة في السميات الى ام كدادة ثم جبال الميدوب ، عدا قصر نامودو بالقرب من الفاشر وتنسبها الرواية التقليدية لرجل حفظ القرآن الكريم قبل تجاوز الطفولة ، فاطلق عليه والده اسم (نامو دونقو) وتعني بلغة الفور صاحب المخاطة ، فقد حفظ القرآن الكريم و لما يتعلم كيف ينظف نفسه بازالة مخاطته ! وهي رواية ذات دلالة بما ذهب اليه المؤرخون من فرض علاقة ما بين الفور والبرتي .

ومن بين اهم القصور ومن كبريات مدن التورا ؛ مدينة أوم ما بين كبكابية وطويلة ، وبنيت هلى هضبة مسطحة واحيطت بسور حجري ضخم ربما جعلت المدينة حصنا منيعا لكونها نسبيا واقعة على مشارف أرض مفتوحة من التاحيتين الشرقية والغربية ، فاتجاه هضبة جبل مرة ؛ انها متصلة من الشمال الى الجنوب عبر هذه المنطقة التي هي ايضا خط لتقسيم مياه الهضبة ما بين مياه شرقية ومياه غربية . ومعظم المدن التاريخية فوق هذه السلسلة .

فالعامل المشترك لاختيار المواقع ، هي الحماية الطبيعية ، ففي انشاء اي قصر من القصور الملكية كان الهاجس الامني حاضرا سواء باختيار موقع القصر فوق سطح يُرى منها كل التحركات حولها وتكون عصية الصعود للقصر ، اومن متانة الاسوار وتعددها كدالة اخرى على صعوبة اختراق المناطق الامنية ، فالقصور كانت قلاعا مستحكمة . و ما من شك ان المناخ واوضاع الطقس كانت عاملا آخرا في تعدد القصور الملكية ، ومن ثم انتقال السلاطين للقصور الملكية حسب فصول السنة ؛ اولاً لراحتهم ، وثانيا لمباشرة ادارة الدولة وتقصير الظل الاداري وفرض الهيبة بوجود السلطان في كل مكان . ان نظرية تعاقب السلاطين في المقار الملكية مستوحاة من حقيقة انه لم يتبين حتى الآن وجود آثار لمسجد في قصري شاو، وفي قصر دالي في

طرة ، بينما توجد آثار مؤكدة للمسجدين في قصريهما بجبل فارا و جبل اوري بجبال فورنونج ، وهذا يعنى ان قصور طرة هي الاقدم من حيث الترتيب الزمني ، وانها انشئت من قبل سلاطين لم يدركوا الاسلام ، ولذلك لم يبنوا عليها مساجد ملحقة ، ولكن السلاطين الذين ادركوا الاسلام استخدموا القصور القديمة لاسلافهم التورا وغلب نسبة هذه القصور لشاو و دالي لان الذاكرة التاريخية للاجيال وقفت عندهما فاسقطوا بناة القصور الفعليين ، لانهم لا يكادون يذكرون تفاصيل تاريخية للعهد الذي سبق الاسلام رغم الادلة العديدة لوجود ذلك العهد ومنها خلو آثار للمساجد في اقدم قصور السلاطين بطرة .

هناك اشارة لغوية مهمة لتأكيد تنسيب قصري تونج كيلو وقصر جبل فارا لذات السلالة الحاكمة ؛ ذلك هو ان قصر تونج كيلو الملتصق بشمالي جبل نامي قريب من مدينة حجرية ملتصقة بجنوبي جبل نامي تسمى فاري دولو اي بوباية فاري ، ففاري و فارا مشتقات لغوية لمعنى واحد تعني البوار ، فمن سمى القصر الاول هو من سمى الثاني وهذه ظاهرة متكررة تبيّن متجهات حركة السكان داخل هضبة جبل مرة ، فمن ينزح من منطقة ويستقر في اخرى بشكل جماعي يسمي المنطقة التي نزح اليها باسم المنطقة التي كان فيها ، ويسمي الجبال حوله بمسميات الجبال التي هاجر منها ، لذلك تتكرر اسماء جبال مثل كاوا و بارا وكارا . . . وهكذا

نلاحظ ان فن بناء قصر تونج كيلو في طرة اكثر تعقيدا من القصور الاخرى بما في ذلك بقية القصور التي تنسب لنفس صاحب قصر تونج كيلو السطان شاو دور شيد ، فهنا ثلاث مستويات من الغرف ، فالاول على سطح الارض ، ثم يدلف منه سلم لغرفتين تحت سطح الارض ، لتخرج منهما سلّمان لغرفة اعمق في باطن الارض واسعة بشكل ملفت مما اضطروا عند تسقيفها الى الاستعانة بشعب من الابنوس كركائز والتي ظلت منصوبة حتى ثمانينات القرن الماضي ، لكننا لم نجدها عند زيارتنا التوثيقية للآثار لانها احترقت قبل اقل من ثلاث عقود . ولم نعثر في تونج كيلو على رسم لمسجد ، فإذا خلا القصر من مسجد ؛ فمن الواضح انه من اقدم قصور السلاطين المعروفة لدينا ، اما اذا اكتشف اثرا لمسجد فانه سيكون من جيل القصور الملكية الاقدم كقصر جبل فارا و جبل اوري . وتوجد في تونج كيلو ايضا اثرين متميزين هما اصطبل الحصان والملجأ وجميعها بنحت جبل نامي البركاني و الذي كان

في الماضي عبارة عن اضخم صومعة لحفظ الغلال من هجمات الغزاة ، و لعل من اسباب عدم وجود طوابق ارضية ، وبناء الاصطبل بالحجارة بدلا عن نحته في تقنية البناء بجبل فارا – كما هو الحال في تونج كيلو – ان القصر وملحقاته في فارا مبنيان فوق صخرة من الحجر الجرانيت شديد الصلابة هي جبل فارا عصي الاحتفار .

ويمكن ملاحظة ثلاث انماط مختلفة من ركائز المساجد القديمة ، هي ركائز مسجد عين فارا في شكل الحرف لام او L ، وركائز مسجد طرة وشكلها مربع مع ترقيق ملحوظ في المنتصف لترسم هلالاً ، و ركائز مسجدي شوبا و اوري المستديرة . وهناك اختلاف ملحوظ في عتبات الابواب والنوافذ ، فنوافذ مسجد شوبا في شكل مثلث ، والنوافذ في طرة مستطيلة . وهناك ملاحظات حول تقسيم المسجد حسب الوظائف والاغراض ، وأوضح التقسيمات هي تلك التي نجدها في مسجد طرة و مسجد شوبا التي بنيت على طراز مسجد طرة من حيث التقسيم الداخلي ، من مصلى للسلطان يستخدم في غيابه كمكتبة ، ومصلى لكبار رجال الدولة وحراس السلطان ، وفي غيابه تستخدم كمصلى نساء ، وفي مؤخرة المسجد مصلى للنساء لكنه غير مفصول بحائط .

ولا بد من الاشارة الى الدقة المتميزة في بناء مسجدي فارا وشوبا بالطوب الاحمر، ومساجد اخرى تاريخية بنيت بالطوب ، وكذلك بناء قصر أفني في دايا بطرة الخاص بالسلطان احمد بكر ، والقصرين في شوبا التابعان للسلطن تيراب ؛ فقد تبيّنت نحوا من عشرة مقاسات واشكال مختلفة للطوب الاحمر لتعطي الاشكال الهندسية للابواب و النوافذ والركائز في كل تلك الابنية ، وهو عمل هندسي مذهل قام به المعماريون في ذلك الزمن باجراء حسابات هندسية دقيقة ، وعلمت ان المادة اللاصقة للطوب كانت المرقة المستخلصة من غلي عظام الثيران وهي غنية بالكالسيوم كمادة لاصقة .

2 – مدرجات الزراعة : – من هذا الفن نتبين و نستخلص جملة من سمات حضارة هضبة جبل مرة ، فهي حضارة مدنية ترتبط باستقرار الانسان لا ببداوته ، فالزراعة في ترتيب انماط كسب الانسان يأتي بعد كل من الاعتماد على ثمرات البيئة الطبيعية والصيد والرعي كحرف تكسب ، و اقامة المدرجات فن من فنون الزراعة عرفه الانسان قديما في هذه المنطقة الجبلية كتقنية لوقف انجراف التربة من المنحدرات، و ما يثير الدهشة ان هذه المدرجات معمولة على كل شبر ارض ، فتغطي كل هضبة جبل

مرة مهما كان الارتفاع ، ومهما بعدت المزارع اليوم من القرى المعمرة بسكنى الانسان واماكن توفر المياه ، صحيح ان السكان الحاليين ما زالوا يستخدمون المدرجات كتقنية من تقنيات الزراعة ولا يستغنون عنها ، الا انهم يؤسسون بنيانها على الاساس الذي اقامه التورا ، وما زالوا يسمونها و ينسبونها لهم (تورانج كيرو ، وتعني مدرجات التورا) ، فما يقومون به في الغالب هو ترميم المدرجات ، و مع ذلك لا يصعب ملاحظة الفرق بين ما اقامه اقدم المزارعون التورا وبين ما اقامه المتاخرون سواء بالانشاء او بالترميم ؛ ذلك ان التورا لا ينشئونها على زاوية قائمة ، بل يميلون بها بانحراف بسيط متدرج نحو الداخل او نحو اتجاه قمة الجبل او المنحدر concavely))، وهذا التقدير الهندسي يفسر سبب عدم انهيار هذه المدرجات نفسها بانجراف المياه المنحدرة التي تنزلق فوق سطحها الحجري حينما تكون مركز ثقلها للداخل ، بعكس ما لو كان مركز الثقل والانفراج للخارج ، لان ذلك سيسبب مقاومة فوق سطح ينفرج للخارج ، فتدفعه قوة سيل الماء للانهيار بيسر . هذه الملاحظة في زواية ميلان مدرجات التورا للداخل ابدتها لي خالتي رحمها الله اذ وصفت لي ان مدرجات التورا في وضع (سودا – جمع سود وهو الجثو على القدمين) و هذا تشبيه مقتبس من وضعية ظهر الانسان حينما يكون جاثما على قدميه ، فميلانه يكون نحو اتجاه وجهه ، وظهره سيبرز قليلا للخارج ليكوّن حدبة في الظهر !

نلاحظ ايضا ان التورا اقاموا المدرجات بقصد استصلاح الاراضي الزراعية ، فعالجوا ضيق الارض الزراعية بتغطية المساحات الصخرية بتراب منقول يثبت بالمدرجات التي يقيمونها ، وهذا يفسر امرين ملحوظين ؛ هما ان غالب السطوح عليها تراب ومدرجات ما عدا تلك السطوح التي تكون في زاوية قائمة او تلك المعكوفة للداخل فتشكل ما يشبه الكهف ، اما الثاني فان التراب كان يؤخذ اسفل الصخرة التي يراد تحويلها لارض مزروعة ، بدليل وجود حفائر تدل ان ترابها ازيل ، وهذه بذاتها ؛ توضح لنا واحدة من سبل حصاد المياه لتعطينا اجابات لسؤال كيف سكن وزرع الانسان كل شبر من ارض الهضبة – ونحن نرى ان الكثير من مناطق جبل مرة اليوم تعاني من العطش – ؟

ولكن اهم ما نستخلصه من وجود المدرجات المكثف في كل شبر من أرض هضبة جبل هو ان وجودها المكثف ؛ تعزز فكرة ان جبل مرة شهدت في تاريخها مرحلة من

الانفجار السكاني ، وقد ذكرت ذلك في كتابي سلطنة الفور الاسلامية وعضدت الدليل بظاهرة تحديد المسارات لسير الانسان والحيوان برص صفين من الحجارة على جانبي الطرقات تفاديا للسير في المنطقة المزروعة كدليل لضيق الارض ثم الاستغلال الامثل لكل مساحاتها بما في ذلك تضييق عرض تلك المسارات ؛ اذ لو كانت الارض كافية لهؤلاء الناس لما ضيقوا عرض تلك الطرقات (2).

ولربما أوت معظم القبائل القديمة في دارفور يوما ما ونتيجة لحروب وغزو خارجي لمناطق من دارفور ؛ الى الجبال للاحتماء ، ثم خرجوا بعد زوال المهدد الى السهل ، فهذا يمكن ان يكون تفسيرا لقول قبائل مثل الرونقا والبنقا ان موطنها القديم جبل مرة ، و يكون تفسيراً آخر لمسميات جبال في الهضبة يصعب ايالة اصل تسميتها للغة الفور المتحدث بها اليوم مع الابقاء على احتمال تطور اللغة واندثار بعض كلماتها . وسمعت في التجوال تفسيرا او رواية تقليدية لسبب ترك جد البرتي لجبل مرة و توجهه لجبال السميات ، حين قيل لي انه بعد البركان صارت الارض في الجبل لينة ، ولانه كان عملاقاً ترك موطنه في الجبل ليعيش في ارض اكثر صلابة ! وهي رواية تؤكد ما ذهب اليه الباحثان كنسمن ونيخابورس في كتابهما عن البرتي على وحدة اصول البرتي والفور وقد ذكرت ذلك في كتابي سلطنة الفور الاسلامية ، واعزره هنا بهذه الرواية وبما ذكرت من قصة نامو دونقو في فقرة سابقة من هذا الكتاب .

إن الاحتراف المبكر لانسان جبل مرة للزراعة وقدرته الفائقة في الهندسة الزراعية؛ سواء بتقنية بناء المدرجات ، او شق الترع بعد إقامة السدود ، او انشاء الحفائر، أواحتفار آبار بنحت الطبقات الارضية مستخدما التبريد المتدرج بنباتات تخزن كميات هائلة من المياه كالسلعلع والرطرط والقفل والجميز ، أو بالتبريد المفاجئ للطبقة الصخرية المسخنة بإيقاد النار عليها ثم بصب المياه عليها ، او براعته في التنبؤات الجوية ؛ مدعاة لدراسة تاريخ مهنة الزراعة وما يتصل بها من معارف متنوعة برع فيها هؤلاء السكان القدامى .

ومنها ايضا يمكن معرفة الاحوال المناخية المتغيرة التي مرت عليها هضبة جبل مرة التي هي لليوم منطقة متعددة المناخات وخاصة ما يتعلق بدرجات الرطوبة النسبية . ويمكن ايضا متابعة تاريخ ادخال كل محصول في الدورة الزراعية بجبل مرة ، فالبندورة على سبيل المثال أُدخلت ما بعد العام 1875 م بواسطة الاتراك في منطقة كلنج

فسميت برينجال أو بحرنج فيا وتعني فيا البحر ، وفيا عينة مستوحشة قديمة في الجبل تشبه ثمرتها البندورة ، ولا تزيد حجمها عن حبة الذرة الشامية . وعلى العموم فإن كل محصول لا يحمل اسما محليا بلغة الفور يعد محصولا جديد الدخول في الدورة الزراعية .

وعند زيارتنا لاوري (عين سيرو) اندهشنا بوجود آثار لسد ضخم - اسمه دوا نيرا وتعني هدمتها السيول – بُني لتوفير الاحتاجات المائية لواحدة من اكبر المدن الحجرية ، ومنها اقامة الزراعة المروية ، يقول الاستاذ عمر فروك وهو ضابط اداري من ابناء منطقة فروك ؛ ان السد بني بحجارة طولها متر ونصف ، جلبت من جبل في فونونق اسمه سيرقل فوقو، وتبعد حوالي عشرة كيلومترات من موقع السد ، وتربطه مع موقع السد طريق اطلق عليه اسم (ديوانج دورا) وتعني طريق البعر ، لما قيل ان من سُخّر لحمل تلك الحجارة الضخمة افرغ اثناء سيره خبث البطن ! اي انهم تغوطوا كالبقر في سيرها . ولقد انهار السد ، ومن المحتمل ان انهياره تسبب في هجرة ضخمة للسكان وخاصة تجاه المناطق الجنوبية الرطبة صوب قمة هضبة جبل مرة ، وبالفعل افاد الاستاذ عمر بمقولات من الرواية الشفهية تقول انه حينما انهار السد حدث دوي هائل حتى ان الجمال في منطقة بعيدة هي امبرو قطعت حبالها وولت هاربة وان قرى عدة محيت بالسيل العرم .

ومن المؤكد ان بناء السدود بقفل مضايق الجبال كانت تقنية قديمة لجعل الاستقرار ممكنا ، ولتوفير مساحات للزراعة المروية التي صارت فنا مميزا لحضارة هضبة جبل مرة ، فما يزال سكان الجبل اليوم بارعين في شق قنوات الري لسقي حقولهم المروية . ونشير الى موضع بنفس اسم سد عين سيرو — دوا نيرا — على وادي كيرا التي تفصل حدود طرة الادارية مع حدود عمودية دوبو شرقي جبل مرة ، ويمكن بتدقيق ودراسة آثارية التحقق فيما لو كانت في المنطقة سدا منهاراً .

لقد خططت مدينة اوري لاستيعاب مناشط المدينة المختلفة بدليل وجود فسحات تتخلل المجمعات السكنية ربما كانت اسواقا وفسحات للاجتماعات ، وتنتشر في ساحات المدينة حصي ملونة طبيعيا بالوان مختلفة زاهية ،كما يوجد مسجد حجري واسع جدا يستند على نحو ست وستون ركيزة ، وحوله منازل وفسحات ملحقة تبين المناشط التعليمية والاجتماعية للمسجد .

وتعرفنا على بوابة المدينة الرئيسية المنحوتة على جرف نهر ينساب باختراق جبل بركاني ، وبفن هندسي جُعل ضفة النهر الغربي سورا طبيعيا بالنحت لتحمي المدينة من شرقها لجنوبها ، ونحتت كذلك بوابة المدينة الشمالية الشرقية ، وهو الثغر الوحيد غير المحمي طبيعيا ؛ فسطحت دعامتيها لتكونا قادرتين على ارتكاز الجنود الحارسين للمدينة في اعلاهما ، وفتحت عند اسفل الدعامتين فتحة صغيرة تسمح بعبور المارة اذا دعت الظروف اغلاق البوابة الكبيرة ما بين دعامتيها – انظر صورة البوابة ضمن الملاحق .

ووقفنا على بئرين يبدو انهما حفرتا بعد انهيار السد بقطع الحجر البركاني لأنهما في مجرى الوادي ، ويوفران اليوم موردا للماء لاهل المدينة التي تحولت نحو الشمال من المدينة القديمة ، لنستخلص ان قرية اوري من القرى القديمة جدا التي ظلت باقية ، ولا مثيل لها في القدم من بين المدن التاريخية الا قريتي فاري دولو وقارنقا في طرة واللتان اعيد اعمارها بعد نشوب الحرب في دارفور عام 2002 م .

و من الآثار التي وقفنا عليها في اوري ما قيل لنا انهما كرسيي التطويش (لاجلاس من يراد استئصال مذاكيره من الخصيان) . و لكن ما من قصر الا وجدنا في ساحته حجرا يمثل كرسي السلطان واخر لجلوس الحراس المراقبين للدخول و الخروج من المدينة . فالجلوس على الكراسي الحجرية كانت عادة ، حتى قيل أن من عادات التأدب في الزيارة في تلك الحقب ابرار المزار بحمل حجر يصلح استخدامه ككرسي، فكما تجري اليوم عادة حمل زائر الرجل والمرأة العجوز في الريف ؛ حمل حطب كهدية بين يدي الزيارة ؛ فان حمل حجر يصلح للاستخدامات المختلفة كانت من آداب الزيارة .

ونشير ان الآثار في دارفور حميت حتى الآن باعراف ارستها المجتمعات المحلية ، ومصممة في الغالب لحماية الآثار والبيئة الطبيعية ممثلة في منع قطع الاشجار المعمرة والمثمرة ، وفي صيد الحيوانات في فصول تكاثرها ، ومنع الحرائق ، ولذلك وجدنا أن التقاليد والعادات منعت استزراع ساحة قصر تونج كيلو مثلما منعت نبش القبور والمخازن ، فالتقاليد والاعراف هي وحدها الوسيلة الناجزة في حفظ ذلك التراث الانساني الضخم في ظل غياب اي حماية لها من الدولة . هناك تخويف للمغامرين بالجان وبالثعابين الكبيرة في المواقع التي يراد حفظ آثارها بالاعراف .

3- الملاجئ والكهوف والانفاق :- عندما تجلس وتستمع للناس في المناطق الجبلية بدارفور ؛ فانهم سيحدثونك عن ملاجئ وانفاق تربط ما بين بعض الجبال ، وفي بعض الاحيان سيحدثونك عن ملاجئ كان يلجأ اليها الانسان ايام الحروبات ، واذا عزمت رؤية ومشاهدة تلك الانفاق والملاجئ فلن تجد احدا يقودك اليها عندما تكون غريبا ، و حتى الذين اهتموا بدارسة آثار دارفور من امثال آركل لم يحددوا موضعا لتلك الملاجئ والانفاق ، وتعزى اسباب ذلك ؛ ان تلك الملاجئ والانفاق انشئت اصلا لحماية سكانها من الغزو والاغارة ، وتعريف الناس بها يُبطل غرضها و لذلك حجبت عن الغرباء والباحثين للشعور العام بعدم انتفاء المخاوف وبالتالي استمرار الاحتياج اليها ، فتلك الملاجئ عبارة عن تجاويف لبعض الجبال خاصة البركانية منها ، ويدخلونها من باب ضيق تعمل في منطقة يسهل الدفاع منها منعا لاقتحامها من قبل الاعداء ، و في ايام الحروبات تستوعب هذه الملاجئ الانسان و الحيوان والمتاع لاطول فترة حتى زوال المهدد ، مع امكانية وجود نفق تحت الارض يمكن استخدامه للهروب المتخفي والظهور المباغت في منطقة بعيدة من رصد العدو . ومن اكثر من رواية فان هذه الملاجئ والانفاق صارت مساكن لثعابين صخمة لا تظهر الا بعد اعوام وتُقدم لها اطعمة ، وبعضهم يربط عادات اطعامها بجلب الامطار فيذبحون لها شياه فتلتهمها وتدخل اجحارها فلا تخرج الا بعد عام او عامين ، وتصدر عند الخروج صوتا يشبه صوت الماعز فيسرعون لاطعامها ! لقد اكد لنا الدليلان اللذان صحبانا لزيارة آثار تونج كيلو ان ثعبان نامي خرج خريف هذا العام 2017 م ، وان الناس شهدوه منطويا وبعضهم قال كان كالجمل المبروك ، و قال آخر كان بحجم القطية ! . فهناك قصص واساطير حول الملاجئ والانفاق لحمايتها من الاقتحام ، باصباغ هالة من الخوف من جن يسكنها او من افعى وبهذه اطلق على نفق كريه الرائحة في كيلا بالقرب من الملم كما سيأتي ذكره اسم – دولو مورّيه – اي الحفرة العبقة الرائحة ، اي الذكية الرائحة ؛ فمن لا يطلق عليها الاسم المضاد لرائحتها الاصلية الكريهة يمكن ان يغدو ممسوسا بالجن الحارس حماها والذي يطلق عليه اسم (الدمزوقة) ! . ليست كل قصص الافاعي المسكونة في الملاجئ و الانفاق اساطير ، هناك ما منها صحيحة كثعبان نامي .

لقد تيقنت على الاقل من وجود مثل هذه الملاجئ سابقا ؛ إذ استخرجنا من احداها درعاً وخوذة وارنبة انف واهديناها للسيد احمد ابراهيم دريج حاكم اقليم

دارفورعام 1982 م عند زيارته لطرة بجبل مرة . ونضيف الى هذه المعالم الاثرية ظاهرة قطع قمم الجبال وتسويتها لاقامة العمران عليها ، وما يقال عن محاولة تحويل جبل ام كردوس لمجمع جبال الداجو ، فآثار تقطيع هذه الجبال باق حتى اليوم .

4 - المصنوعات وادوات الزينة و تقنيات الصيد :- يبدو ان صناعة الحديد كانت حرفة رائجة ؛ فما من مكان في دارفور الا وتجد فيه خبث الحديد ، وكانت من اكتشافاتهم وتقنياتهم ؛ جعل صناعات الحديد صلبة بوضعها وهي ساخنة لبرهة في الماء ثم اخراجه ، وهذه عملية فيزيائية علمية لتقوية الحديد الزهر ، كما كانوا يستخدمون الفرن الحراري لصناعة الحديد ، فيصنعون ما يشبه (الدبنقا) ولكن يتركون فتحة ما قبل قاعها ، فيملؤونها بتراب فيه نسبة عالية من الحديد ثم يُشعلون تحت الفرن النار وتنصب النفاخات ويقوم الرجال بالنفخ بينما تقوم النساء بإلهاب مشاعر هؤلاء الرجال حتي يقاوموا الحر ويستمروا في النفخ دون توقف ، فينصهر الحديد و يخرج بالفتحة المتروكة لخروجه وتترسب المعادن الثقيلة عند القعر بينما تطفو المعادن الخفيفة المصهورة فوق الحديد المصهور . كما كانوا يستخدمون طرق علمية لاستخراج النحاس وذلك بحرق خام النحاس المعروف علميا باكاسيد النحاس بحطب، وفروع لينة من اشجار مشبعة بالمياه مثل شجرة الرطرط (اللبان) وشجرة القفل والسلعلع ، فاحتراقها مع الفحم ينتج غاز اول اكسيد الكربون و الذي يعتبر مادة مختزلة لاكاسيد النحاس منتجة النحاس .

واشتهرت حضارة هضبة جبل مرة ايضا بالصناعات الفخارية لازيار ضخمة لم تكن تستعمل فقط لحفظ المقتنيات ولاغراض الشرب ؛ بل كانت تتخذ ايضاً كتوابيت توضع داخلها الموتي بمقتنياتهم الثيمينة فيدفنون ، فكان الميت يوضع واقفا داخل الدوانة الضخمة التي تدفن عمودية ، وتغطى فمها اما بحجر رهيف او بغطاء فخاري كالدوكة ، ثم يكومون فوقها بعد الدفن احجارا او يرصونها في صف دائري حول عنق الدوانة كمعلم (شاهد) للقبر ، فالسكان الحاليون يعرفون من الشواهد الى أي حقبة تنتمي القبور . اما المقتنيات التي وجدت داخل القبور فعبارة عن خرز بانواعها و لؤلؤ وسوميت واسورة وخلخال من النحاس والبرونز واحيانا مصنوعات ذهبية .

طريقة الدفن بوقوف الموتى وفي التوابيت الفخارية وبمقتنياتهم الثمينة ؛ تبين

المعتقدات القديمة ، فتدحض وجود الديانتين اليهودية والمسيحية في ارض الهضبة ، ذلك ان عادات الدفن والختان كانت آخر العادات القديمة المهمة التي ظلت متعايشة مع الاسلام الذي بدأ متسامحا مع العادات القديمة كلها لدى الفور ، فالتحول لطريقة الدفن الى الطريقة الاسلامية لم تبدأ الا مع موجة التدين او بالاصح التفقه الذي انطلق اواخر عهد سليمان الثاني 1640 م ، بدليل انه هو نفسه تم دفنه على طريقة دفن التورا لموتاهم ، ثم عمد ابنه موسى سليمان لاستخراج رفاته من مدفنه في تاتار في شمالي جبل نامي الى مقبرتهم الاسرية وعلى الطريقة الاسلامية في طرة ، وتأخر تطبيق ختان الذكور الى ما بعد السلطان موسى ، ففي عهد ابنه احمد بكر بن موسى ؛ فرض ختان الرجال ، وتحكي الروايات ان السلطان جلب موساً من مصر لختان اهم حكام الولايات ؛ الديمنقاوي ، وقد خلدت الاغاني التراثية الحدث .

وبالعودة الى المصنوعات الخزفية ؛ فهذه الدوانات موجودة عند اشخاص استخرجوها وهي سليمة غير مكسورة و يمكن استخراجها بيسر من اي مقبرة تعود تاريخيا لعهد التورا (تورانج توربانقا) ، وكذلك توجد مستخرجاتها من ادوات الزينة لدى عدد من المواطنين عثروا عليها صدفة اثناء اشتغالهم بالزراعة فحفظوها ، فاعراف الانسان تمنع نبش القبور من اجل المال وهذا ما يفسر بقاء مقابر التورا سليمة رغم العلم بما تحتويها . فالمصنوعات الضخمة التي رأيتها في متحف برلين بالمانيا تشبه تماما هذه الازيار الضخمة التي تعج بها و بقطعها المكسورة كل ارجاء هضبة جبل مرة ، ومن الغريب الا يوضع واحدة منها في متاحف دارفور او في المتحف القومي . لقد حملنا قطعا فخارية مختلفة من اوري لايداعها في متحف السلطان بالفاشر . وصورنا فندقا حجريا ضخما يلزم تحويله للمتحف في الفاشر .

الآثار الدالة على انتشار مهنة الصيد عديدة ومتنوعة منها ؛ قفص حجري لصيد الحيوانات المفترسة ؛ فيربط طعم داخل نهاية البناء الحجري ، وتشد باب خشبي سميك يكون مسحوبا داخل تجويف بين احجار بناء القفص الذي يسمي (تيري – بكسر التاء) بحبل يسهل قطعه ، فعندما يجذب الحيوان الطعم ينقطع الحبل ، فيهوى الباب سادا القفص ، فيأتي الصيادون بحرابهم ومشاذبهم الخشبية فيطعنون الصيد نمرا كان او دبا او اسدا او قرداً خلال الفرجات في الباب حتى الموت .

وكانوا يصطادون الافيال والجواميس وحيوان النيلد والتيتل والزراف بحفر حفر

عميقة تغطى سطحها بعرش خفيف ينهار عند سير الحيوان عليها فيسقط فيها ثم ياتون لقتله . وقد يستخدمون السكين المربوط في حبل لصيد الحيوان بعقرها فيتتبعون الاثر فيصطادونها . و كانوا ايضا يصطادون النيلد بمحاصرتها في هاوية فيتردى فيها . ما زالت آثار الحفر العميقة موجودة وما زالت الاقفاص الحجرية قائمة ومستخدمة لقتل القرود . وتصطاد ثعابين الأصلا غير السامية بعصرها بأعمدة رطبة يقطعونها من الاشجار ، يضعونها عند الذيل والوسط والعنق ثم شقها

5 – المنحوتات الصخرية :- من اقدم آثار هضبة جبل مرة منحوتات تأتي الرواية المحلية عنها في سياق انهم بشر مسخهم الله لأنهم سخروا من المهاجرين (طلبة العلم) الذين يعتبرون اولياء الله . ولذلك من الصعوبة تحديد دلالات ترميز هذه المنحوتات التي تتعرض للاسف الى الاتلاف غير المقصود اما بقطع اجزاء منها لاغراض البناء او بعبث الرعاة ، واذكر هنا نصبين كانا واضحتا المعالم قبل الحرب التي اجتاحت دارفور في العام 2002 م ؛ اولهما نصب محمد موج (أُمّاد موج) على جبل فوقا التي بها قصر السلطان دالي في طرة ، وهذا النصب لفارس يحمل حربة ويتجه نحو الجنوب ويرى بوضوح من دايا المدرسة ، والقصص المقترنة بحكاياتها ان فيها جان يرسل عند ثورته الاعاصير . اما النصب الثاني فيعرف ب (يانقا بدينقا) و تعني النساء المجسمات لأن بدي تعني التقطيع للتجسيم اما يانقا فتعني النساء ، والقصة المروية عنهن انهن بنات كن تردن الماء ، فسخرن من مهاجرين ، فسخط الله منهن فمسخهن احجاراً .

فلهذه المجسمات قصة اخرى وتاريخ لا بد ان ينبرى له مختصون ، وما نؤكده هو ان تاريخ الحضارة في هذه الهضبة اشتمل على انواع وانماط مختلفة من الآثار التي تشهد عمق الاحداث التاريخية ، وانها كلها من آثار سكان هذه الهضبة وهم الفور ، وان الاسم تورا تسمية من الابناء لآبائهم الاقدمين تمييزا بالفترة التي عاشوا فيها ، و هي فترة ما قبل هيمنة الاسلام ، فإذ نتحدث عن الآثار القديمة التي تعود لفترة ما قبل اسلام كل الفور فاننا نتحدث عنهم كتورا ، وهذا اشبه بالحديث عن الشعر العربي الجاهلي الذي هو ذات انتاج العرب من الشعر ، ولكن التوصيف لبيان فترته (3) . ولأن الاسلام سرى في مجتمع دارفور بتدرج وبتواؤم مع العادات والتقاليد القديمة ، فإن بعض الآثار المنسوبة الى التورا حدثت وقائعها في ظل الحقبة الاسلامية من تاريخ دارفور ، كما ان اشخاصا يعرفون بأنهم تورا عاشوا في العهد الذي يؤرخ بأنه

اسلامي . فلا فصل دقيق وحازم هنا ، مما يؤكد حقيقة تعايش الاسلام مع الوثنية فترة طويلة من الزمان .

يجب ان اقر بعد الزيارة التوثيقية للآثار ان هناك العديد من آثار التورا تعود للحقبة الاسلامية بدليل وجود مساجد اقدم من مسجد طرة وهي مبنية على فن معمار التورا وهو فن استمر لما بعد عهد هيمنة الاسلام على الحياة في دارفور بدليل ان مسجد طرة نفسه مبني على تقنية ابنية التورا ، كما لا بد من الاشارة الى ان تقليد دفن الموتى على الطريقة الاسلامية تقليد متأخر ولم يتعمم الا بتأثير من علماء طرة الذين اشاروا للسلطان موسى بدفن والده السلطان سليمان الثاني على التقليد الاسلامي ، فقام بنبشه من تتار بالقرب من تونج كيلو الى طرة جامع التي صارت منذ ذلك التاريخ مأوى لاجداث كل السلاطين الذين حكموا دارفور كما سبق ذكره .

إن ما تم الاشارة اليها من معالم أثرية ؛ ما هي الا ما تعرف عند علماء الآثار بآثار ظاهر الأرض ، وقد يكون للدارسين موعدا مع تاريخ أشد قدما يروي قصة حياة ممتدة ومتمددة على هضبة جبل مرة . ستُعرى خافياته مع جهود التنقيب لاستكشاف الأقدم فيه .

تعريف الفور

ان لكلمة (فور) في لغة الفور مدلول اصطلاحي تعزز ما قيل ان جبل مرة وطنهم الام home land ، فهي تعني الوطني او الاصيل indigence و يمكن الاستدلال بعدة اسماء تاتي كلمة فور مضافة لها لبيانها مثل (فولو فورينقا وتعني الفول الفوراوي اي الموّطن الذي لم يجلب لدارفور) و (فورو فورينقا – وتعني الذقن الفوراوية اي الذقن الدائرية ، كناية على انها كانت السائدة قبل بدعة حلقها) و (دليي فوري وهي موسى للحلاقة والحجامة كان الحداحيد يصنعونها قبل ظهور الامواس المستجلبة) و (ابا فوريه هو منصب وزاري في بلاط سلاطين الفور مسئول من المحافظة على التقاليد الفوراوية او الوطنية في البلاط وحمايتها من التوجهات الحداثية) . . . ومقابل كلمة فور في المعنى المضاد (سول) اي الضيف ، وهو اسم اطلقه الفور على العرب كوافد جديد او حديث على دارفور ، فمنها جاءت تسميتهم في لغة الفور (سولونقا) وهي كلمة مشبعة بالحنو والتكريم ، ومن لطافة معانيها انها لا توحي بظلال كالتي

تُستوحى من تسميتهم (بالغريب) ، و كانت الاعراف تعد اطلاق اسم (الغريب او اسم الوافد – جيلانقا بلغة الفور) على الغرباء كسباب يستلزم التأنيب والتوبيخ لأنها اساءة للضيف القادم للمجتمع !

وهناك اشارة مهمة نستنبطها من مدلول اسم الفور الذي يعبر عن الوطني والمغاير معنىً للوافد ، فالفور ليست قبيلة بتعريف الانثربولوجيين الذين يعرفون القبيلة بمجموعة من الناس يلتقون نسبا في جد أعلى ، فاصدق من هذا التوصيف للفور ؛ انهم امة ، و كانت لهم قدرة فائقة لاستيعاب كل قادم ودمجه في مجتمعهم , ومن اهم مكامن تلك القدرة الفائقة ؛ انهم لا ينتسبون الى عشائر وافخاذ وبطون ؛ انهم ينتمون الى الارض التي تؤويهم جميعاً ، فيضطر القادم للعيش في مجتمعهم الى مماثلتهم في الانتساب الى الارض او ما هو اوعب واوسع من الانكفاء والتقزم في صلب رجل (4). فهناك معنى لغوي وآخر إصطلاحي لكلمة فور ، فلغة تعني الوطني ، واصطلاحا تعني مجموعة سكانية منصهرة تطبعت بثقافة السكان القدامى الذين سكنوا هضبة جبل مرة ، فهم أقرب في المدلول لكلمة أمة من وصفهم كقبيلة .

تواصل حضارة هضبة جبل مرة مع الحضارات السودانية .

مرة اخرى ننظر في الجغرافيا الطبيعية كمحدد لانتقال الانسان من منطقة لاخرى ؛ ففي الازمان الغابرة لم تكن هناك ثمة وسائل للتواصل الا بانتقال الانسان بجسده لمن يريد التواصل معه ، فكلما قلت عوائق التنقل كلما تيسر التواصل واكتثر .

واذ نتحدث عن تواصل الحضارات ؛ فاننا لا نقحم حركة البدو الراحلين بطبعهم في الموضوع ؛ لانهم لا يبنون حضارة مدنية بقدر ما هم مساهمون على نقلها ، و انما ننظر لحركة امم حققت الحياة المدينية المستقرة في ذاتها ثم انفتحت في علاقاتها مع امم اخرى حققت هي ايضا الاستقرار .

فالانسان يحقق الاستقرار بتوفر اسباب متعددة لذلك ؛ على رأسها توفر المياه و البيئة التي تشكل محمية لحياته من الأوبئة والأمراض والوحوش ومن عدوان اخيه عليه ، وان تؤمن له الارض رزقه . وفي السودان كان حوض النيل وهضبة جبل مرة بيئات تتوافر فيها مقومات تأسيس الحياة المستقرة . فهل توفرت عوامل تسهّل حركة الانسان من منطقة لأخرى ؟ وهل توجد شواهد للعلاقات ما بين الحضارة التي قامت على

النيل وتلك التي قامت على هضبة جبل مرة ؟ ان ممتلك الحضارة فوق هضبة جبل مرة هم كل المجموعات القديمة التي عرفت الحياة المستقرة منذ آماد سحيقة كالبرتي في جبل وانا و الداجو في جبال الداجو وكالبرقد على تخوم جبل مرة على سبيل المثال .

لننظر الى خارطة السودان والتي يقسمها النيل طوليا الى جزئين شرقي وغربي ، فتاريخيا كان لهذا التقسيم اثره في تحديد النفوذ السياسي على بلاد السودان الشرقي والاوسط من صناع حضارتي وادي النيل وهضبة جبل مرة . كما نلمح في الخارطة أودية خارجة من الهضبة وتصب في النيل ، واشهر هذه الاودية وادي هور واسمه التاريخي – مورونج روو – وتعني بلغة الفور وادي الأسود ، علما بانها في الماضي البعيد كانت من الاودية دائمة الجريان ، وكانت بمثابة شريان التواصل ما بين الحضارتين ، فقد كان توفر مياه الشرب على الطريق هو العامل الاهم لتيسير حركة الانسان وتنقّله ، إذ لم يكن يحتاج عند تنقله لشيئ يذكر من الطعام لأن البيئة الطبيعية كانت كفيلة بتوفير الثمار وخشاش الارض له في رحلته . و نبصر على الخارطة اودية اخرى تخرج من جبل مرة وتصب في بحيرة تشاد و بذات الطريقة كانت هذه الاودية شريانا للتواصل ما بين الحضارة حول بحيرة تشاد وحضارة هضبة جبل مرة .

هناك اسئلة بدأت يستوقف الباحثين في الدراسات السودانية ، هي من هم صُناع حضارة النيل ؟ وما علاقاتهم بالسكان الحاليين للسودان ؟ هل ضاع اثرهم من العرق واللغة بتةً ؟ ما الأثر الناتج من تفضيل اهل الشمال الجاثمين في مواقع الحضارة النوبية القديمة للانتساب الى جدود عرب ؛ على وحدة بلاد السودان ؟

كنت ممن استوقفتهم هذه الاسئلة ، فبدأت البحث عن العلاقة ما بين آخر حضارات النيل وهي الحضارة المروية التي غزاها عيزانة ملك اكسوم منتصف القرن الرابع الميلادي (325 – 375) م ، فقامت على انقاضها مملكتان مسيحيتان هما علوة وعاصمتها سوبا و المقرة وعاصمتها دنقلا ؛ عن علاقتها وحضارة هضبة جيل مرة . واستعنت بالجغرافيا لاثبات وجود تواصل حتمي ما بين الحضارتين طالما كانت هناك اودية دائمة الجريان تخرج من جبل مرة وتصب في النيل ، ثم بدأت بالمقاربة اللغوية للاعلام ، فوجدت ان اسم مروي في اطلس التاريخ الليبي وفي المصادر الاجنبية هي (مرو) وقد تنطق بكسرة الميم او فتحها و بتشديد الراء او تسهيلها ، وفي كل الاحوال تعطي معنىً في لغة الفور ؛ فعند كسر الميم و تسهيل الراء تعطي ميرو

، معنى (الحداحيد) ، و عند فتح الميم و تشديد الراء وضمه تعطي مَرُّو بلغة الفور معنى صاهر الحديد ، وهي مفردة تستخدم وتداول حتى اليوم بكثرة كاسم للمناطق او كاسم للاشخاص . وفي كل الاحوال فللاسم (مرو) في لغة الفور دلالة تطابق ما اشتهرت بها الحضارة المروية من بين الحضارات بانتاج وتصنيع الحديد

بعد فترة قصيرة من إعمالي للمقاربة اللغوية لتحديد مدلول اسم مروي ؛ احضر لي الاستاذ ابراهيم محمد اسحاق وهو – باحث نشط كتب كتيبا قيما باسم دارفور في خدمة الحرمين – احضر وريقات مصورة من كتاب بدايتها (الباب السابع ، اتجاهات حملة عيزانة ملك اكسوم على مروى ومدلولاتها التاريخية والجغرافية) ولم اجد اسم الكتاب ولا اسم كاتبه لأوفيه حقه على بحثه القيّم . فازددت بما قرأت قناعة باهمية مواصلة البحوث لتأكيد الرابط ما بين الحضارات القديمة المتجاورة ولا سيما باستخدام التحليل اللغوي لمرجعية الأعلام لغاتاً. واهم ما استوقفني عند قراءتي هو ان المؤلف سعى واجتهد في استنتاج حقائق ومعلومات من مخطوطة عيزانة او منظومته التي سجل فيها انتصاراته على مروي ، ومن ثم تحديد العلاقة ما بين الممالك القديمة وشعوبها في اطار لغوي وجغرافي وتاريخي انطلاقا منها .

كان مدهشا لي اكتشاف قرينة لغوية تعزز العلاقة ما بين مروي بمدلول الاسماء الواردة في الوثيقة مع لغة الفور ، واعذر الكاتب في عدم تبيينه لمدلولات اسماء كثيرة في المخطوطة لها معاني واضحة في لغة الفور كان الكاتب اصلا يسعى ليؤكد بها وجود العلاقة ما بين مروي ودارفور ، واذكر هنا بعضها على سبيل المثال مكملا له مسعاه الذي ربما تعثر بسبب عدم المامه بلغة الفور ؛ ونبدأ بالاسم كاسو Kasawo كاسم مكان ، ففي الوثيقة كاسو الاولى والثانية ، ومعنى كاسو في لغة الفور ؛ نقطة للرباط بغرض التامين . وهناك اماكن في دارفور اليوم تحمل هذا الاسم ، وقوله كاسو الاولى والثانية اشبه بما نقوله بالمحطة الاولى والثانية ، فهي في هذا السياق نقطة الرباط او نقطة المرابطة الاولى والثانية ، وكانت هذه سمة مميزة لدارفور لتامين تجارتها العابرة – وخاصة من بعد انتشار الاسلام فيها لتأمين قوافل الحجاج لبيت الله الحرام – و كانت تقيم هذه المراكز بعلاقات تنسيقية مع الممالك على طول تلك الطرق كنقاط مرابطة يقيم فيها خفرها بصفة دائمة يحمون التجارة من قطاع الطرق

ويرد اسم التكازي في الوثيقة ، ولا يخفى ان الياء اضيفت للاسم لدواعي التعريب

كما لمسنا ذلك في ياء مروي ، كما ان الكاف في اللغات السودانية تنطق قافا غير مقلقلة كالتي نستعملها في السودان عند نطقنا للاسم منقه و بانقا ، فالاسم تكازي في اصل نطقه بلغة الفور (تاقيسيه Tagesay. ولكن القاف غير مقلقلة) وهو احد اسماء نهر عطبرة في المصادر التاريخية ، ومدولها في لغة الفور المرابط وهو الشخص الذي يرابط في الثغور ، ولا شك ان هذا النهر شكل الحدود الشرقية لمروي التي غزاها عيزانة ، و لا يخفى الرابط ما بين كل من كاسو وتاقيسيه (كاسو والتكازي ، بمعني نقطة الرباط والمرابط – على التوالي) وكلها مسميات فوراوية ومستخدمة حتى اليوم بنفس هذه المدلولات عند الفور .

اما الاسم الثالث الوارد في الوثيقة وهو ايضا اسم لمكان جغرافي فهو كاملكي في موضع القلابات الحالية ، و اجتهد الكاتب عندما ذكر ان مدلول الاسم ربما تكون بلغة الدناقلة الذين يسمون الجمل كمل ثم توقف في كي ولم يبين لنا مدلوله ؛ لكنني اقول ان الصحيح في كتابة الاسم الفصل ما بين كامل وكي ، وهو اشبه بما يحدث لنا عند كتابة ام درمان ؛ فالبعض يكتبها امدرمان (ملتصقة) ، و انما عملت فاصلة في كاملكي ؛ لآننا بفصل الاسم الذي كتبه مترجم الوثيقة كاملكي بكتابته كما تنطق في لغة الفور كامل كي فاننا نحصل على هذه الترجمة الحرفية (الجمل موجود) و قد ذكر المؤلف انها كانت ملتقى طرق القوافل وهذا مدلول نتبينه بسهولة من الكلمة الفوراوية كامل كي والتي تعني نصاً الجمل موجود .

واخيرا وردت في المخطوطة اسماء لاشخاص فيها الاسم (كوي) واجتهد المؤلف عندما قال انها سمة الاسماء في لغة الفور ، واستشهد بما ذكرها بازل ديفيدسون عن نعوم شقير عند ذكره لتكازي القلابات من الفور حوالي عام 1800 م ، وصدق في ذلك و ان لم يبين معناها . ان معنى كوي في لغة الفور (الولد) واضافتها في الاسم كاضافة (بن) في لغات دول الجزيرة العربية و (ولد – بكسر الواو) في اسماء دول المغرب العربي (5). وفيما بعد ذهب مهتمون بلغة الفور ؛ منهم المهندس عبد الشافع عيسى مصطفى الذي قدم محاضرة قيمة في مركز تطوير اللغات القومية ؛ ذهب فيها الى ان اللغة المروية هي لغة الفور ، واستدل بقراءة مقاطع من مكتوبات المعابد المروية فكانت للمقاطع معنى واضحا ومتسقاً مع موضوعها عندما يسمعها شخص يتكلم بلغة الفور.

ولا تقف متشابهات لغة الفور على هذه فقط ؛ ففيها مفردات مشتركة مع غالب اللغات القديمة كالانجليزية والعربية والفارسية وهذا مجال آخر يجب ان يخوض فيه المختصون في علم اللغات ، وللدكتور ادريس يوسف احمد ، والسيد زكريا سيف الدين والمهندس عبدالشافع عيسى مصطفي الريادة في دراسة وتحديد المشتركات اللغوية ما بين لغة الفور واللغات الاخرى ، واسجل هنا ان لغة الفور اكثرت من الاقراض اللغوى من عربية القرآن الكريم بعد اعتناقهم للاسلام ، وان من التطورات الحتمية للغتها افول بعض مفرداتها خاصة وانها لغة لم تحفظ نفسها بكتابتها من قبل المتحدثين بها ، فهي لغة حافظت على نقسها بمحمية او حاضنة منعزلة هي جبل مرة التي ظلت تؤثر على المهاجرين اليها باكسابهم لغة اهلها ، و انماط عيشهم وكسبهم وثقافتهم . فلو كانت اللغة العربية مدينة في بقائها لغة عالمية للاسلام ؛ فان لغة الفور مدينة في بقائها لجبل مرة في عزلتها عن الغرباء .

واذا صدقت فرضية وجود علاقة ما ما بين حضارة هضبة جبل مرة والحضارة في وادي النيل في كل او بعض حقب تاريخيهما ؛ فالسؤال هو ايهما الاسبق في بعض الجوانب خاصة وان الحضارة في هضبة جبل مرة لم تحظ بالدراسات الاثرية الجادة ، فلا نعلم حتى الآن ما بداخل الكهوف والملاجئ والانفاق من كتابات و نقوش ، ولا نعرف الى ماذا ترمز المنحوتات الصخرية الضخمة مثل نصب محمد موج ويانقا بدينقا ، كما لا ندري تاريخ مدن ضخمة كالتي يشاهدها المرء من الجو في منطقة اوم مابين طويلة وكبكابية التي سبق ذكرها من قبل ، حيث نشاهد مدينة في مساحة واسعة مسورة بالحجارة فوق هضبة تمت تسوية اعلاها لتقام عليها هذه المدينة ببيوتها الضخرية الدائرية ، ولم يرد ذكرها ولا ذكر شبيهاتها وهي بالمئات و تعرف ببيوت ومدن التورا ، ولا تخلو منها منطقة في هذه الهضبة الممتدة لمئات الاميال طولا وعرضا وتحتل قلب دارفور كما ذكرنا .

التورا هم باتفاق اسلاف السكان الحاليين لجبل مرة (الفور) ، وما نسجله هنا كمشاهد هو انهم كانوا ضخام الاجسام ، وقد تبينت من مشاهدتي لقبر مجروف ضخامتهم ؛ بالنظر الى عظام الساق والساعد والجمجمة ، ومن سوار نحاسي استخرج من جرة مدفونة في طرة احتفظ به ، وازيار من الفخار استخرجت من مناطق عدة في الجبل ، وربما ايضا من كبر الاحجار الضخمة التي شيدوا بها بيوتهم الحجرية و اسوار

قلاعهم ، وهذا الوصف لاجزاء من رفاتهم ؛ مطابق لبقايا وجدت في مناطق عدة في بلاد السودان في البطانة وحول بحيرة تشاد ويطلقون على اصحابها اسم العنج ، وربما تكشف الدراسات صلاتهم بقوم عاد وثمود ، ولكن في الظاهر نقول ان ضخامة الجسم كانت صفة جامعة للانسان القديم في بلاد السودان ، وان هذه الصفات استمرت في الذين انعزلوا في مناطق جبلية وعرة حتى العام 1650 م بما وصلنا من رواية متواترة عن الاخوان (ارتو – باقا – مرتنج) الذين طلب منهم السلطان موسى (1637 – 1670) م اخراج بقايا هؤلاء العماليق الذين كانوا حول عاصمته في طرة بجبل مرة ، وكانوا من السكان المحليين ممن يُطلق عليهم اسم (البورو) اي الانعزاليون. وذكروا منهم لول الذي كان مقيما في جبل سي و آخر اسمه سنقابور وكان يقيم في جبل أمو بطرة ، و ثالث اسمه ألي بور يقيم في افرانج دولي (ضواحي زالنجي الحالية) (6) . وحكي لي السيد موسى عزالدين والشيخ باسي من اهل طرة ومن سلالة أرتو ، كيف استخدمت الإغواء في إضعاف وانهاك من اريد ازاحتهم من طرة من البورو الانعزاليين . . قالا ارسلت اليهم نساء لإغوائهم بتتابعهن عليهم ، فاجهدوا وخارت قواهم لمقاومة ارتو وباقا ومرتنج عندما ظهروا عليهم ، فهربوا من طرة ، وظلت حرابهم تبرق كلما انعسكت عليها اشعة الشمس حتى غربوا مع الشمس . كوفئ الاخوين واختهما بالتوصية بأن تكون إدارة حاكورة طرة في اعقابهم ابدا

العلاقة مع حضارة بحيرة تشاد

الجارة المهمة والاكثر احتكاكا مع دارفور هي تشاد الحالية بممالكها القديمة وخاصة ودّاي وباقرما ودارسلا ومملكة البرنو في الغرب المجاورة لودّاي ، وترد الاشارات بهذه العلاقة في تاريخ متأخر هي حقبة الاسلام في كل من ودّاي ودارفور ، لذلك من المؤكد ان تاريخا طويلا محجوب عن الدراسة لان التواصل التاريخي ما بينهما امر محسوم بالجغرافيا الطبيعية المتماثلة حتي اليوم لوقوع البلدين في نفس العروض ولعدم وجود مفازات عائقة ، بل على العكس لا يلحظ المرء في تنقله انه عبر حدود بلد لآخر لتماثل البيئة الطبيعية والمناخية ، إضافة لعديد الاودية المتدفقة على بحيرة شاري من دارفور . .

ان اول من اشار الى العلاقة ما بين ودّاي و دارفور هو الرحالة الالماني جوستاف ناختيقال الذي ذكر ان دار برقو كانت ما قبل العام 1635 م تحت حكم وال من

التنجور اسمه الملك داؤد ، وانه كان يدفع الضريبة لسلطان دارفور ، وكانت عبارة عن دفع احدى الاميرات كل ثلاث سنوات ، وان عبد الكريم مؤسس دولة ودّاي قد انطلق من منطقة برقو بالقرب من كبكابية بدارفور ، وكان فيها معلما للقرآن الكريم ، ومن منطقة انطلاقته أخذت سلطنته اسم دار برقو ، فغزا عبد الكريم المنحدر من الجوامعة وداي واستولى على حكمها من الملك داؤد ، واسترضى سلطان الفور باستمراره في دفع الضريبة السنوية التي كان يدفعها له التنجر ، و فيما بعد صارت هذه الضريبة سببا للحرب بين البلدين عندما رفض البرقو ارسالها لانهم اعتبروها اهانة ، فقام السلطان محمد الفضل بخلع السلطان ادم سلطان وداي ، ونصب بدلا عنه شقيقه السلطان محمد شريف - الذي كان يعيش لاجئا ويعمل جزارا في جديد السيل بالقرب من الفاشر — فنصبه سلطاناً لوداي (7).

وكانت علاقات دارفور مع باقرما ودارسلا علاقات، وطيدة ترقى للوصف بالعلاقات الاستراتيجية ، فقد تبوأ عدد من الباقرما مناصب عليا في جيش الفور ، وعقد الفور معهم احلافا في كل نزاعاتهم مع القوى الخارجية ، اما دارسلا فكانت منفذا للفور في المهدية واحتمى السلطان ابو الخيرات بها عندما ضايقه عثمان جانو .

نختم اذن بالقول ان للحياة في هضبة جبل مرة قصة خلاف ما تناوله المؤرخون ، و ان ساحة الدراسة لاجلاء الحقائق او لمعرفتها متسع جدا ولكل التخصصات بما في ذلك علوم الهندسة والطب وكل العلوم الانسانية ، واقول هذا استناداً على البراعة التي مكن الانسان في هذه الهضبة من ممارسة الزراعة المروية ، وعلاج نفسه من الامراض بمهارات أرى ان الطب الحديث يحتاجها ليطورها ، فقد اكتشفوا التطعيم ضد الجدري قبل ان يأتي الاوربيون للتطعيم الحديث وساتناول ذلك في موضع آخر ، وكانت لهم معالجة لكل مرض بما في ذلك معالجة السرطان بالاعشاب ، ولهم ميراث باذخ في صنع الاطعمة ، ومن انعكاسات الحضارة سمو الاخلاق وطيب العشرة وحب السلام . . .

طرق التجارة و الحج

كانت الحركة الاقتصادية والسياسة في دارفور متمحورة حول جبل مرة ذات الكثافة الاعظم ، والموارد الطبيعية ومكنون الرزق الاوفر ، ومركز القيادة السياسية التي حضنت عواصم السلطنة وفواشر السلاطين ، فجبل مرة تحتل في كتلة قارة افريقيا مركز الثقل (Center of Gravity) ، وتمثل الواحة عند الحديث عن الجفاف والتصحر في دارفور .

تدخل لدارفور وتخرج الطرق التي تربط الاجزاء المتباعدة من القارة مع بعضها ، في كل الاتجاهات صانعة التواصل ما بين الشعوب ، كما تعد الاودية الخارجة منها شرياناً لتواصل حضارات هضبة جبل مرة مع حضارة بحيرة تشاد و حضارة وادي النيل وعبرها مع حضارة الهضبة الاثيوبية .

اهم الطرق العابرة لدارفور هي طريق غرب افريقيا ، القادم من كل بلاد الساحل الأفريقي الغربي ، ويتجه اولاً الى ودّاي وباقرمة وسلا ثم الى دارفور ، واغلب استعمالات هذا الطريق الحج لبيت الله الحرام بعد الاسلام ، اما قبلها فكانت للتجارة ، وفي الماضي البعيد كان هذا الطريق يشق الصحاري عبر الواحات فيصل مصر من دون المرور بدارفور ، ولكن منذ بدايات القرن السادس عشر الميلادي اصبح هذا الطريق غير آمن للحجاج بسبب قطاع الطرق من البدو الاعراب ، فتحول حج غالب اهل بلاد السودان الغربي لمنفذ دارفور التي لم تكتف فقط بتأمين عبورهم لبيت الله الحرام على اراضيها ؛ بل تولت حمايتهم بتعيين حراسات تصحبهم عبر البلدان المختلفة حتى مكة والمدينة وتعيد من شاء منهم العودة سالما لدارفور . لقد استقر عدد كبير من هؤلاء الحجاج في دارفور قبل بلوغهم الحج ، كما ان اعدادا كبيرة اخرى منهم لم يواصل رحلته لموطنه الاصلي بعد العودة من الحج بل اكتفى بالاستقرار في دارفور التي يعتبرها كل سكان غرب افريقيا في السودان وطنهم الام ، فسهل بذلك استقرار وتوطن قبائل غرب افريقيا في السودان لاحقا باعتبارهم قادمين من دارفور .

الطريق الثاني هو الطريق القادم لدارفور مباشرة من الشمال بعد التجمع في ليبيا ، وهوطريق تجاري بحت يدخل دارفور من الكفرة والعوينات وعين جالو ، ومستخدموه مغاربة وتوانسة وجزائريون وليبيون واوربيون ، وعندما قطع الاستعمار البريطاني اتصالات دارفور مع مصر عبر السودان نهايات حكم السلطان علي دينار

كان طريق ليبيا هو المنفذ الوحيد لدارفور مع دولة الخلافة في تركيا

والطريق الثالث ايضا شمالي وشرقي ، وهو الاشهر بين كل الطرق الواصلة والخارجة من دارفور وله اهمية تجارية كبرى واسمه المشتهر به (درب الاربعين) من دارفور لمصر ، وكانت القافلة الواحدة في هذا الطريق تضم من سبعة الى عشرة الف جمل مشدودة بنفائس دارفور من العاج والصمغ العربي وريش النعام والجلود والعرديب وغيرها ، وكان له اهمية اخرى غير التجارة ، كأهم طريق حج لبيت الله الحرام . وفي بارا كان هذا الطريق يتفرع فيقصد المتفرع الشرقي الحجاز وبلاد الهند بعبور البحر الاحمر ، بينما يقصد الآخر وهو درب الاربعين مصر لمن كان غرضه الحج عبر سيناء متفادياً ركوب البحر ، وسمعت اغنية تراثية بلغة الفور تجعل عبور البحر للحج سمة الاغنياء بينما تجعل تحاشي البحر وتطويل رحلة الحج بالبر عبر سيناء سمة الفقراء .

وبعد عبور الطريق المتجه نحو المشرق للنيل الابيض ؛ كان يتفرع لطريقين احدهما يقصد مصوع على البحر الاحمر عبر شرق السودان وكانت من محطاتها القلابات (كمال كي) وتعني بلغة الفورالجمل موجود (8) ، فمصوع واخيرا سواكن

اما الفرع الآخر منه فكان ينحو من دارفور نحو الجنوب مارا بسنار وفي الغالب جنوبها فيمر ببكوري وفازوغلي على النيل الازرق وجبل فور على طريق قيسان ثم اصوصا وقندار الى باب المندب .

هذه الطرق كانت تحرس بالتكازي وهم المرابطون الموكلون بحمايتها من قطاع الطرق واللصوص ، وتسمى نقطة رباطهم بلغة الفور بكاسو ووردت كلمات (تاقيسيه و كاسو وكامل كي) في الوثيقة التي خلد بها عيزانة ملك اكسوم الذي قضى على دولة مروي انتصارته مما يعني ان الطريق بدأ تجاريا مع الهند والجزيرة العربية ما قبل الاسلام ، ثم اكتسبت الاهمية بعد الاسلام كطريق حج ، وفي احيان كثيرة اقاموا مستوطنات دائمة كما فعل ذلك تكازي القلابات ومسبعات بارا (9) .

الهوامش

1 – عثمان عبد الجبار ، تاريخ الزغاوة في السودان ط/1 ، المصرية الدولية للدعاية والتوريد 2006 م ، القاهرة ، ص 22 ، من ابراهيم موسى محمد ، تاريخ دارفور في ضوء الدراسات الاثرية ، مجلة البحوث التاريخية ، السنة الثانية عشرة ، العدد الاول يناير 1990 م ، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي ، طرابلس ، ليبيا ، ص 160 و ما بعدها

2 – امين محمود ، سلطنة الفور الاسلامية – دراسة تحليلية من 1400 م – 1916 م ، مطابع السودان للعملة 2011 م ص 306

3 – امين محمود ، نفس المصدر ، ص364 – 265

4 – نفس المصدر ، ص 266

5 – نفس المصدر ، ص 346 – 362

6 – نفس المصدر ، ص 111

7 – جوستاف ناختيقال ، رحلة الى وداي ودارفور ، يناير1873 م – اغسطس 1874 م ، ترجمة سيد علي ديدان ، ط / 3 ، مارس 2013 م ، دارالنشر (بدون) ، ص 157 – 186

8– امين محمود – ورقة مقدمة في مؤتمر التواصل ما بين الممالك الاسلامية في بلاد السودان بجامعة الفاشر

9 – نفس المصدر اعلاه

الفصل الثاني

نشأة سلطنة الفور و جهود السلاطين في الاعمار

مقدمة

ذكرنا في الفصل الاول ان جبل مرة بمثابة الوطن الام للفور وهذا لا ينفي اشتراك مجموعات قبلية قديمة لهم سكنى الهضبة كالبرقد والبرتي والداجو والبقيقو والزغاوة في اقصى الشمال ، وان معنى (فور) في لغة الفور (الوطني) ، ولم أذكر التنجور ليقيني أن تاريخهم القديم مشترك مع الفور ولا يمكن فصلهما تاريخيا من بعضهما .

هناك شواهد بقيام حضارة طابعها المدنية في هذه الهضبة وتعود لآلاف من السنوات الخالية ، و استخلصنا ان الحضارة المدنية تقترن بوجود دولة تفصل في المنازعات وتوفر الاستقرار الضروري لبناء حضارة ، و بالتالي استحالة ان تكون الحضارة التي قامت في هضبة جبل مرة قد قامت في ظل دولة الطبيعة المتخيلة ! وان الفور لم يتكونوا كقبيلة ينحدر كل افرادها من جد أعلى ، فهم أمة مستوعبة ، وثقافة مستوعبة ، وتفاصيل انتماءاتهم التعريفية بهم تنطلق من الارض التي تؤويهم لا من الرجال الذين خرجوا من اصلابهم ، ولذلك لا يعرفون البطون والافخاذ كتقسيمات ، بل ينتسبون الى الحواكير والبيئات الجغرافية ، والى الاسباب والاحداث التي استدعت تمييزهم .

و هم من سموا آباءهم قبل هيمنة الاسلام في مجتمعهم بالتورا ، ونسبوا كل الآثار القديمة التي تعود للحقبة ما قبل الاسلام للتورا الذين لا يختلف عنهم الفور ولا يختلفون أن ينكروهم كاجداد سالفين ، بل الادق انهم نسبوا غالب آثار ما قبل 1640 م للتورا ، بمعنى ان هناك آثار حقبة اسلامية تنسب ايضا للتورا وتشمل اغلب القصور القديمة مثل قصور اوري ، عين فرح ، تونق كيلو ، كوسيه ، دولو كوري ، كندا ، ،

قارانقا ، تونق كوري ، تونق دالي بفوقا فوقو ، توري ، زاي ميو بجبال كونونو شمالي زالنجي ، وقصرا على جبل حريز، وفي كقورما والمدينة الحجرية في كاورا ، . . . الخ .

اذن كانت نشوء الدولة في ارض دارفور في تاريخ قديم ساحق ، ولا نستطيع من دون دراسات للآثار القديمة ذي الطابع المدني تحديد زمان قيام الدولة ، وبالتالي لا يمكن تصديق مقولة ان الداجو والتنجور والفور هم اول من انشأ دولة على تراب دارفور في القرون من الثالث عشر او حتى من الثاني عشر الى القرن السابع عشر الميلادي على الترتيب الذي قالوه ! لأن هذه المقولة تصطدم مع حقيقة وجود أثر مادي مشهود لآثار ذات طابع حضري (ضد البداوة) في المنطقة قبل هذا التحديد غير الدقيق لقيام الدولة ، فمن الاستحالة قيام حضارة مدنية في غياب الدولة . ولا ينبغي ان يفهم هذا انه تقليل لدور الداجو والتنجور والفور في انشاء سلطنات بدارفور ، بل على عكس ذلك فهي دعوة لاعادة تأريخ الاحداث في دارفور لكي نبعد عنها فرية عدم وجود تاريخ اقدم لشعوبها من القرن الحادي عشر الميلادي ، وكذلك فهي دعوة لدراسة المشتركات ما بين شعوب يمكن تسميتها بالشعوب النوبية او السكان الاصليون او الاقدمون التي تواجدت وانصهرت في ارض دارفور مكونة الامة التي تجاوزت في تطورها مرحلة التقوقع في كنف القبيلة ، فكل المجموعات المستقرة في دارفور يصدق عليها تعريف الامة باكثر من حصرها على انهم قبيلة ، فلو لا لغات هذه المجموعات كظاهرة ثقافية لما بقي شخص يمكن حصر نسبته الى اصول هذه القبائل ؛ نتيجة للانصهار والتداخل في الانساب بما في ذلك انساب القيادات الاهلية للقبائل المشهورة . فلا وجود فعلي اليوم للقبيلة بتعريف الانثربولوجيين انهم اشخاص ينحدرون جميعا من جد أعلى واحد . فكل السكان خليط من اعراق مختلفة ويتخذون القبيلة عنصر تجمع لحماية مصالح معينة بما في ذلك التعبير عن الوجود والكينونة المتميزة .

عليه فاننا نحمل قول المؤرخين بان الداجو والتنجر والفور هم اول من اقاموا سلطنات فوق تراب دارفور على ان المقصود بهذا التحديد هو تاريخ ورود ذكر الدول التي قامت في منطقة دارفور في المصادر التاريخية القديمة ، وهو تاريخ متأخر جدا لتأريخ قيام الحضارة المدنية في المنطقة كما سيتبين ذلك من دراسة آثار المنطقة . فلكل الشعوب المستقرة تاريخ موغل ممتد لآلاف السنين ولا يمكن الغاء تاريخها

بسبب عدم معرفتنا بذلك التاريخ خاصة وان ادوات معرفة التاريخ القديم متوفرة و متاحة للبحوث العلمية المعمقة .

بهذه المقدمة ننتقل للحديث عن تاريخ نشأة سلطنة الفور الاسلامية ، مذكرين انها اكثر فترة في تاريخ دارفور حظيت بالمعرفة ، ولكنه يشوه لاكثر من سبب و اخطرها جميعا عدم الالتزام بالحيدة العلمية لدي بعض الدارسين لانجرافهم في معارك قبلية ظنا منها تأكيد الكينونة المستقلة لقبائلهم ولعشائرهم . وكانت للمؤرخين الاجانب دوافع اخرى هي اثارة الحفائظ ضد من اعتبروهم اعداء لنزعتهم في استعباد الشعوب وقهر المسلمين .

و اول معضلة تواجه الدارسين هي الفصل في اصول نشأة السلطنة الاسلامية في ارض دارفور ، اقول هذا رغم ورود اشارات عدة من مؤرخين على ان الاسلام كدين لم يعرف الا في ظل سلاطين الفور . والتجاذب هنا ما بين الفور و بعض التنجور (فقط) واللذان يدعيان ملكية التاريخ ما بعد احمد المعقور كمؤسس غير مباشر للسلطنة الاسلامية في دارفور . و دون اي انحياز قبلي ؛ ليس صعبا بمنطق العلم اثبات حق التنجور والفور كلاهما في ادعاء التاريخ القديم اذا ما اقرا اتصالهما معا بنسب كما هو شائع في المرويات الشعبية التي تقول بانهم ابناء عمومة ، ولكن مع الاخذ في الحسبان ان ابناء عمومة لا تعني سوى حدوث انصهار نتيجة تزاوج او حتى نتيجة تعلم لغة الفور والتكيف مع ثقافة كل من المجموعتين او المجموعات المنصهرة . و مما يعضد هذا المذهب ؛ ان كل الذين اثاروا شبهة عدم وجود رابط من نسب او لغة ، ما بين الفور والتنجور يدّعون ان اجداهم من التنجور قدموا لدارفور قدوما ! فالسؤال المنطقي لهم عندئذ هو هل حافظوا كقادمين لدارفور على نقاء عرقهم ولغتهم ؟ و اذ لم يحافظوا عليهما بشواهد لا يمكن مداراتها ؛ فمن هم الذين تصاهروا معهم ؟ وما علاقة هؤلاء الذين اختلط معهم اجدادهم القادمين لدارفور مع الفور ؟ ومع افتراض اختلاف تاريخهم مع تاريخ الفور ؛ كيف يمكن قبول القول السائد عند بعضهم ان احمد المعقور عربي من بني هلال وتزوج ابنة الملك شاو دورشيد التنجراوي ، وتواصل الحكم في ذريتهما الى اخر السلاطين علي دينار بتواتر نقلي ، الا ان السلطنة التي انشأها شخص من اب عربي هلالي و ام تنجراوية و (بقدرة قادر) هي نفس السلطنة التي عرفت تاريخياً بسلطنة الفور و كل السلاطين المنحدرين من ذلك النسل

(بمنطقهم) يكونون قد تنكروا لاصولهم التنجراوية و زعموا انهم فور ! .

معضلة اخرى في هذا السياق تتعلق باللغة ، فكل المسميات القديمة للاشخاص و الاماكن المتعلقة بالتاريخ القديم ؛ لها مدلول واضح في لغة الفور التي كانت هي نفسها اللغة التي تتحدث بها التنجور قبل طغيان تحدث القبائل بمن فيهم الفور انفسهم باللغة العربية ، و معضلة ثالثة هي ان سكان اماكن القصور التاريخية القديمة كلها (اوري وعين فارا ، وكل سكان جبال فورنونج) والتي تعود الى حقبة نشوء السلطنة الاسلامية في دارفور اليوم ؛ هم فور باجمعهم وما زالوا يتكلمون بلغتهم الفوراوية .

واخيرا فان مسميات القصور الملكية كلها بلغة الفور — اوري تعني النجمة ، وفارا تعني البائرة ، فكيف يمكن بالعقل تنسيب مثل تلك الآثار لغير الفور وكل الشواهد بما فيها البصمة الفنية للعمارة تؤكد انها آثار تورا وهم قدماء الفور ؟ ومن خلال الزيارة الميدانية وجدنا ان للسلاطين الذين يدعيهم التنجور قصورا منسوبة لهم في مناطق يعلم التنجور والمؤرخون انهم لم يتمددوا اليها اطلاقاً ، وان اصحاب تلك القصور هناك معروفون بانهم سلاطين فور ، فهل من الممكن افتراض انهم اشخاص مختلفون ؟ بمعنى ان شاو دورشيد الذي بنى قصر عين فارا هو غير شاو دورشيد الذي بنى قصور توري و تونج كيلو وكوسيه ؟ و ان دالي الذي بنى قصر اوري هو غير دالي الذي بنى قصر فوقا فوقو ؟ وان كورو الذي بنى قصر فوري دبي في طرة هو غير كورو الذي بنى قصر دا در في جبال فورنونج ؟ اعتقد ان الاجابة واضحة و ان الاستخلاص العلمي هو ان الفور والتنجور ابناء عمومة ، يمثل فيه الفور العمق الوطني المحافظ على الحضارة القديمة للهضبة بينما يمثل التنجور رمزية للوافد المنصهر في امة اسهمت البيئة الجغرافية في حفظ كيانها القديم ، إذ شكلت الجبال حاضنة للغتهم فتعلمها القادمون لمجتمعهم فانتسبوا اليهم خاصة انهم كانوا اقوياء ايضا بسلطة الحكم ، ولما ضعفوا بذهاب السلطة ظهرت نغمات التبرؤ والبحث عن الكينونة المستقلة وادعاء التاريخ المشترك من حقبة قصيرة جدا من تاريخ قديم جدا ، فمهما يقال عن هجرة اجداد التنجور لدارفور فان ذلك حدث بعد الاسلام ، بينما نتحدث نحن عن تاريخ قيام الحضارة المدنية المقترنة بوجود دولة صنعت حضارة هضبة جبل مرة منذ آلاف السنين .

و عموما فان القصة الاسطورية لأحمد المعقور نفسه تحسم قصة وجود الدولة

في دارفور قبل ظهور قصته كفرد اتصل وانتقل لمجتمع مستضيف له سلطان وتقاليد حكم ! ولا ينبغي الاستدلال بوجود امتداد للتنجور في ودّاي بانهم قدموا لدارفور بعد تمكنهم فيها ؛ ذلك ان حكام دارفور لوداي قبل سيطرة البرقو بقيادة عبد الكريم صليح المنطلق هو نفسه من برقو بدارفور ؛ انما كانوا في الاصل دارفوريون انتدبوا لحكم وداي التي كانت تابعة في الاصل لدارفور وظلوا يرسلون الضريبة لسلطان دارفور بانتظام ، وحتى البرقو الذين غلبوا آخر الحكام داؤد وألجأوه لبرنو استمروا في دفع الضريبة التي كان يدفعها التنجور للفور في دارفور كما يفصل في هذا ناختيقال في رحلته لوداي .

لقد ذكرت في كتابي سلطنة الفور الاسلامية ؛ ان كلا من التنجور والفور محقون في ادعاء آثار التاريخ الوسيط الممتد من بعد وفود اجداد التنجور لدارفور و انصهارهم مع سكانها الاصليين من الفور وغيرهم من المجموعات النوبية القديمة التواجد في دارفور من الداجو والبرقد والبرتي والزغاوة والبيقو وغيرها من القبائل ، وقد عرفوا لدى الفور باسم التورا وتنسب لهم كل الآثار التي يدعيها الفور والتنجور وربما ايضا بعض آثار الداجو والبيقو لثبوت النسب بينهم من حقيقة ان المهاجرين لم يحافظوا على نقاء عرقهم ، وان من اختلطوا وتزاوجوا معهم هم بالضرورة السكان المحليون (الاصليون) ، وبذلك فان اسم التنجور ناشئ من ضرورات التمييز والتفريق ما بين مجموعتين شاب احدهما الاختلاط مع قادمين ، و حفظت احدهما نسبيا على عدم الاختلاط الواسع ، ومثال ذلك في حاضرنا المعاصر ظهور اسم اولاد الريف والسنار ، والكايتينقا الذين تكونوا بانصهار كل من الزغاوة و الفور في ادارة سويني ..

ان الرواية التقليدية التي تروى عن نشوء السلطنة الاسلامية تقول : - انه كان هناك ملك اسمه شاو دور شيد او شاو دورسيد ، وتعني في لغة الفور شاو الرجل السيد (شاو دو سيد) ، وشاو في لغة الفور اسم للجراد الصحراوي ، وهو غالبا اسم يطلق على الاطفال ذوي البشرة الحمراء ، هذا الملك كان في هضبة جبل مرة و له قصر في شمال الهضبة في عين فارا وقصر في جبال كاورا في منطقة توري ، وقصرين في طرة هما قصر تونج كيلو وقصر كوسيه شرقيه . وان عربيا اسمه احمد المعقور من بني هلال حل ضيفا عنده ، فاستطاع تغييرعادة الحاشية في قصر السلطان في الأكل بالطلب منهم بان يغسلوا ايديهم ، وان يتركوا الطعام يتجمع ثم يتوزعون في مجموعات

بدلا من الاجهاز (الخطف) على كل قدح من الطعام يخرج من بيوت نساء السلطان ، وأمرهم أن يقولوا في البدء بسم الله ، وعند الانتهاء من الاكل يقولوا الحمد لله . فحدث الشبع واعيد فائض الطعام للقصر ، فخاف السلطان من مرض يكون قد اصاب جنده فمنعهم من الاكل ، او من هروب بعضهم ففاض الطعام نتيجة ذلك ، و لكن قيل له ان شئ مما ظنه لم يحدث ، وان السبب هو الضيف العربي الذي يأمرهم بان يقولوا كلمة مباركة تشبعهم ! فطلب السلطان مثول العربي امامه فجاءه و شرح له الاسلام فاعتنق السلطان الاسلام و اقتدت به رعيته فاسلموا ، فاستقر العربي عند السلطان وتزوج ابنته الوحيدة كيرا (اصله خيرة) ، فانجبت له ولدا سمي سليمان ، ثم توفي الملك واجمعت الرعية على تولية ابن ابنته (سليمان) حيث لم تكن تقاليدهم تمنع التوريث من نسل البنات . واستمر الحكم في عقبه بالتواتر منذ ذلك الزمان الى آخر سلطان هو السلطان علي دينار .

ويحدد نعوم شقير تولي سليمان الاول وهوحفيد شاو دورشيد الحكم في العام 848 هجرية الموافق لعام 1445 م . وكان سبب تحديدي لبداية قيام السلطنة الاسلامية بالعام 1400 م بالتقريب في كتابي سلطنة الفور الاسلامية 1400 م — 1916 م دراسة تحليلية ؛ هو انني حسبت الشطر مَن حكم شاو دورشيد جد سلاطين الكيرا بعد اسلامه جزءً من الحقبة الاسلامية ، وقدرت تلك الفترة باربعين سنة تقريباً هي المدة التي أهلت حفيده من ابنته خيرا ليكون خليفته ليس فقط لانحداره من نسله ؛ و لكن ايضا لاقتناع الرعية بكفاءته وحسن تدبيره بما يكون جده قد عهد اليه من مسئوليات في حياته فاثبت بالفعل النجاح ، وانما يحدث النجاح في تحمل المسئولية العامة غالبا ببلوغ سن الرشد والمقدرة باربعين سنة .

هذه الرواية رغم تواترها ورغم ادعاء غالب المجموعات السكانية انهم يتصلون بالنسب الى احمد المعقور ، ومنهم البديات والتنجور وبالطبع اسرة كيرا الفوراوية ؛ الا انها لا تخرج من سياق نظرية الحكيم الغريب للبروفسور يوسف فضل حسن ، وهي لا تؤرخ لبداية نشوء سلطنة الفور التي كانت وحسب هذه الرواية نفسها سلطنة موجودة قبل شاو دور شيد نفسه . يقول البروفسور اوفاهي عن نشأة السلطنة (كانت سلطنة دارفور في الاصل مملكة فور تتمركز حول جبل مرة ، ولكن اذا كانت الجبال قد وفرت الملجأ الضروري لاكتمالها ؛ فانها ايضا قد حجبت بداياتها في الظلام) (1).

و يقول نعوم شقير متحدثا عن حادثة عقر احمد المعقور (ثم علم به عبيده وخاصته ، فاجتمعوا حوله وعالجوه حتى برئ جرحه ، فسار بهم بطريق الصحراء مهاجرا بلاد تونس حتى اتى جبل مرة من اعمال دارفور ، وكان في ذلك الجبل امة من شبه السود يقال لهم (الفور) عليهم ملك منهم يسمى شاو دور شيت . ثم يمضي شقير متحدثا عن انتساب القبائل السودانية للعرب فيقول ؛ هذه هي رواية اهل السودان في اصل سلطنة الفور ، وهي لاتخرج عن حد الروايات الموضوعة التي يكثر امثالها في السودان ، فانه ما من قبيلة او مملكة عربية اشتهرت في السودان الا رجّعت نسبها الى النبي صلى الله عليه وسلم او الى الصحابة او من اتصل بهم)) (2)

عليه فاننا نحمل قولهم (أن الداجو أول من اسس سلطنة في دارفور ، ثم تلاهم التنجور ثم الفور، تباعا في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر) ؛ على ان المقصود بهذا التحديد هو تاريخ ورود ذكر الدول التي قامت في منطقة دارفور وفقا للمصادر التاريخية القديمة ، وهو تاريخ متأخر جدا لتأريخ قيام الحضارة المدنية في المنطقة ، والمرتبطة بوجود دولة تحفظ الامن الضروري لاجتماع انساني ، وما كان ليصدر من باحث لو انه اجتهد قليلا ووقف بنفسه على المعالم الظاهرة للحضارة في المنطقة ؛ هذا إن أحسنا الظن بمن نطق بالقول لأول مرة ، أما إذا صوبنا النقد العلمي للمقولة ، فلا شك أن دوافعها استعمارية لطمس حضارة زاهية بقصد وترصد ، وسيتبين ذلك من دراسة آثار المنطقة .

بعد قيامنا بزيارة آثار المنطقة لتوثيقها ؛ تبينت امرا هاما يجب ان يخضع للمراجعة العلمية فيما يتعلق بتاريخ بداية السلطنة الاسلامية ، فالسؤال الذي يجب اجابته هو ؛ كيف يمكن لشخص يفترض حسب الرواية المتداولة انه اول من اعتنق الاسلام ان يبني مسجدا يضاهي في مساحته وجماله المعماري كل المساجد التي بنيت في السودان بعد ذلك بستمائة سنة ؟ لم بنى مسجدا سعته اكثر من خمسمائة مصلي بينما وحسب الاحصاءات المستنبطة من الرواية المتداولة ؛ لا تجعل عددهم بذلك التقدير الذي يسعه المسجد ؟ وكم من السنوات استغرق بناء المسجد ؟ وكم من السنوات استغرق لاحضار المهندسين الذين صمموا المسجد باعمدته المتميزة التي سبق وصفها ، وتحديد قوالب الطوب التي تنشئ اشكال الابواب والنوافذ هندسيا وبتوليفة بينة لفنين معماريين هما الفن القيرواني وفن التورا الدارفوري ؟ عليه فلا بد من تحقق شامل

حول اسطورة احمد المعقور وتأريخ بدايات الاسلام في دارفور ، إذ لا يبدو لي منطقيا ان يكون الاسلام قد وصل دارفور حوالي سنة 1400 م ، فيقوم نفس السلطان الذي هو اول شخص في الدولة اعتناقا للاسلام ؛ فيبني في حياته مثل ذلك المسجد ، ثم يتكشف لنا بالفحص اللغوي وجود مؤثر اسلامي في اسمه واسم ابنته قبل ان يصل الاسلام دارفور كما سنبينه لاحقا !

إن المراجعة التاريخية لتتبع سيرة الاسلام في كل بلاد السودان أمر ضروري ، فالتقويم الحالي يخلق ثقبا في التاريخ يقرب الالف سنة الا قليلا ؛ بدءً من تاريخ هجرة المسلمين للحبشة حوالي العام 617 م أي بعد خمس سنوات من بعثته صلى الله عليه وسلم ، وهم ينشدون الحماية من الملك النجاشي ؛ الى تاريخ بزوغ سلطنة الفور كسلطنة اسلامية اولى في السودان ، ثم تلتها السلطنة الزرقاء بعد حوالي قرن ونصف في حوالي العام 1552 م . فهل من المعقول انقطاع اخبار المسلمين واحتجابهم من المسرح في بلاد السودان طوال كل هذه الفترة وقد أثر اهل الهجرة الاولى في الناس واسلم الملك نفسه بتأثيرهم عليه ؟ إذن ثمة قصة أخرى وفضاء أوسع للبحوث العلمية لتتبع أين كان المسلمون خلال الالف عام ؟

ان ذكر سلطنة دارفور لم ترد في المصادر الاجنبية الا في عهد السلطان موسي بن سليمان (1637 – 1670 م) بواسطة الرحالة الدومنكاني فانسلبن Wansleben الذي اخذ وصف دارفور من تاجر من الفور ذهب للقاهرة عن طريق درب الاربعين . واستصعب على البروفسور اوفاهي تحديد عاصمة السلطنة ، والتعرف على السلطان الذي كان يحكم يومئذ ، لان النقل من لغة الفور للغة الرحالة الدومنكاني ، ثم للغة الانجليزية ، واخيرا للغة العربية ؛ قد بدل نطق الاسماء ، فجاء نطقها الاخير مغايرا لنطقها بلغة الفور ، ولذلك لم يستطع اوفاهي او ايا ممن سألهم من الفور الحاليين التعرف على مكان العاصمة ، ولا التعرف على السلطان نفسه ، لكنني وبحكم معرفتي للغة الفور وللمواقع التاريخية ؛ لم أجد صعوبة لتحقيق الاسماء الصحيحة بيسر ، فالسلطان والمكان الذي كان يقيم فيه في ذلك الزمان ؛ تطابقا عندي ثم ساعدا في تصحيح التحريف الذي نتج من النقل من لغة لاخرى ، فأوفاهي نقل عن فانسلبن ان اسم ملك الفور يومئذ اورز ميلس ، واسم عاصمته اوقرأ ، فالصحيح إذن هو ان ؛ اسم الملك هو (اري موسيه – وتعني السلطان موسي) وان اسم مكان اقامته هي

(قارانقا) بطرة ، وما زالت آثار قصره باقية حتى اليوم ، والمنطقة ما زالت تحمل نفس اسم قارانقا (3).

وبالعودة الى الرواية التي تحكي نشوء السلطنة ، وربطه باحمد المعقور فاني اسجل ملاحظة حول وجود مؤثر اسلامي سابق لاحمد المعقور استدلالاً من اسمي شاو دورشيد ، ومن اسم ابنته كيرا (خيرة) التي لا تخفى دلالتها بالعربية ، وقد شرحنا معنى شاو دور شيد بلغة الفور . ربما تؤكد هذه الحقائق اسطورية قصة احمد المعقور وإدراجها في سياقات الحكيم الغريب ، ولربما عززت ما أرى أن الاسلام في بلاد السودان الشرقي و الاوسط مرت بفترتين من القوة والضعف ، فبعد إزدهار نسبي تراجعت المعارف بتعاليمه في منطقة واسعة من السودان ربما لحروب نشأت ولم تُسجل في الذاكرة او المدونة التاريخية ، فحدث جهل بالاسلام وإن بقيت العادات الاسلامية والاخلاق راسخة في الشعوب السودانية التي أسلمت .

قلت ما سبق استنادا على دراستي لمجتمع جبال الانقسنا في النيل الازرق ، هذا المجتمع كان يغلب عليه الوثنية لوقت قريب ، ولكن الملاحظ عليه هو وجود عادة ختان الذكور عندهم ، وهي عادة مقترنة بالديانتين الاسلامية واليهودية ، وعند التحري في اخلاق الفضيلة الشائعة في مجتمع الانقسنا فانهم لا يكذبون ولا يسرقون ولا يغشون ، مما غلب ظني ؛ انهم كانوا في مرحلة من التاريخ مسلمين ولكن جرى فيهم حدثاً فأضعفت معرفتهم بالاسلام حتى لم يبق منه الا العادة .

وبدرجة ما هناك ايضا ثقبا في تاريخ الاسلام في دارفور متمثل في تراجع المعارف بالاسلام ما بين الفترة التي سبقت العام 1400 م بقليل ، ليستمر الجهل حتى حوالي العام 1640 م ، فالآثار في جبل فارا وفي أوري تحكي عن مساجد وخلاوي تاريخية عمقت ورسخت معرفة الناس بالاسلام قبل 1400 م ، وفجأة خمدت الظاهرة فلم يعد الاهتمام الرسمي بالعلم الا في حوالي 1640 م . واثناء هذه الفترة تراجعت المعارف وربما قرب المجتمع لحالة من الجهل بالعقيدة و بالقيم الاسلامية .

ونذهب باحثين ومتابعين لتاريخ الاسلام في دارفور عبر المصادر والوثائق ، ففي الثاني من ابريل 1916 م ؛ كتب السلطان علي دينار لسلطان المسلمين في تركيا ، وشرح له كيف تحولت دارفور تحت قيادة اسلافه سلاطين الفور الى الاسلام قبل

ثمانمائة وسبعين ستة من ذلك التاريخ أي قبل فتح القسطنطينية ، وأن أجداده واظبوا منذ ذلك التاريخ على سنة ارسال ما عرفت بصرة الحرمين الشريفين باستمرار .

وعملية ارسال المحمل تعبر عن شعور عميق بالمسئولية تجاه المقدسات الاسلامية وتوحيد الوجدان المسلم ، ولا يمكن افتراض حدوثه بمجرد اسلام الشخص فقط ؛ اذ لا بد من تشبعه بمعرفة حقيقة الاحتياج للعون من معايشة الاوضاع في الاراضي المقدسة ، ووجوب القيام بارسال صرة الحرمين الشريفين (المحمل) . وهو ما يعيد تأريخ المؤثر الاسلامي لما قبل العام 1100 م وهو تاريخ قريب من تاريخ وصول الاسلام لغرب بلاد السودان – متجاوزا بلاد السودان الشرقي ! – علما بان السودان الشرقي عرف الاسلام منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقبل الهجرة ، باسلام النجاشي الذي يعد اول ملك في الدنيا اعتنق الاسلام ، بينما عرفت بلاد السودان الغربي الاسلام بعد فتح بلاد المغرب وتوغل المغاربة في ساحل افريقيا الغربي . هذا يؤكد ان هناك فجوة معرفية بتاريخ حركة الاسلام في بلاد السودان الشرقي والاوسط وهو مجال لبحوث يجب ان تجلي لنا اين كان الاسلام من بعد اسلام النجاشي ، و فتح مصر وعقد معاهدة البقط (651 م) ما بين عبدالله بن ابي السرح ومملكة المقرة المسيحية ، ليظهر الاسلام كدولة في بلاد السودان في العام 1400م في حالة دارفور ، وفي العام 1552 م في حالة الفونج او السلطنة الزرقاء ؟ فثمة جهل بنمو وتطور الاسلام في المنطقة كما ذكرنا آنفا .

كل ذلك تهز القناعة بصحة تأريخ الدولة الاسلامية في دارفور بما قلت انه تقريبا في العام 1400 م ، فكيف يمكن ان يكون شاو دور سيد الذي يوحي اسمه بوجود مؤثر اسلامي في اسمه وفي اسم ابنته خيرة ؛ هو اول من اعتنق الاسلام ثم يقوم في حياته ببناء مسجد يسع اكثر من خمسمائة مصلي وبفن عمارة اسلامية متكاملة ومتمازجة مع تقنيات التورا العمرانية ؟ ثم يلحق المسجد بخلوة تستوعب حسب آثار ابنيتها الآلاف من طلاب العلم ؟

اعتقد انه من السذاجة افتراض ان اجداد شاو دور شيد الاقدمين لم يعرفوا الاسلام ، وانه اول من تعرّف على الاسلام ثم آمن به ، ثم قام ببناء مثل ذلك المسجد الكبير و الانيق في حياته كحاكم ! وعليه يجب مراجعة تأريخ اتصال الاسلام بدارفور ، آخذين في الاعتبار حقيقة ان التقاليد الوثنية القديمة تعايشت ردحا طويلا معا مع

التقاليد الاسلامية التي كانت تجد طريقها وئيدة وتدرجا في حياة الناس بتمكّن المعرفة بالاسلام . ان علم الآثار يجب ان يفصل في تتبعه تاريخ حدوث المؤثر الاسلامي على جوانب الحياة والعقيدة ، والا يحكم من زواية واحدة كالمقابر الاسلامية او حتى المساجد والختان بما نعلم انها تحدث لاحقاً ، وليس بالضرورة اقترانها متزامنة مع وهلة اعتناق الاسلام ، فعلى الاقل لدينا روايات نقلية متواترة عن تاريخ متأخر نسبيا بشيوع فقه دفن الموتى على الطريقة الاسلامية ، و كذلك بفقه ختان الرجال ، و بالتالي وعلى مر قرنين او ثلاث ظل المسلمون بمن فيهم السلاطين المسلمون يُدفنون على الطريقة القديمة المعروفة بطريقة التورا ، وكذلك ظلوا دون ختان الى ان قام السلطان احمد بكر بالزام الرعية اجمعين بمظاهر الاسلام الثلاث وهي الصلاة في جماعة وصوم رمضان وختان الرجال ، وخلّدت الاغنية الشعبية قصة استجلاب السلطان لآلة النجارة (القدوم) من مصر و قيامه بختن الدمنقاوي بذلك القدوم المستورد !

من المعلوم ان الاخدود الافريقي العظيم فصل ما بين الجزيرة العربية وافريقيا ، وهذا الفصل لم يكن حدثا في الجغرافيا فقط وانما كان ايضا فصلا ما بين سكان على جانبي الاخدود ، فلو كان من انشقت بهم الاخدود عربا فان بعضهم على الاقل بقي على الجانب الغربي من الاخدود في افريقيا ، وهذا يؤسس لارتباط الشعوب الافريقية والاسيوية قديما جدا . فالعماليق كنعانيون ، وتعج بلاد السودان بآثارهم ، وهناك قصص اسطورية ظلت متداولة ان نبي الله صالح بعث لقوم في بلاد السودان ، ولربما كانت بعثته قبل الاخدود الافريقي العظيم ، فكانت عاد الاولى والثانية في مساحة غطت هذه المنطقة قبل الاخدود ، ما يفسر وجود آثار العماليق في السودان واطلاق اسم بيوت الكنعانيين على ما نسميها نحن ببيوت التورا .

ولكن الاخدود فيما بعد شكل مفازة مانعة لاستمرار وطلاقة التواصل بعد حدوثه ، وحدث تطورا في اللغات من واقع هذا الفصل ما بين الشعوب ، وبمثلما اندثرت اللهجات العربية القديمة والتي لو تحدث بها اليوم احدا لما وجد من يفهمها من عرب اليوم ؛ فان الشئ نفسه قد حدث للغات الشعوب في الجانب الافريقي من الاخدود ، ومع حقيقة ان اللغة العربية في الجزيرة العربية مديونة للاسلام في بقائها وتقريبها للهجات العربية هناك ، فيمكن القول ان الذي خلد كلماتها هو القرآن

الكريم ، والسنة القولية ، والقليل الذي امكن جمعه من الشعر الجاهلي و الامثال السارية بين الناس ، فما نشأ من علم لغة عربية كان غايته التمكين لفهم تعاليم الاسلام .

نخلص ان العربية لم تكن لغة قادمة لافريقيا ، وان لهجاتها في الجانب الغربي من الاخدود تطورت في معزل لوجود الاخدود كفاصل ثم لانها لم تحظ بان تكون كلماتها مخلدة بالقرآن الكريم كما حدثت للغة قريش بين لغات بقية عرب جزيرة العرب بفضل القرآن ، فبدت بذلك لغات المجموعات على الجانب الافريقي غريبة ، فلما وصل الاسلام لافريقيا ولغيرها من البلاد الاسلامية نشأت حاجة ضرورية لتعلم اللغة العربية التي تطورت وتخلدت بالقرآن الكريم ، فصارت لغات المسلمين مربوطة بلغة القرآن بالاقراض اللغوي وبكتابتها بالاحرف العربية . وفي دارفور كانت حتى انتهاء السلطنة لغة الفور واللغة العربية هما اكثر اللغات شيوعا ، ففي ديوان السلطان كانت اللغة الرسمية هي لغة الفور ، بينما كانت لغة التدوين هي اللغة العربية ، فكل مكاتبات الدولة كانت بالعربية . ومن الملاحظ ان المدن اتجهت لتعلم العربية ومداولتها في المخاطبة اليومية بينما انحسرت نطاق اللغات الاخرى في مناطق عدم التداخل السكاني وهذه كانت تضيق مع صباح كل يوم جديد . فانتشار العربية ليست فقط من تزاوج الشعوب الاسلامية بالمسلمين من اصول عربية ؛ و لكنه في المقام الاول ناتج من حاجة المسلمين من غير الاصول العربية لتعلم لغة القرآن الكريم للتفقه في امور دينهم .

قائمة بالسلاطين الفور الذين حكموا دارفور من العام 1400 م الى العام 1916 م

مصدر هذه القائمة هو نعوم شقير. نقلا عن امام مسجد السلطان ابراهيم قرض (الامام الطيب) الذي نُفي للقاهرة عند سقوط الدولة في منواشي مع اكثر من الف زعيم دارفوري استقروا في القلعة بالقاهرة ، وما يؤكد عندي صحتها انها تحوي اسماء سلاطين ما زالت آثارهم باقية الى اليوم فتنسب لهم ، مثل السلطان دالي والسلطان كورو والسلطان توم ، فاذا ما انكرت القائمة ؛ فلن نجد تفسيرا لآثار مادية مثل قانون دالي وقصوره في اوري وطرة ، ولن نجد تفسيرا لحقيقة ان المسبعات (المصبحات) فرع من الفور تكوّنوا نتيجة نزاع الأخوين كورو وتونسام على الحكم . . . و ننوه

الى وجود سلاطين سابقين من هؤلاء ومن نفس الاسرة حكموا من جبل مرة ، ولكن لا نستطيع تحديد متى بدأ حكمهم ، كما لا نعلم اسماء وآثار الذين حكموا قبل السلطان شاو دورشيد .

والقائمة هي : -

الرقم	اسم السلطان	من	الى	ملاحظات
1	شاو دور شيد	1400 م	1445 م	فترة حكمه في الاسلام فقط
2	سليمان الاول	1445	1476	ربما كانت نهاية حكمه قبل 50 سنة مما حدد هنا
3	عمر	1476	1492	
4	عبد الرحمن	1492	1511	
5	محمود	1511	1526	
6	محمد سول	1526	1551	سول تعني بلغة الفور الضيف
7	ابراهيم دليل (دالي)	1551	1560	يلقب ب بارنج نامو اي تمساح البحر
8	شرف	1560	1584	
9	احمد	1684	1593	
10	ادريس جال	1593	1605	جال تعني المسابق بلغة الفور
11	صالح	1605	1627	
12	منصور	1627	1639	
13	شوش	1639	1658	تاريخه متقدم بنحو 50 عاما
14	ناصر	1658	1670	نفس الملاحظة
15	توم (تونسام)	1670	1683	نفس الملاحظة

16	كورو	1683	1695	نهاية المرحلة الاولى – نفس الملا حظة
17	سليمان الثاني - سولونج	1596	1637	برواية ناختيقال الاقرب للصحة
18	موسى بن سليمان - عنقريب	1637	1670	برواية ناختيقال و لامبن
19	احمد بكر بن مو سي	1670	1722	من هنا اتفاق المؤرخين على بداية ونهاية حكم كل سلطان
20	محمد دورة بن احمد بكر	1722	1732	
21	عمر ليل بن محمد دورة	1732	1739	
22	ابوالقاسم بن احمد بكر	1739	1752	
23	محمد تيراب بن احمد بكر	1752	1787	
24	عبدالرحمن الرشيد احمد بكر	1787	1802	
25	محمد الفضل بن عبدالرحمن	1802	1839	
26	محمد الحسين بن محمد الفضل	1839	1874	
27	ابراهيم قرض بن محمد جسين	1874	1874	الاحتلال التركي
28	حسب الله بن محمد الفضل	1874	1875	بداية المقاومة

29	سيف الدين وبوش ابنا محمد الفضل	1875	1875	قادا المقاومة معا بعد ان خدع حسب الله وهُجّر للقاهرة
30	هارون الرشيد بن سيف الدين	1875	1880	
31	عبدالله دود بنجيه بن ابونا ابكر بن محمد الفضل	1880	1884	قاوم التركية ثم المهدية فآمن بالمهدية وهاجر ولحق بالمهدي في ابي سعد و توجه للجهاد في الشرق
32	يوسف ين ابراهيم قرض	1884	1888	
33	ابوالخيرات بن ابراهيم قرض	1888	1891	
34	علي دينار بن زكريا بن محمد الفضل	1891	1916	بدأ كسلطان مقاومة ثم حقق آماله في استعادة الاستقلال عام 1898 م

مختصر منجزات بعض من السلاطين : -

1 - السلطان شاو دورشيد

اول السلاطين المسلمين حسب الرواية التقليدية ، وهو سليل اسرة لا ندري متى تسلمت الحكم ، ولكن بالنظر الى التقاليد الفوراوية التي ابقت الزعامة الي اليوم وبعد اكثر من ستمائة عام في عقبه ؛ فانني اظن ان الاسرة كانت تحكم منذ قرون عددا ، ورمزية هذا السلطان واهميته انه يدحض تهويل وتضخيم تأثير شخص يقدم منعزلا الى مجتمع ثم يحال كل التاريخ له ، بل يلغي حتى الانساب القديمة فيبدو وكأنه أب لاناس اسبق منه ، وبمعنى آخر كأنه ولد اجداده ! وفي هذا فان قول استاذنا البروفسور يوسف فضل حسن حاسم عندما قال (لقد مضى العهد الذي يُظن فيه ان فردا يمكن ان يولد حدثا تاريخيا) ، وهو قول يحفظ حق العنصر المحلي في صناعة التاريخ . فعظمة شاو في اعتناقه وايمانه بالاسلام ، وعمله على تمكينه لشعوره انه الاصلح والانفع لشعبه .

2 - السلطان سليمان الاول

هناك خلط ما بينه وبين سليمان الثاني ، فكلاهما ملقب بسولونج ، و ينسب توحيد ادارة دارفور لكليهما ، كما ينسب ظهور المساجد لعهد كل منهما ، ولكن لامجال لانكار اي منهما في الوجود او في اقران جهود الاسلمة به ، والواقع ان سليمان الثاني هو ابن السلطان كورو ، فالرواية المنقولة تقول انه عندما اراد منازلة عمه تونسام الذي يبدو انه زحف من منفاه في كردفان واستولى على الحكم في دارفور مرة اخرى من والد سليمان الثاني السلطان كورو ؛ فان سليمان الثاني ارسل لعمه رسول - موقاوي - فادى بعض الحركات البهلاوانية قبل ابلاغه رسالة سليمان الثاني ، قال الموقاوي لكورو : (سلمان كورونج كوي قي إمين‌قيه ، ان كوا ؛ اسنج ساري سوبو بايا) ومعناه (سليمان بن كورو بعثني ، قال . ستتواجهون غدا صباحاً) فرد اليه كورو ؛ عد اليه ، قل له (توليي ، جاونقيه نس ان جوا : ساري سوبو قيه بولي ، كا تونسام) و معناه حسناً ، عد اليه ، قل له : غدا صباحا يلاقني ، انا تونسام (4) . .

ويبدو ان الاسلمة بدا في عهديهما قويا ، فسليمان الاول اقرب لتوحيد دارفور تحت حكم مركزي قاعدته المسلمون ، ولكن كوريث لجده من امه. فاذا صدقت اسطورة احمد المعقور ؛ فجده هو من انشأ مسجد جبل فارا اقدم المساجد الاثرية المكتشفة حتى الآن ، وسليمان الثاني هو الاقرب لنقل المجتمع للاسلام المعرفي . ولكن من الواضح ان الاندفاع نحو الاسلمة قد خفت في الفترة ما بينهما بسبب توقف الوافد العلمي الاسلامي ، فمن المحتمل توقف هجرة العلماء لدارفور حينا من الدهر بعد سليمان الاول ربما لنزاعات وحروب شهدتها ساحة دارفور ، ثم انفتحت بعدها البلاد للهجرات الواسعة للعلماء في عهد سليمان الثاني ، فسرّعوا من وتيرة انفساح المجال للعقيدة الاسلامية على حساب الوثنية وتقاليدها وتراثياتها .

3 - السلطان دالي

السلطان دالي صاحب عقلية ادارية فذة ، فإليه والى السلطان احمد بكر تعود جذور فكرة اللا مركزية الادارية ، وتنظيم البلاد الى وحدات ادارية وفق هيكل متدرج ، ولكن اكثر ما اشتهر به بالاضافة الى قصوره في اوري بجبال فرنونج وعلى جبل فوقا بطرة وبالطبع مسجده الضخم ذات الست وستون ركيزة في مدينة اوري ؛ هو قانونه

الذي يعتبر الدستور وقانون الجزاءات والذي استمر ساريا حتى نهاية عهد السلطان الشهيد علي دينار .

ولقد حاول بلفور- باول تفسير انتقال الحكم للفور ؛ بان ما يسميه بامبراطورية التنجور قد انهارت تحت وقع ضربات والي الولاية الشرقية لسلطنة البرنو الملقب بدالي في حوالي العام 1540 م ، وان دالي استولى على دارفور وبنى فيها قصرين احدهما في اوري والثاني في طرة التي كانت حسب زعمه تتنامى فيها حكم وطني بزعامة الكيرا ، وانه كان من الخصيان ، وانه اسند حكم البلاد المفتوحة من قبله لزعيم تلك العشيرة التي كانت تتنامى في طرة ، وانه بموت ادريس الوما ملك البرنو العام 1602 م حدث فراغ في دارفور وسرعان ما ملئ بحكم الكيرا (5)

ولكن بالعودة الى تاريخ البرنو ؛ فإن فنسان مونتاي في كتابه الاسلام في افريقيا السوداء ؛ لم يذكر امتداد نفوذ البرنو لدارفور، وذكر ان ادريس الوما - الذي حكم في نهاية القرن السادس عشر - قد فشل حتى من ضم باقرما لامبراطوريته ناهيك عن دارفور ، ولذلك لم يتوفر دليلا يسند التفسير الذي حاوله بلفور .

وسبق ان ذكرت ان ناختيقال ذكر ان ودّاي حينما كانت تُحكم من قبل حاكم من التنجور قبل استيلاء عبد الكريم الصليح على الحكم فيها ؛ كانت تدفع الضريبة لسلطان دارفور في جبل مرة ، وان عبد الكريم نفسه - والذي انطلق من برقو بالقرب من كبكابية - استمر في ارسال تلك الضريبة للفور . وكما ذكرت في كتابي سلطنة الفور الاسلامية ؛ ولا اريد التكرار هنا ؛ فان لكلمة دالي مدلولا في لغة الفور وتوجد عشائر تنتسب لدالي ، وهو ما يتنافى مع القول بانه كان من الخصيان ! وعليه فلا مجال ابدا لانزاعه من قائمة سلاطين الفور ، ولقد ذكر ناختيقال انه كان يلقب بتمساح البحر وانه توفي في طرة ودفن في مكان ما بوادي باري ، و لكن الثابت هو ان الفور استحدثوا وظيفة أبا دالي في بلاطهم كلقب لحاكم الولاية الشرقية ، و كانت تسند لكبير الخصيان في بلاط السلطان ، وممن تولاها فأعطى الوظيفة شهرة ؛ محمد كرا الذي لعب دورا كبيرا في تنصيب السلطان عبدالرحمن الرشيد سلطانا خلفا لأخيه السلطات تيراب . وكان أبا دالي بمثابة وزير البلاط او رئيس الوزراء .

نصوص قانون دالي

القانون مزيج من الشرع والعرف ، وكان له مختص لتفسيره في بلاط سلاطين الفور هو (ابا شيخ ، وكان بمثابة رئيس الوزراء ، ومن الخصيان) ، وقال بعض من استمعت اليه انه كان قانونا مكتوباً في كتاب اسمه كتاب دالي ، وذكر نعوم شقير ذلك ايضا ، بينما ذكر اكثرية من استمعت اليهم ؛ انه كان قانونا عرفياً غير مكتوب ، وكان محفوظا فقط في الصدور ثم ربما قام المتأخرون بكتابة بعضا او كلاً من نصوصها اثناء حكم السلاطين المتأخرين ، ولكن المصدر الذي اقتبست منه نصوص القانون هو ما كتبه نعوم شقير في كتابه تاريخ وجغرافية السودان ، وقال فيه ان القانون كتب في كتاب واحد عرف بقانون دالي ، وان من كان يقوم بتطبيقه وتنفيذه المقاديم ، وهم ولاة الولايات ومن دونهم من الشراتي والملوك والسلاطين من اصحاب الحواكير. وكانت فقراتها هي : -

1 – الملك وراثي للابن الاكبرالا اذا كان غير لائق للحكم ، فيؤول للاصغر منه ممن تتوفر فيه الكفاءة .

2 – قصاص السارق غرامة ست بقرات او ما هو ثمنها ، فاذا لم يدفعها حبس الى ان يفديه اهله ، فكان هذا هو نظام سجنهم (فالقضاء ناجز وقائم في اصوله على استكفاء الحقوق ورد المظالم)

3 – قصاص القاتل القتل اذا كان القتل عمدا ، والا فدفع الدية ، مائة بقرة اذا كان من البقارة ، او مائة من الابل اذا كان من الابالة .

4 – الزاني اذا زنى بمحصنة فغرامته ست بقرات ، واذا زنى بايم فغرامته بقرة واحدة ، واذا زنى ببكر فيغرم كلا منهما بقرة .

5 – قصاص الضارب اذا كان في الضرب جرح ، الغرامة ثوب من الدمور ، وان لم يكن فيه جرح فغرامته نصف ثوب من الدمور .

6 – جزاء الشاتم نصف ثوب من الدمور .

7 – قصاص شارب الخمر ، جلد ثمانين جلدة ، وكسر اواني الخمر في بيته .

8 – اذا حدث حريق في عشب الخلاء التي ترعاه الماشية ؛ فان اهل اقرب بلدة الى مكان الحريق يغرمون بواقع بقرة عن طول (مساحة) كل درقة تحترق من الخلاء ، وذلك سواء كان الحريق من اهل البلدة ام من طارئ مفاجئ ، او غريب . (ان هذا النص هو اقوى وأقدم قانون يسن لحماية البيئة الطبيعية في قوانين الأمم القديمة على ما نعلم 1550 م ، وقد روعي فيه استنفار المجتمعات المحلية وتعبئتها لأقصى الدرجات للنهوض جماعيا لاطفاء الحريق قبل اضاعة الوقت في البحث عن الفاعل ، فاي ابطاء منهم يعني مضاعفة الغرامة عليهم . واعلم ان قطع الاشجار المعمرة وتلك المثمرة كانت من المحرمات في مجتمع الفور لعهدنا ، ويوجد تراث متوارث يرهب المجتمعات من قطعها بتخويفات الاصابة بسوء ؛ ولربما كان هناك نص او مادة عرفية لم تسجل من قانون دالي في هذا الشأن ، لأن ما ورثناه و شهدناه ان المحاكم كانت تحكم من يقطعها ، بل ان شيوخ القرى كانوا مخولين بتطبيق القانون الخاص بالقطع الجائر للاشجار في دائرة مسئوليتهم الادارية) .

9 – العجوزة التي تقتل بالسم اعتقادا منها بان البلد سيلد (اي اعتقادا منها بان الانتاج في الموسم سيكون وفيرا بسبب تقديم الضحية البشرية) ؛ يصادر مالها ، ويحرق بيتها ، وتلف بالشوك وتضرب بالعصي حتى الموت . (و السبب في تغليظ العقوبة في هذه الجريمة ؛ انه كان هناك اعتقاد في دارفور ، ان الموسم الذي يُبادر فيه بقتل شخص له صفات جسمانية تميل الى الضخامة والكبر ، ككبر الرأس ، او جحوظ العينين ، او طول العنق ووسع القدمين وطولهما – بقتله بالسم غيلة – فان الخريف في ذلك الموسم سيكون طيبا ومباركا والانتاج وفيرا . ومع دخول الاسلام و اعتناق الناس الاسلام تخلوا عن هذه العادة والاعتقاد الفاسد ، ولكن ظلت العادة منحسرة في طائفة من النساء الكبيرات في السن اللاتي ظللن عند اعتقادهن بان هناك عادات يجب الا تتغير ابدا ؛ وهي تلك التي تتعلق بالخصب – سواء للانسان او النباتات المزروعة او الانعام – فتولين مهمة القتل مع المواسم غيلة . فوضع هذا القانون الصارم لاستئصال هذا الاعتقاد الجاهلي الذي كان سببا تزهق به الارواح البريئة ، خاصة ارواح الغرباء و الغافلين الذين لا يكون لهم علم بهن) .

10 – محصول الدالي ، نصفه للسلطان والنصف الثاني لاصحاب الحواكير والمقاديم والشراتي على نسب معلومة ومتفقة (هذا المحصول هو العشور الذي يجمع كزكاة محاصيل حسب وسائل ري المزارع – فالمزارع البرية التي تسقى بمياه الامطار تخرج

عشرها زكاة بعد اكتمال النصاب ، والاراضي البحرية التي تروى بالري الصناعي نسبتها ربع العشر ، كما يشمل محصول الدالي انتاج الاراضي او المزارع الاميرية التي تسمى - رو كوري - وكان العمل فيها بالنفير الشعبي) .

4 - الأخوين كورو وتونسام (يرد اسمه في القائمة توم)

هما من اشهر السلاطين للاحتراب الذي نشب بينهما بسبب العرش ، وظلت دلالات الاحتراب بادية للعيان بآثار مادية لا يمكن انكارها منها ؛ تسمية قصر السلطان تونسام في طرة - بدولو كوري - وتعني بوباية السلطان ، او قصر السلطان المهجور ، وكذلك وجود قصر للسلطان كورو الذي نبه عالم الآثار - اركل و الذي زار القصر - بانه وقف على دليل مادي يؤكد ان كورو حكم على عكس ما قاله ناختيقال انه لم يحكم . و منها ظهور المسبعات – المصبحات – في التاريخ كفرع من فروع الفور، ومنها اثر الحائط الذي انشئ ما بين قرية كيا ومحمد دين كحاجز مانع للاقتتال ما ورائها حسب موروثات الفور وتقاليدهم ، ومنها ايضا ان احدى نغمات نحاس الفور كانت (تورُّو داينج تونج – سوبا داينج تونج – تورو داينج تونج سوبا داينج تونج - كورو تونسام) وتعني بالعربية طرة بيتنا ، سوبا بيتنا ، طرة بيتنا سوبا بيتنا - كورو تونسام ، ورمزيتها ، ان النغمة تذّكر بحواضر السلطنة طرة العاصمة التاريخية للسلاطين - من سليمان الثاني الى السلطان تيراب - الذي قام بنقل العاصمة من طرة لسوبا ، وتذكرهم بالاسلاف المؤسسين كورو وتونسام .

والرواية المتواترة عن الحرب كما سمعتها هي ؛ ان كورو وهو الاخ الاصغر للسلطان تونسام طمع في حكم اخيه ، وباعتبار ان الحبوبات مستودعات للحكمة والتجارب المتراكمة في تقاليد الفور ؛ فقد لجأ كورو لاحداهن لتدبر له حيلة يستولي بها على حكم اخيه ، كان كورو يقيم في فوريه دبة (هضبة فوري) واخوه تونسام في قصره المعروف اليوم بدولو كوري على الوادي المسمى باسمه وادي تونسام شرقي روكرو بطرة ، امرت العجوزة الامير كورو بان يتمارض وان يبعث لأخيه السلطان تونسام بمرضه ، وحين يأتيه يطلب منه ان يعرضه لنفس المرأة العجوز لفحص مرضه وعلاجه .

جاء السلطان لأخيه وعرضه على العجوزة التي قالت ان كورو ممسوس بالنحاس (كلدونج) ، وان علاجه يتم بغسل النحاس وشرب مائه مرتان في اليوم عند الصباح

الباكر وعند الغروب ، فكان السلطان يبعث برجلين في اليوم الواحد ما بين دولو كوري وفوري دبة يستغرق المشي بينهما اليوم حوالي الاربع ساعات ، ولما جاء السلطان لمعاودة اخيه بعد ايام من بدء العلاج ؛ امرت العجوزة كورو بان يدّعي التحسن والتقدم في الاستشفاء ، فأمر السلطان بنقل النحاس (كلدونج) من قصره الى بيت اخيه ليكون متاحا للغسل في الازمنة التي حددتها ، وكانت المفاجأة ان النحاس بمجرد وصوله لقصر كورو بدأ يدق نغمة الاستنفار لحدوث تغيير في الحكم !

ارسل تونسام من يستوضح الامر فأتاه الرد ان كورو يزعم انه صار السلطان ، اي انه سلب الحكم من تونسام الذي جمع من حوله - و لم يكن له سبيل لتجميع البعيدين طالما ان النحاس كاداة استنفار لمسافات بعيدة ليس معه ، فجمع من اسطاع جمعهم وتوجه بهم الى حيث يقيم كورو الذي احتشد الجميع بشكل تلقائي في قصره ، وقبل ان يصعد تونسام هضبة فوري الحصينة تلقاه جيش كورو اسفل هضبة فوري في كيا فانهزمت جيش تونسام وادرك انه سيهزم طالما ان النحاس ليس معه ، عندئذ قرر ان يقتسم مع اخيه الملك بان يترك له حكم الاجزاء الجنوبية الغربية ، فاقام على عجل سوراً (ترجة) ما بين كيا ومحمد دين ما زالت معالمها بادية ، و كانت الاعراف تعد ذلك الحاجز (حسبا) او اجارة لا ينبغي عرفا تجاوزه ، الا ان كورو أعرض عن الاعراف وضرب بها عرض الحائط فلاحق اخاه الأكبر الى ما وراء السور فألجأه للذهاب بعيداً لكردافان التي كانت جزء من مملكته ، وقد عرف ابناءه و ابناء الجيش القليل الذي خرج بهم لكردفان بالمسبعات واصلها من المصبحات .

من كردفان استجمع تونسام قواه ، واستعان بعرب بادية كردفان ، وشن هجوما مباغتا فيما يبدو على كورو فقتله واعاد توحيد المملكة ، الا ان سليمان بن كورو استطاع الهرب ، ولجأ لدارمساليت التي يقول المؤرخون ان والدته كانت منهم ، وهناك فكر في استعادة حكم والده كورو من عمه ، فاستعد لذلك بان جلب معه النحاس جنسيه ، والدرع شرم ، وسبق ان اشرنا الى انه ارسل رسولا موقاويا لعمه يطلب منه المنازلة ، وتقول الروايات انه هزم عمه الذي غادر مرة اخرى الى كردفان تاركا دارفور لابن اخيه ، وانهما عملا اتفاقا فتم بموجبه تقسيم حكم الامبراطورية الراسعة ، فحكم احفاد كورو دارفور ، وحكم احفاد تونسام (المسبعات) كردفان بتعايش وتفاهم ، الى ان كان عهد هاشم في كردفان وعهد السلطان محمد تيراب بن احمد بكر في

دارفور فدخلا في الحرب ، فانهزم هاشم و توحدت دارفور و كردفان معا مرة اخرى .

5 – السلطان سليمان سولونج بن كورو (سليمان الثاني)

هو اول سلاطين اهم حقبة تاريخية في تاريخ دارفور ، وتتوفر المعلومات عنها بغزارة من مصدرين هما مدونات الرحالة الاجانب والروايات الشفاهية من معمرين دارفوريين حفظوا تاريخهم وتناقلوه ابا عن جد . ولئن جهلنا صلات النسب ما بين سلطان وسلفه ممن تتابعوا على الحكم من قبله ؛ فاننا على علم بصلات النسب ما بين جميع من حكم دارفور من بعده وجميعهم من نسله . وارجح تاريخ لبداية عهده هو ما ذكره ناختيقال (1596 — 1637 م) وارى ان ما حدده كل من نعوم شقير و البروفسور اوفاهي متأخر ولكن المعرفة الدقيقة لبداية ونهاية عهده يحتاج الى تدقيق علمي اكثر مما ارجحه .

يُذكر عنه انه خاض غمار ثلاثة وثلاثين معركة لاخضاع ملوك قبائل دارفور لحكمه و لكن هنا ؛ علينا التمييز ما بين الاخضاع والتبعية بالضم القسري حتى لا نفهم ان دارفور تواجدت كدولة موحدة في عهده فقط فنسقط بذلك تاريخ السلاطين الذين سبقوه ممن تدل الروايات ان دارفور كانت موحدة في عهودهم ايضا ، بل وتؤكد أيضاً أنهم حكموا كردفان على السواء ، ومنهم على سبيل المثال السلطان تونسام – عمه الذي ألجأته الحرب لكردفان ، ذلك الجزء الشرقي من مملكتهم التاريخية — فتوجه اليها (سلماً لا غازيا) ، فقط بعدما خرجت دارفور من حكمه نتيجة انهزامه – اولا على يد اخيه كورو والد سليمان ، وثانيا على يد سليمان نفسه – فكيف تكون كردفان البعيدة جزء من السلطنة بينما تكون القبائل الدارفورية الثلاثة والثلاثين كلها والتي ذكرها المؤرخون انه هزمها و اخضعها لسلطانه خارج سلطان السلطنة ؟ الاجابة المنطقية هي انهم عنوا بالاخضاع هنا اعادة القبائل لحكم مركزي بعدما رأينا نشوب اول حرب داخلية في تاريخ السلطنة باصطراع الاخوين كورو وتونسام على الحكم واستمرار ذلك النزاع حتى عهد سليمان بن كورو ، فالتفسير المعقول هو ان القبائل تمردت عليه وعلى والده لاغتصابهما السلطة بالانقلاب ، فاعادها سليمان بن كورو الى سلطة الدولة المركزية بالمعارك التي خاضها وانتصر عليهم .

لقد تسارعت جهود نقل المجتمع في عهده نحو الاسلام من خلال تمكين المواطنين بتعلم تعاليم الدين الاسلامي والعمل الدءوب لتطبيق تلك التعاليم كمعاملات يومية للناس ، ولذلك ترد في المصادر التاريخية انه او ابنه موسى استقدم الفقهاء لتعليم شعبه امور دينهم ، وانهما اول من جاءا بتقليد ختان الرجال كعادة حلت تدريجيا مكان عدم الاختتان ، ولكن يمكن القول انه سرّع تمكين الاسلام بتحديد هدف وغاية الدولة بان تصبح دولة اسلامية حقيقية بالتزام كل من السلطان والشعب بتحقيق الهدف ، وخضوعهما لتعاليم الاسلام ، واسناد الرقابة على السلوك الدال على هذا التوجه لكل افراد الامة المؤهلون بحكم انهم حصلوا على المعرفة الضرورية بالدين (معرفة الحلال والحرام) . ولذلك كان التركيز في هذه العملية على التعليم الذي اندفع لتحصيله كل افراد المجتمع ، ولم يمض الا نحو قرنين من حكمه حتى بدت كل دارفور خالية في مجتمعاتها المستقرة غير البدوية انها خالية من الرجال الاسوياء الذين لا يعلمون القراءة والكتابة ، والحقيقة ان منهج تعلّم القرآن الكريم في دارفور منذ عهده قد اقترن بربط كل من القراءة والرسم معاً ، فلا يجاز حفظ حافظ الا اذا اجتاز معاً التسميع وكتابة المصحف برسم سليم ، فاصبحت دارفور مستودعا لحفظة كتاب الله العزيز ، واصبح المصحف المخطوط بفقهاء وحفظة دارفور جزء من المحمل توزع للحجاج ، وتودع في الحوزات العلمية عندما كانت الكتب تكتب بخط اليد ، وفي رقاع جلدية وذلك قبل تعميم المطبعة وانتشار استخدام الورق ، وكانت دارفور سباقة في استخدام الورق وكانت سلعة تبادل ما بين دارفور واوروبا كما يذكر ذلك الرحالة ناختيقال .

إن تحديد هدف الدولة ، كانت كالوصية الملزمة من الأب لأبنائه بان يمضوا نحو الهدف بجد ، وقد نتج عن ذلك تسابق السلاطين بعده في العمل لتمكين اكبر للاسلام في الدولة والمجتمع بابداعات واعمال غير مسبوقة ، فتسابقوا بينهم إما باحياء امر لا يتعارفه الناس من الاسلام ، او باماتة بدعة مستشرية يعدّونها عادة او عرفا من اعرافهم قبل الاسلام .

فلذلك نجد ان كل واحد من عقبه ممن حكم دارفور ؛ تفرد وتميز بخدمة الاسلام بما لم يسبقه به احد ممن حكموا قبله . اما المجتمع من جانبه فكان يرسى اعرافا لتثبت الناس فيما أُرسِيَ فيهم من تعاليم الاسلام ، ويقوم بتوجيههم للتخلق بخلق

القرآن في معايشاتهم اليومية. ولم تحدث تراجعات عن الاسلام الى اي عقيدة اخرى بالردة ، و لم يحدث وهن في التمسك بقيمه طوال حكم هؤلاء السلاطين او حتى بعد احتلال دارفور ؛ لأن المجتمع ظل مدافعا لقيم الاسلام و يدفع بافراده لتعلمه ، ثم يحرضهم على الرقابة المجتمعية للسلوك ، فكانت العقوبات ، وكان الحظر الاجتماعي سيفا مسلطا من كل المجتمع على من يتعدّى حدود الله ، او من يبتعد من مفهوم ان الدين المعاملة ، وان دعوة الاسلام قائمة على مخالقة الناس بخلق حسن . كانت اداة المجتمع في التقويم هي المنزلة الاجتماعية والتي اصبحت معيار سموها القدرة على المعايشة بأمان وبلا ايذاء او ظلم للآ خرين ، أضف اليه التميز العلمي بحفظ القرآن الكريم والتفقه في علومه ، فاقدار التعلم تحدد مراتب الناس في المجتمع ، وبالتخلق الفاضل يحوز الانسان على الاحترام و التقدير.

6 – السلطان موسى بن سليمان وابنه السلطان أحمد بكر

كان السلطان موسى مُرسّخا للتقاليد الاسلامية ، فعنى بالتعليم بانشاء مسجد طرة لتكون منارة علم في السلطنة ، واعطى أئمتها منزلتهم وقدرهم في الدولة ، والجدير بالذكر ان المسجد آخر رمز لفن العمارة التي تعود لعهد التورا ، فهو مبني بالحجارة الضخمة خاصة عتب الابواب والنوافذ التي يحتار الانسان كيف جلبت احجارها من اماكن بعيدة عن طرة ، وسمك حائطه متر كامل ، ورصت احجار البناء بلا نتوءات من الداخل والخارج ، ومن دون استخدام التراب كمونة تسد الفراغات التي سدت بعناية ، وحشيت باحجار مكسورة لم تترك فراغا لادخال دبوس ! وخلدت اهجوزة شعرية اسماء البنائين الذين تولوا بناء هذا المسجد ، وهم بايرو ، ودُبّة ، ودل كرو . كما اخرج السلطان موسى الانعزاليين الوثنيين من محيط العاصمة ، وقام بنقل رفاة والده من مرقده شرقي طرة الى مدافن خصصت لدفن المسلمين لاول مرة هي مقابر طرة والتي صارت مأوى لأجداث السلاطين الطاهرة منذ ذلك الحين ، فحمل كل من مات ميتة طبيعية للدفن بطرة ، وترك الشهداء حيث استشهدوا فلم ينقلوا للدفن فيها حسب التقاليد الاسلامية .

ولكن احمد بكر آثر ان يتميز عن والده السلطان موسى في مجال نقل المجتمع الى الاسلام مظهريا ؛ بان ألزم شعبه بالصلاة ، وعلى صيام شهر رمضان ، وفرض على الرجال الاختتان . فاصبح المظهر في الدولة اكثر اسلامية ، وادخل نظام كتابة

الدواوين ، وشجع على تعلم العربية وكتابتها ، ولكن ما برع فيه هو التنظيم الاداري . فسلفه السلطان دالي مال الى قبضة مركزية اشد مع منح بعضا من السلطات للحكام المحليين ، ولم يكن منح السلطات بالتفويض معهودا في زمانه ، ولكن احمد بكر بسطها اكثر ومنحها لحكام المناطق الادارية ، فقريبا من قصره ؛ وقف عند خط تقسيم المياه (شرق – غرب) على بعد امتار غربي المكان الذي يعرف ب (نوماننج فدّا – وتعني شجرة السدر الفضية) ؛ فقسم البلاد الى وحدات ادرية (حواكير) مطلقا تسمياتها من اعضاء جسمه . وهو اول من انتبه لتحقيق الاكتفاء الذاتي من الملبس والغذاء ، فلجأ الي توجيه وتخصيص المناطق الادارية للانتاج المتنوع لتحقيق ذلك الاكتفاء حسب الموارد المتوفرة فيها ، وجعل اداريات (حواكير) جبل مرة الثمانية مثالا للانتاج الموجه لسد احتياجات القصر الغذائية والكسائية ولاحتياج السلطنة من الجيش الاحتياطي ، كما قام بحل مشكلة ندرة ملح الطعام بتوجيه ادارة كاملة للعمل في صناعة ملح الطعام الذي صارت عملة تبادلية مثله مثل التكاكي (ثوب الدمور) والورق ، وسلعة صادر لودّاي وباقرما و المناطق الجنوبية .

ويبدو انه كان اول من عمق الروابط الاجتماعية بالتزوج من القبائل المختلفة في دارفور بمصاهراته الواسعة لها ، ويقال انه لما توفي كان له اكثر من مائتين من الابناء كان منهم اكثر من اربعين ولدا بلغوا مبلغ الرجال ناهيك عن عدد بناته . كما يؤثر عنه تشجيعه للهجرة النوعية لدارفور – اولا لتحقيق التوازن ما بين الموارد و القوى البشرية الضرورية للاستغلال الكفؤ للموارد ، وثانيا لنقل معارف الشعوب و توطينها في دارفور – فقام باعفاء المهاجرين من الضرائب ، وبتأمين امنهم ، وباتباع سياسة دمجهم في المجتمعات المحلية التي اختاروا الاقامة فيها – ومنذ عهده كانت المواطنة والحصول على كافة الحقوق بما في ذلك السياسية في سلطنة دارفور تكتسب بالانتماء لملة الاسلام . وقد بعث البعوث لاحضار كتب الفقه المالكي من الزيتونة والقيروان ، وارسل من ابناء السلطنة طلابا للتعلم والتفقه في الحجاز والقاهرة وبيت المقدس وسامراء .

وفي عهده تعكرت العلاقات بينه وبين السلطان عريس سلطان وداي الذي رفض ارسال الضريبة المعتادة منذ حكم التنجر لوداي لسلطان دارفور ، واستمر البرقو بعد استيلائهم على وداي في ارسالها ، ولم يعر السلطان احمد بكر بالاً لوقاحة الرد الذي

عـاد بـه الموقـاوي مـن وداي فابلغه على مـلأ مـن النـاس ان السـلطان عريس قـال أنـه (اذا كانت لديه رغبة في الفتاة فعليه الذهـاب بنفسـه لوداي لأخذهـا) ، وعندمـا دخل عريس سلطان وداي دارفور دون اذن ؛ ارسـل اليه يسـأله ، لم فعـل ذلـك ؟ فلمـا رد عليه انه جاء قاصدا الحج لبيت الله الحرام في مكة ، اهدى اليه بنتا من صلبه لتكون رفيقته في سفره الشاق ، ولما تبين السلطان احمد بكر خداعه ومكره حاربه وانتصر عليه ، الا انه اكتفى بان يتعهد بتطبيق مـا كان سائدا من التقاليد بين البلدين

تمرد عليه القمر الا انه اخضعهم بحرب استمرت سبعة سنين وسبعة اشهر وسبعة ايام ، وكان قد استعد لحربهم بعقد حلف مع الباقرما ، وبتحضير الاسلحة فاستجلب المدفع لاول مرة لدارفور من مصر في خضم الاعداد الجيد للحرب ، واخمد ثورة للبرقد وكانوا قد اتهموه بالتقصير في حماية بناتهم من الاسترقاق . واستطاع اخاه الاكبر جقري الانقلاب عليه ، فهرب لغرب البلاد وعندما كان اهل جبل مرة منشغلون بالزراعة في بداية الخريف ، خرج من مخبئه وعاد الى طرة واستعاد حكمه .

واتخذ احمد بكر قصورا عدة لادارة السلطنة راعى فيها الظروف المناخية و الامنية ، ولكن اهم ما تميز به في البناء هو انه بنى بالطوب الاحمر قصرا في دايا بطرة تسمى (دانقا) ، فكان ذلك اول ظهور للطوب الاحمر بعد ظهوره في عين فرح قبل ما يزيد عن مائتي سنة . وحكم دارفور لسنين طويلة ، ولما انتهى من المهدد الغربي باخضاع وداي لدفع الضريبة المعتادة ، واخمد ثورة القمر ؛ فكر في التوسع شرقا ، فنوى استعادة كردفال من ابناء عمومته المسبعات وعبور النيل بعد ذلك لضم سنار ، واستخلف على دارفور ولده محمد دورة بن احمد بكر – وكان ذلك اول استخلاف من سلطان حي لخلفه ، فقد كان العرف السائد هو تسمية الخلف بعد وفاة السلطان لا قبل ذلك – ولكن الموت عاجله قبل غزوه لكردفان وسنار فتوفي في التخوم الشرقية لدارفور واعيد جثمانه للدفن مع آبائه .

كانت وصيته الا يتولى ابن ابنه الحكم في حياة اي ابن من ابنائه ، ونفذت الوصية الا ما كان من حكم ولد ابنه محمد دورة — دورة تعني الحديد بلغة الفور — (عمر ليل بن محمد دورة) للبلاد في حياة اعمامه ، وكذلك حكم ولد عبد الرحمن الرشيد محمد الفضل ، للبلاد في حياة عمه طاهر كننج أبا . و لقد سعى خلفه محمد دورة لافساح المجال لحكم ابنائه بقتل اغلب اخوته او سجنهم ، فلم ينج من بطشه الا من

اخفي في ملابس وهيئة النساء . بل طال بطش محمد دورة ولده موسى الذي كان يعده ليخلفه قبل ان يغير رأيه ويخاف من امكانية انقلابه عليه ، فقام بقتله بيده رغم قسمه على المصحف الشريف انه عفى عنه وتجاوز عن اخطائه في محاربته له عندما ارسل محمد دورة جيشا لاحضاره عنوة ، فقام عندئذ برفع السلاح في وجه ابيه ، فتدخل العلماء لاصلاح ذات بينهما ، فاقنعوا موسى بالخضوع لوالده ، والزموا والده بالحلف على المصحف الشريف بعدم عقابه ، حنث الوالد بالقسم فقتل ابنه بيديه ! أصيب محمد دورة بمرض الجذام فسقط حتى لسانه ، ثم مات وخلفه ابنه الثاني عمر ليل الذي كان من اعدل سلاطين الفور وقام بالافراج عن اعمامه الذين زج بهم والده في سجون جبل مرة للتخلص منهم وللحؤول دون توليهم الحكم حسب وصية السلطان احمد بكر .

7 - السلطان محمد تيراب بن السلطان أحمد بكر

تولى الحكم بعد السلطان ابو القاسم بن السلطان احمد بكرالذي تولى هو الآخر الحكم بعد استشهاد السلطان عمر ليل بن محمد دورة بن احمد بكر . وكان ابوالقاسم اول من فكر في عمل جيش نظامي محترف للسلطنة التي انهزمت لاول مرة في تاريخ حروبها مع الجارة العنيدة وداي – في حرب استشهد فيها سلفه السلطان عمر ليل – فقام ابو القاسم بجلب العبيد وتنظيمهم في الجيش النظامي بديلا للنظام القديم القائم على استنفار وتعبئة الزعماء الاداريون لشبابهم (جورينقا) في اداراتهم ودفعهم للحرب تحت راياتهم ، ولما كان السلطان محتاجا للصرف على جيشه المكون من العبيد ؛ فقد فرض الضرائب لمقابلة ذلك ، فاحفظ مواطنيه بتلك الضرائب التي كانت عبارة عن بقرة كاملة على رأس كل برمة (البرمة وحدة لتحديد مفهوم الاسرة عند اهل دارفور ، فقاعدة تحديد الاسرة هي المرأة التي استقلت بحياتها ونصبت برمتها اي اناء طبخها لتقدم الطعام للناس من بيتها لا من بيت ذويها ، بمعنى ان الرجل ليس قاعدة بناء الاسرة بهذا العرف ، لأنه يمكن ان يكون عضوا في عدد من الاسر او من البرمات) .

واغضب ابوالقاسم الزعماء الاداريين بتقليل الاعتماد عليهم و تفضيل العبيد واهل والدته (الزغاوة) عليهم . وعندما توجه للانتقام لسلفه عمر ليل ، ساق جيشا كثيفا ولكنه اطلق يد الجيش لسد احتياجه من الغذاء بنهب اهالي القرى التي تمر بها حملته فازدادت نقمة الشعب عليه . وفي ترتيب الجيش في المعركة اصر الفور ان يكون

الترتيب بان يكون العبيد في المقدمة ، ثم السلطان وحاشيته من اهل امه في الوسط (القلب) ، ثم يكونوا هم في مؤخرة الجيش .

التحم الجيش النظامي الذي كان قوامه العبيد بجيش وداي فابتلعتهم الحرب ، ثم غاص السلطان وحاشيته في الحرب ؛ وعندئذ صاح الموقاوي باعلى صوت يا ابناء الفور عودوا الى بلدكم ، اتركوا ابوالقاسم ليحارب بالابقار التي اخذها منكم كضريبة ، ويحارب بخاله الذي فضله عليكم ، انجوا بانفسكم ودعوه . وبشكل جماعي خرجوا جميعا من المعركة ولم يهاجموا العدو الا عندما علموا ان العدو قد استولى على نحاسهم جينسيه – لم تكن المنصورة يومئذ ضمن نحاساتهم كما ذكر ناختيقال خطأ ان النحاس الذي استولت عليه وداي كانت المنصورة – فهجموا العدو هجمة واحدة فاستردوه ثم انصرفوا تاركين سلطانهم في المعركة التي جرح فيها ، واخذه احد الاعراب فعالجه دون ان يعرف انه السلطان !

ما ان انجلت المعركة وعرفوا ان ابا القاسم لم يظهر حيا بينهم ؛ ظنوه مقتولا ، ثم تفكروا في من يخلفه وذلك قبل التيقن من مصيره ؛ فاجتمع رأيهم على ان يولوا على البلاد سلطانا ضعيفا يطيعهم ، فاختاروا محمد تيراب بن احمد بكرالذي كان فقيها ذائعا وصاحب خلوة ما بين كادونقو و ارامبا بطرة – ولقد رأيت اثر الرماد في موضع خلوته هذه – ظنا منهم انه الاضعف من بين اخوته .

ولم يمض وقت طويل حتى راعهم عودة ابو القاسم فادركوا انهم في محنة دستورية متمثلة في وجود سلطانين شرعيين في وقت واحد ، اراد تيراب ان يتخلى عن الحكم لأخيه ولكن اهل الحل والعقد منعوه وهددوه ، مبررين انه وهم جميعا سيكونون محل حساب وانتقام من ابي القاسم ، وانهم يرون ويبصرون مصارعهم اذا ما اعادوه للحكم ، ولذلك من الافضل لهم ان يضحوا به ليسلم الجميع ، فطلبوا منه السماح لهم بالاحتفال لسلامته وان يلبسوه كسوة الشرف السطانية في الاحتفال ، وعهدوا الى كامنيه ور – كان الكامنيه هو المسئول من إلباس السلطان ملابسه – ان يلبسه لباس بلا فتحة ، وعندما يستقر رأسه داخل ذلك الثوب يقوم بخنقه حتى الموت ، نفذ الرجل التوجيهات فاسندت من بعد ذلك وظيفة تنفيذ احكام الاعدام لعقبه ! دفن ابوالقاسم في المقبرة كسلطان ، ولما توفي تيراب احضر جثمانه من بارا فدفن في المقبرة شماله مباشرة (على جهة قدمي ابي القاسم) ، ويقول اهل طرة في تفسيرهم

لطول قبر ابوالقاسم المبالغ فيه (فطوله ستة امتار) يقولون ؛ انهم لاحظوا امتداد القبر تجاه تيراب حتى كاد ان يلتحم به ، وانهم رأوا ضرورة الحجز بينه وبين اخيه ، ولذلك احضروا سيفا ومصحفا فدفنوهما في المسافة التي بقيت من التحامهما لحجزه من رفس اخيه ، فتوقف قبر ابوالقاسم منذ ذلك الوقت من التمدد تلقاء رأس تيراب ليرفسه بقديمه تقديرا للكتاب !

حكم تيراب ثلاثة وثلاثون عاما ، قسمها في ثلاث مناشط متميزة ، حيث امضى الثلث الاول من حكمه في مشروع عفة المجتمع بعقد الزيجات الجماعية وتسمى ايضا بسنوات البهجة ، فتولي دفع المهور من صندوق مخصص لوفاء تلك الاحتياجات ، كان يقوم بزيارات لقرى مملكته ، وفي كل قرية يزورها تجمع في حضرته الفتيات اللائي بلغن سن الزواج ، و كل الثيبات في القرية ، فيطلب السلطان من كل واحدة ان تسمي من تتمنى التزوج به من الرجال ، فيدعى الرجال المختارون للمثول في حضرة السلطان ، فلا يعفون من تلبية رغبات النساء والبنات الا ان يكون الواحد منهم متزوجا باربعة ، ولا تقف المهور دون اتمام هذه الزيجات لان السلطان كان يتولى دفعها للجميع ، اما اذا تأنف رجل من قبول التزوج بالفتاة او الثيبة التي اختارته ؛ فانه يلزم بفدي نفسه بمال يضع في الصندوق لتوفير مهر للذي يرتضي الزواج بمن رُفض التزوج بها . وفي احدى المرات طلبت فتاة ان يكون مهر زواجها بفتاها السلطان نفسه ، كان السلطان شاهدا لحلقة الرقص ولاحظ اشارة الفتى باصبعه للسلطان ثم رأي هزة رأس الفتاة كناية عن الموافقة ، فما كان من السلطان حين استبانهما عن اغتيابهما الا ان يفتدي نفسه بعبيد ومال دفعها لاهل الفتاة فتم زواج الحبيبين بذلك المهر الغالي .

وتدل آثار على الصخرة التي انشأ جوارها قصره في سوبا على حجم العطور التي كانت تدق لتطييب وتعطير القصر الذي بني في مساحة طوله خمسة وخمسون مترا وعرضه عشرون مترا وارتفاعه (سبعة وعشرون مترا) ويحوي ثلاثة و ثلاثين غرفة ويحتفظ بداخلها بثلاثمائة وخمسين كبشاً . (6)

اما الثلث الثاني من حكمه ؛ فامضاها في بناء المساجد بالمواد الثابة وغالبها بالطوب الاحمر الذي ظهر للمرة الثالثة في عهده ببنائه لمسجد وقصر سوبا ، لقد بنى تسع وتسعون مسجدا جامعا في دارفور وحدها ، ولقد وقفت على ايذان منه لفتح مسجد لصلاة الجمعة في منطقة للجوامعة في كردفان ابان عملي محافظا لأم

روابة ، وقيل ان الجموعية في ام درمان يملكون وثائق تمليك ارض من السلطان تيراب . وكانت طريقته في بناء تلك المساجد ان وزعها على العموديات المختلفة فيدعو لعمل نفير عام غالبا ما يحضره بنفسه ، وما زالت آثار عدد كبير من هذه المساجد باقية الى اليوم مثل مسجد جامع تربا ، ومسجد بشارة طيب ، ومسجد فتينا شمالي جلدو فالثلاث مساجد في عموديتي قرقر وام حراز بداركرني ، وهناك مسجد في كاالا غربي كبكابية ، ومسجد جامع ابوعجورة ، واماكا ساري بجنوب دارفور وغيرها من المساجد التي ينبغي تحديدها وعدها تراثا قوميا ومحميات اثرية .

اما الثلث الثالث من حكمه فكانت مخصصة لحروباته الخارجية ، لقد هدأت في عهده الجبهة الغربية تماما ، و لكن ولاول مرة اصبح الشرق مصدرا للقلق عندما اعتلى السلطة في كردفان السلطان هاشم الذي حشد مجموعات من اعراب البادية واراد الاستعانة بهم لغزو دارفور ، اضطر السلطان ان يترك قصره الفخيم في سوبا والذي لم يكن له مثيل في الدول حوله ، فانتقل الى ريل بدار البرقد لمتابعة الاحداث في الجبهة الشرقية ، واستخلف ابنه اسحق دلدوم على دارفور بعد ان جعل له مجلسا للوزراء كمجلسه وقيادة للجيش مثل قيادته .

وكان اسحق قد خضع هو واخاه احمد حبيب للاختبار العملي في حسن التدبير والشجاعة ، عندما دعاهما والدهما السلطان تيراب للمثول امامه ليرسلهما لقضاء بعض مطالبه ، كان السلطان مع زوجته ايا باسي كنانة ام ولده احمد حبيب والتي كانت تصر على السلطان بان يستخلف ولدها بدلا عن اسحق ، فطلب السلطان اولا حضور احمد الذي جاء ، فلما وجد على الباب اسدين تراجع ليدخل من الباب الذي ليس فيه الاسدين ، فقال له والده اذهب الى الحائك وآتني منه بحرير ، خرج احمد ولكنه عاد لوالده فقال له ما لون الحرير المطلوب ؟ فاخبره باللون فخرج ثم عاد ليسأل عن فيما لو يريده خاما ام مغزولا ؟ فخرج ثم عاد ليسأل عن كمية الحرير المطلوب .

انصرف احمد ثم دعا السلطان ابنه اسحق الذي جاء من الباب الذي فيه الاسدين ، فدخل على والده كما جرت العادة حبوا والاسدين يداعبانه فقال : امرك ابي ! فقال له اذهب الى الحائك وأتني بحرير ، وقبل ان ينصرف استوضح اباه بكل ادب عن لون الحرير وكميته و فيما لو يريده خاما ام مغزولا ، ثم خرج بالباب

الذي دخل به ، ولما احضر الحرير دخل بذات الباب ، فاقتنعت ام احمد حبيب ان الذي يصلح للخلافة اسحق لا ولدها .

كان تيراب قد عزم على اخيه عبد الرحمن الرشيد ان يتخلف فلا يخرج معه لكردفان ليعين ابنه اسحق في ادارة البلد في غيابه ، لكن صديقه وتربه الحاج صالح بن عثملن امام طرة نصحه ان يلتحق فورا باخيه السلطان تيراب ، ففي الحرب احتمالين . فاذا كان الاسوأ فمات السلطان فان خلفه سيكون ممن يحضر واقعته ، اي سيكون ممن في معيته من المستحقين للعرش ، سمع عبدالرحمن الرشيد النصيحة ولحق باخيه السلطان تيراب في مسيرته التي بعدوا فيها من دارفور لاكثر من عشر سنوات ، واهدي لعبد الرحمن الرشيد في هذه الرحلة جارية بيقاوية ، ولفقره ما كان يجد ما يحملها عليه من دواب ، فكانت تسير على اقدامها تحمل رحى الطحين حينا فوق رأسها ، وتحبكها كالطفل حينا على ظهرها .

استطاع تيراب اخراج هاشم الذي تمادي في الغي وابى الاستجابة للخطاب الاخوي الذي بعث اليه تيراب ونصه الوارد في كتاب التونسي : - (يا ابن عمي ، ارسلت سراياك على اطراف بلدي ؛ وانت تعلم ما بيننا من مودة ، ولم يقع منا ما يخالف المودة ، مع انك تعلم ان الذين اخذت اموالهم مسلمون ، والذين قتّلوا موحّدون ، وهذا الفعل لا يبيحه احد ولا يفعله عاقل . فاذا وصلك كتابي هذا فانته والا سيلقى الباغي مصرعه والسلام) .

لقد ذكرت في كتابي سلطنة الفور الاسلامية ؛ وقائع الحرب وتشكيلة جيش السلطان تيراب ، ولكن ما اود ذكره هنا من جملة تلك التفاصيل هو ؛ ان السلطان عسكر طويلا في ريل دون ان يهجم على هاشم ، الا ان الجيش مل الانتظار فاتفق ثلاثة من الفرسان على ضرب النحاس بنغمة الحرب ، هرع الكل بـمن فيهم السلطان لعدته ظنا انهم هوجموا بغتة ، ولما لم يجدوا دالة على الهجوم استفسر السلطان عمن ضرب النحاس ، فتكلم الفرسان الثلاث انهم فعلوا ذلك مبررين ان آذانهم صُمّت من نحاسات المسبعات ، وانهم يريدون ان يصمتوها للابد ! قال السلطان اذن اتبعوني ، فتحركوا مهاجمين ، فولى هاشم وجنده الادبار فتعقبهم السلطان من العصر الى عصر اليوم التالي دونما توقف ، فشق ذلك على جنده ، فالتمسوا طريقة لايقاف السلطان فلم يهتدوا الا ان يكلموا الامام الفكي عبد الغني امام الصلاة بان يكلمه انه مضت

صلوات لم يؤدوها ، حينئذ ادخل السلطان يده تحت ركابه فاخرجها ملوثة بالدم فقال : أمن حيض ام من نفاس ؟ قالوا حاشى . قال انا تعب مثلكم ولكن اردت اختبار صبركم ، لعلمي ان الصبر هو وحده سبيل الانتصار . اما الصلاة فما كانت لتفوتكم ، حيث كان عليكم ان تؤدوها راكبين .

استمرت المطاردة بعد معركة كاتول داخل حدود كردفان نحو المشرق ، الى ان تفاجأ الفور بالنيل - الذي قطعه هاشم مقابل منطقة المسلمية بالنيل الابيض ، وكانت تحت حكم دولة سنار ويشرف عليها العبدلاب - فاقتلعوا الاشجار ورموها في النهر وتعلقوا بها فعبروا البحر وواصلوا مطاردتهم لهاشم من ضفتي النيل فلم يلحقوا به الا في شندي التي اخذت الاسم من شتم تيراب لهاشم (دينق يانج سندي) لم اتعبتني كل هذا التعب ؟ ومن الضفة الغربية اعلن تيراب نهاية المطاردة قائلا (انا حدي من هنا تم) فجاءت منها اسم المتمة . هنا غنم الفور اكبر نحاساتهم اطلاقا من العبلاب وهي (كلدونج مانسورا — نحاس المنصورة) التي عملوا لها نهودا من الذهب ، وفي العام 1916 م استولى عليها الحكم الثنائي ونقلوها لمتحف القاهرة . وبهذا الغزو للشرق توسعت سلطنة الفور وصارت امبراطورية حسب وصف اوفاهي ، اذ امتدت لنهر عطبرة شرقا ، ومن الغرب حدها ترجة التي هي اليوم داخل الاراضي التشادية ، ومن النطرون وجنوبي الواحات شمالا الى البرجوب جنوبا ، فكان المسير عبر طولها ثلاثة اشهر ، وعبر عرضها شهران وبلا توقف .

استقر السلطان تيراب في ام درمان ، واقام بها ابنية من الطوب الاحمر ، وكان يخطط لغزو الفونج ، ولكن الجيش الذي ابتعد من دارفور لعشر سنوات على الاقل ؛ مل من اشعال حرب جديدة و الابتعاد عن الاولاد والاموال لفترة اخرى قد تطول لسنوات ، وجرت محاولة لاغتيال السلطان من بعض القادة وتم كشفه ، فاضطر السلطان تيراب لترتيب العودة ، وفي الاثناء اصيب بالملاريا ، فجد في العودة ، وارسل من يخبر خليفته على دارفور ابنه اسحق دلدوم بان يوافيه في الطريق عله يدبر له طريقة مأمونة لاستخلافه قبل وفاته المتيقن . تباطأ اسحق ولم يتحرك من دارفور لملاقاة والده الذي جمع قادة جيشه وكبار وزرائه واخذ منهم العهد على ايصال جيشه وماله لولده اسحق ، وان يبايعوه سلطانا بعده ، فاتفق الوزراء والقادة على اخفاء خبر موته وان يواصلوا السير لدارفور ، والا يعلنوا موت السلطان الا بعد وصولهم لاسحق

، وعهد تيراب كل التدابير لوزيره المخلص علي ود جامع . كان موته في بارا ونقل محنطا ليدفن في طرة .

8 - السلطان عبدالرحمن الرشيد بن السلطان احمد بكر وابنائه

لقب باليتيم لأن والده السلطان احمد بكر مات وهو في بطن امه ، وسماه خليفة المسلمين في تركيا بالرشيد ، وسماه مواطنوه بالعادل وبشدود لأنه كان عادلا وممن يقذف الحربة فيعليها فوق جبل توقونقوا جاب (جبل للتدرب على الرماية ما بين قريتي طرة جامع وتبون) .

عندما توفي السلطان تيراب في بارا ، كان مع الجيش اربعة من ابناء السلطان احمد بكر هم حسب ترتيب اعمارهم ريس (توجد شجرة الجميز التي ولد تحتها ريس بن احمد بكر الى اليوم ، وما زالت تعرف باسم ريسنج يانج بورو ، وتعني جميزة ام ريس ، وهي عند مفترق الطريق القادم من طرة جامع ، فيقصد فرعه الجنوبي حلة سلو والشرقي روكرو السوق) ، ثم ريفا ، ثم طاهر الملقب بطاهر كناننج ابا (وتعني طاهر اب الامراء لكثرة عياله) ، ثم عبد الرحمن الرشيد اصغرهم سنا .

اخفى الوزراء موت تيراب لتسهيل تنفيذ وصيته ، ولكن كان في القصر من يراقب الاوضاع عن كثب ، فايا كوري كنانة الزوجة المحظية لدي تيراب كانت تسوؤها انتقال السلطة لاسحق رغم قناعتها بانه الاجدر بالسطة من ابنها احمد حبيب وسبق قص قصتهما مع الاسدين لدي باب القصر ، ولذلك عقدت حلفا سريا مع عبدالرحمن الرشيد بان تساعده لتسلم السلطة مقابل ان يبقيها في وظيفتها (ايا كوري – تقابل وظيفة الملكة او السيدة الاولى) ، وان يستخلف ولدها من بعده حيث لم يكن لعبد الرحمن حتى ذلك الحين ولداً كفؤاً ليخلفه . واشرك في التدبير محمد كرا الذي كان يعمل مع قائد الجيش على ود جامع وله قصة في شبابه حيث كان ضمن اولاد الخلوة (سومنج دوقولا – وهي الاكاديمية المختصة بتاهيل قادة المستقبل للسلطنة) ، تفوّق محمد كرا وبز اترابه فجلب الحسد لنفسه ، فاتهم بمصاحبة النساء في القصر ، وقبل ان يفكر سيده السلطان تيراب في امر معاقبته ؛ اسرع فاستأصل مذاكير نفسه ، ودخل على السلطان فقذفها قائلا : ما قيمتها حين يريد الناس ان يفرقوا بها بيني وبين سيدي ؟ امر السلطان بعلاجه وسمى منزلته عنده .

كان الدور المسند لايا كوري كنانة ؛ اخطار الامير عبد الرحمن الرشيد بموت اخيه السلطان تيراب ، فلما مات قامت بنزع خاتمه من اصبعه ، فارسلها لعبد الرحمن الرشيد الذي اخطر اخوانه الكبار بان الوزراء يخفون عنهم موت اخيهم ويستأثرون بجثة اخيهم الذي طوقوه في حياته ، وحالوا بينهم وبينه ! فاندفع الامراء الى حيث الخيمة التي جثي فيها تيراب ، وعنفوا القادة والوزراء على تصرفهم في اخفاء امر وافته عنهم ، واحتشد عندهم الناس ، فلما رأى الوزير على ود جامع ان الامر سيخرج عن سيطرته دعى خادمه محمد كرا فامره ان يذهب فورا لابلاغ ولده احمد دكومي بان ياتيه بكل جيشه ، ولكن كرا المتآمر مع كنانة وعبدالرحمن الرشيد ذهب لدكومي وابلغه رسالة معاكسة ! قال له ان سيدي يامرك بان تاخذ جيشه وتذهب بهم الى حيث ابناء السلطان احمد بكر . ابتلع الوزير ود جامع الغصة حين رأى كيف افسد كرا تدبيره فأحرجه مع سيده وصديقه السلطان تيراب ، فصمت خاضعا للشورى ليقرر في مصير الحكم حسب الاعراف وقانون دالي .

انقسم الجميع للتشاور الى ثلاث فئات هم ؛ الامراء من ابناء احمد بكر وكانوا على الارجح اربعة ، ريس وريفا وطاهر وعبدالرحمن ، وابناء السلاطين الذين حكموا قبل تبراب ، وفئة الوزراء والعلماء وقادة الجيش وعامة المواطنين ، وكانت الاعراف تقضي بمحاصرة الامراء ومنعهم الاتصال مع العامة حتى لا يؤثروا عليهم في شوراهم ، وانهم هم من يسمى الخلف من بينهم ، ولكن الرأي النهائي يقرره العامة . وتولى العلماء سؤال الامراء الاربعة ، فاختاروا باسي ريس ليكون هو الخلف حسب وصية والدهم وحسب قانون دالي ، ثم انتقلوا لسؤال الامراء الصغار احفاد احمد بكر الذين قالوا ان باسي ريس سيدنا وابانا ، ولكنه صعب المراس وفيه حدة ، ونحن والبلاد في حاجة لسلطان حليم يرعانا كايتام ، وبعد ذلك أُخذ رأي الرعية الذين قالوا ما قاله الامراء الصغار الا انهم اضافوا انهم فوضوا باسي ريس لاختيار السلطان من بين اخوته الثلاث . قبل ريس الرأي فولى عليهم ريفا فقالوا انه بنفس طباع ريس ، ثم اختار لهم باسي طاهر فاحتجوا انه كثير العيال ، وسينشغل عنهم بولده .

فاختار لهم عبدالرحمن فقبلوه جميعا ، فبويع عبدالرحمن الرشيد سلطانا ، وتدافع الناس لبيعته وفي تلك اللحظات جاءته البشرى بميلاد ولد له من ام بوسة الجارية البيقاوية ، فرفع عبد الرحمن الرشيد يديه بالدعاء قائلا اللهم اجعل هذا القرن لي و

لولدي من بعدي ، فكان كل من حكم دارفور منذئذ من ذريته .

فبعث رسولا لابن اخيه الخليفة اسحق يخبره بخبر وفاة والده ويعزيه فيه ، وان الناس قد اختاروا عبد الرحمن سلطانا خلفاً ، وانه سيبقيه خليفته وبكل الامتيازات التي كانت له في حياة والده ، ثم طلب منه تجهيز المضايف وكل ما يليق بمراسم دفن والده في طرة ، ثم طلب من رسوله المرسل (لاسحق) ان ينتبه لأول حركة تصدر منه ، ولأول كلمة يتفوه بها عندما يُبلّغ بالرسالة ، فيعود سريعا لابلاغه بها . ذهب الرسول فابلغ الرسالة ، وعاد سريعا للسلطان فقال له : ان اول حركة صدرت من ابن اخيك حين ابلغته رسالتك كانت تحسسه لمقبض سيفه ، اما اول ما صدرمنه من قول فقوله : أ إمرأة انا حتي أؤمر بتجهيز البيوت ؟ فهم عبد الرحمن جيدا ان الولد قرر منازلته وحربه .

الوزير على ود جامع سجل صفحة ناصعة وقال مقولة خالدة تعبر عن وفائه لسيده السلطان تيراب ، إذ لاحظ السلطان عبدالرحمن ان وزيره وقبل الدخول لمجلسه في كل صباح يبادر الدخول الى حيث الجثمان المسجى ، فيمضي وقتا طويلا في الدعاء والنحيب ثم يخرج لمجلسه ، فسأله لم يفعل ذلك ؟ فقال له : ان تيراب لم يكن فقط سيدي وسلطاني ، لقد كان صديقي ، وكنت له صاحبا ، ولقد تقدم بي العمر ولن استطيع صنع صداقة جديدة ، ولا التظاهر بحب شخص بينما قلبي مليئ بحبه ، فاذا كانت لك حاجة لوزير يحبك ويكون لك صديقا ؟ فدونك ابني لانه في سنك ، اما انا فدعني استريح مع تيراب ! تفهم السلطان وفاءه فعين ابنه دكومي وزيرا ، فما لبث الوزير علي ود جامع ان مات ، واوصي ان ينقل ليدفن في مقابر طرة حيث سيدفن صاحبه .

سار السلطان عبد الرحمن الرشيد لدارفور ، وترك محمد كرا الذي تم ترقيته لوظيفة ابا شيخ حاكما على كردفان ، وحدثت الحرب كما استنبط السلطان عبد الرحمن من ردود فعل ابن اخيه الخليفة اسحق ، وقد اوردت تفاصيلها في الكتاب الاشمل لتاريخ دارفور ، اما هنا فاذكر واقعة في التاريخ لها اهميتها في التربية الوطنية وبطلها كان الخليفة اسحق . فحينما استشعر تنامي قوة عمه بعد الاشاعات التي اطلقت انه قام بمصادرة ممتلكات القادة والجنود الذين كانوا في معية والده ثم جاءوا مع السلطان عبد الرحمن لمحاربته ؛ وهي الاشاعة التي دفعت هؤلاء الى الانحياز الكامل للسلطان

عبدالرحمن وترك التردد في منح الولاء له ؛ فتحت هذه الظروف العصيبة قام الخليفة اسحاق فارسل لسلطان ودّاي طالبا منهم عونا عسكريا يستقوى به على عمه ، وسرعان ما امده سلطان وداي بجيش كثيف اثار ريبته بوداي التي كانت في نزاعات وتنافس تاريخي مع دارفور ، هنا تجلت وطنيته فقال قولته الخالدة (لا ينبغي ادخال عدونا التاريخي في خلافاتنا الداخلية ولا تمكينه علينا ، فاذا كانت الغلبة في حربنا هذه لعمي ، فهو ابن احمد بكر . واذا كان النصر حليفي فانا ابن تيراب بن احمد بكر) . ثم التفت الى قائد جيش وداي فقال له : لقد قررنا ان يكون الحرب في فصل الخريف ، عودوا الآن الى بلدكم ، فاذا جاء الخريف نرسل لكم لتأتونا ، شكرا لكم . ثم عزم ان يتوجه لدار زغاوة وهم خيلانه ، الا ان قمرية هدلت من فوق الشجرة التي كان يستظلها ، فدفعه هديلها للسؤال ما بالها ؟ فاتت الاجابة من اخته الميرم ام برة التي قالت : ان القمرية في وطنها حرة غير مطاردة ، فاحمت كلماتها نفس اسحق ، وتعبأ للحرب ، وكانت ام برة في زي فارس متنكر بزي الرجال وتقاتل الى جانب اخيها الخليفة اسحق ، تحصد رقاب كل من يقتربهما ، فلما ارادت رفع اكمام قيمصها الرجالي أثناء المعركة ؛ بدت الاسورة في معصمها ، حينها ادرك رجال السلطان عبدالرحمن الرشيد ان من تحصد رقابهم مجرد إمرأة ، فاندفعوا نحوها بعد ان رموا سيوفهم و تركوها لتقتل من تقتل منهم ، ولكنهم في النهاية قبضوا عليها اسيرة .

واطلق زبادي وهو مرتزق من مماليك مصر جاء دارفور واستوطن فيها ، في المعركة النار من بندقيته على الخليفة اسحق فجرحه فانحاز لجذع شجرة حراز عرفت باسم (اوتو فال) وتعني النار الفالحة ربما لأن الطلق الناري حسمت المعركة التي ازهقت ارواحا عديدة في ثاني أكبر مواجهة دموية في تاريخ السلطنة بعد نزاع الاخوين كورو وتونسام . نزف الدم من اسحق وقبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة عفا عنه عمه وحُمل جثمانه لطرة ودفن في قبر خارج اسوار اضرحة السلاطين و قبره معلوم لأهل القرية .

اراد السلطان عبدالرحمن الرشيد معاقبة مناصري الخليفة اسحق بتهمة تزيين العصيان لأبن اخيه ، فاحضر رجلا اشتهر باسم احمد جراب الفيل وفيما بعد باسم احمد ساقان (ساقان اناء فخاري مفلطح يسخن بها الماء) لمجلس المحاسبة بحضور السلطان عبد الرحمن الرشيد نفسه ، كان احمد ساقان في احدى المعارك متنكرا في زي الخليفة اسحق ، ومستظلا بهبابته من ريش النعام ، وكان قائد جيوش السلطان هو

اخاه باسي ريفا الذي ظن ان الجالس امامه هو ابن اخيه العاق ، فاندفع نحوه وتعاركا وقيل انهما اثارا غبارا حجبت قرص الشمس وظهرت النجوم في السماء ضحىً ، وانجلى عراكهما بمصرع الامير ريفا بن السلطان احمد بكر، و كان الناس يظنون ان لاحمد جراب الفيل قوة الجان !

كانت الاعراف تقضي بقتل كل يد تقتل اميرا او فردا من الاسرة الحاكمة ، وحتى زبادي الذي قتل بطلقته النارية اسحق بن تيراب قتل بحكم صادر من السلطان عبد الرحمن الذي كان زبادي يقاتل لمصلحته ، ولم يفت على اسحق الاستفادة من حصانة المنحدرين من الاسرة الحاكمة في المخادعة الحربية ، ففي احدى المعارك تنكر اثنا عشرة فارسا من جيشه على هيئته وسمته وركبوا جيادا متماثلة فكان من المستحيل التفريق بينهم لمعرفة من منهم اسحاق خصوصا وان جيش السلطان كان غائبا عن البلاد لأكثر من عشر سنين ، فحصد هؤلاء الفرسان الرؤوس فانهزم بذلك التدبير جيش السلطان في المعركة .

جلس احمد جراب الفيل امام السلطان متيقنا لمصيره ، ناصبا فخذه الايمن ومرقدا فخذه الايسر ، وكانت هذه مخالفة للجلوس في حضرة السلاطين ومجالس القضاء . استفسر منه السلطان لم يجلس هكذا ، فقال بكل جرأة إن رجلاه يعبران عن احترامين متعارضين ولكنهما متوجبان عليه هو كشخص ، فالمنصوبة تحترم اسحق بن تيراب في عليائه لأنه صاحب فضل لا ينسى ، فهو من علمني فنون القتال ومن جهزني بالعتاد وزوجني وانفق علي ، فلو انه قام الآن من قبره وامرني ان اقاتلك لفعلت دون اي اعتراض او تردد ، اما الرجل الثانية فمخفوضة طاعة لك كولي الامر الذي اوجب الله لعباده طاعتك ، فانا على طاعتك بامر من الله . عفى عنه السلطان بل اصدر عفوا على كل من ناصر اسحق ، وضُرب بمنطقه وقوة حجته الامثال فقالوا (دالي أماد ساقان) اي منطق احمد ساقان .

اختلف السلطان عبدالرحمن الرشيد مع من اعانوه على الوصول للحكم ، فمحمد كرا الذي ترك لادارة كردفان ورغم انه ظل وفيا بارسال الضرائب للسلطان ؛ الا انه رفض استدعاءات السلطان له بالحضور الي الفاشر ، واغتنى غنىً فاحشا وابتنى له مقرا شرقي النيل ليتفادى اي هجوم مباغت من السلطان ، قرر السلطان محاربته فطلب من سلطان الفونج ان يهاجمه في مقره شرقي النيل ، وان يستبيح امواله ففعل

، واستطاع السلطان بدهائه ان يعلم بالتقدير عدد جيشه بان امره بالهجوم على الكواهلة ، وان يبعث له من المغانم بقرة مقابل اي فارس يشترك في الهجوم على الكواهلة ، فارسل جيشا يوافي عدده ضعف الغنائم التي ارسلت له ، ثم تحصل على المال بجمع ضربية السنة التالية مسبقا فاشترى بها خيول الحملة ، واعطى اموالاً لقائد الحملة الوزير احمد دكومي بن علي ود جامع الذي قام بتفريقها على القيادات في معية كرا ، جمع كرا اركان جيشه وعرض عليهم مقاومة امر السلطان بالعودة لدارفور بالقتال ، الا انهم اجابوه (نحن نخدمك باخلاص ، لكن ليس من حقنا محاربة سيدنا ولا حتى عدم طاعة اوامره التي هي مقدسة عندنا) . ادرك كرا انه مخذول فربط القيد بنفسه على يديه ورجليه وسار للقاء السطان في الفاشر ، واستقبله السلطان باستعراض عظيم لقواته ، وعنّف كرا واهانه ونزع منه عمامة الابا شيخ امام الجموع ، وقال له انا اعرف كيف أؤدبك . استرضاه السلطان بعد ما ادرك انه الاقدر على نقل السلطة لابنه محمد الفضل من بعده فعهد اليه ذلك وجعله وصيا عليه حتى بلوغ ابنه محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد .

استقرت الامور في يد السلطان عبدالرحمن الرشيد والتفت الى اعمار دارفو بالتركيز على نشر العلوم ، وتشجيع التجارة مع مصر ، حيث صارت دارفور الشريكة التجارية الكبرى لمصر في افريقيا ، فكانت القافلة المتجهة اليها تضم نحوا من عشرة الف بعير ، و كانت تجارة دارفور تناهز تجارة سنار مع مصر بعشرات الاضعاف . وشكل المماليك تهديدا لهذه التجارة المتنامية ، لذلك بادر السلطان عبدالرحمن الرشيد بارسال خطاب لنابليون بونا برت قائد الجيوش الفرنسية حين احتل مصر يطالبه بتأمين طرق التجارة لدارفور مع مصر ، ويورد نعوم شقير نص خطاب السلطان عبدالرحمن الرشيد لنابليون والرد ايضا .

(بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ،

من سلطان دارفور ، السلطان عبد الرحمن الرشيد الى سلطان الجيوش الفرنساوية

الف سلام ، اما بعد :-

فنعلمكم ان خبر انتصاراتكم على المماليك وصل الينا ، فتلقيناه بغاية السرور ، وقد اخبرنا احد الافرنج الذين اعتنقوا الاسلام بحسن معاملتكم للاجانب ، فارسلنا

خطابنا هذا مع خبير القافلة يوسف الجلابي ، وكلفناه ان يؤكد لكم صدق مودتنا التي نسأل الله دوامها ، ونحن نوصيكم بالخبيرخيرا لتحموه واتباعه وعبيده ، ولكم منا الف تحية وسلام .)

رد عليه نابليون بالخطاب التالي :-

(12 مسيدور من السنة السابعة للجمهورية الفرنساوية سنة 1799 م .

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله

الى السلطان عبدالرحمن الرشيد سلطان دارفور

تناولت كتابكم ، وفهمت فحواه ، واعلموا ان قافلتكم قد وصلت حين كنت متغيبا في بلاد الشام أعاقب اعداءنا وادمرهم ، والآن طلبي اليكم ان ترسلوا إلي مع اول قافلة الفي عبد من العبيد الاشداء المتجاوزون السنة السادسة عشرة من العمر ، اذ مرادي ان ابتاعهم لنفسي ، والامل ان توعزوا الى القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الحثيث ، وها انا امرت من يلزم بحمايتها ووقايتها حيث تكون .

الامضاء ، بونابرت القائد العام للجيش الفرنساوي) .

ثم اردف فيما بعد خطابه بخطاب استعجال آخر .

كان السلطان عبد الرحمن يجالس العلماء والفضلاء ، فاغاظ ذلك بعض ارباب الدولة ودفعهم الى استهجان ذلك حيث قال قائلهم (في المرة القادمة سننصب على العرش سلطانا أميّاً !)

الايا باسي كنانة احست ان رغبة عبدالرحمن صار في استخلاف ابنه محمد الفضل بدلا عن ابنها احمد حبيب ، فبدأت تفكر في تدبير انقلاب على عبدالرحمن الرشيد ، وقضت خطتها ان تسرق السلاح من مخازن قصر عبدالرحمن الرشيد فتسلح بها من تجندهم للوقوف في صف ولدها الذي كان مقيما خارج قصر السلطان محل اقامتها هي ، فاعلنت انها تريد صناعة طعام لولدها من القصر ، وكانت تضع السيوف المطوية في اقداح الطعام والدروع في ريك الكسرة فترسلها لقصر ولدها ، وكررت الولائم مرات ومرات ، ولكنها في احد الايام عنّفت احدى جواريها فنقمت منها ،

واسرت للسلطان ان الايا كوري افضت خزانة السلاح بولائمها التي ما هي الا غطاء لارسال السلاح لولدها . استكتمها السلطان ، ولما اعلنت ايا كوري الوليمة التالية وبدأت اخراج الطعام من قصر السلطان الى دار ولدها احمد ؛ وقف السلطان على الباب وامر ان يفرغ له بعضا من الطعام المرسل لابن اخيه لانه يريد ان يتأكد من انه طعام طيب جيد يليق بالامير ، جاءت كنانة مهرولة وقالت ان في الدار مثل ذلك الطعام اضعافا وانه لا داعي لافراغه لانها ستلبي طلب السلطان فورا مما هو باق في القصر ، اصر السطان على افراغ القدح فانكشفت الخطة . لمُ تر بعد ذلك كنانة في مسرح السياسة في السلطنة .

الوزير احمد دكومي ولد الوزير على جامع ، لم يكن افضل حظا مع سيده الذي قام باستدعائه من كردفان بعد ما خلف ابا شيخ محمد كرا ، صار الوزير دكومي ضحية للتقارب الذي حدث ما بين السلطان ومحمد كرا ، ارسل دكومي بعد قدومه للفاشر الى السجن في جبل مرة ولم يخرج حتى الممات . وترقى محمد كرا لمنصب الززير الأول .

مات السلطان عبد الرحمن الرشيد ، وقام محمد كرا بدهائه الى الحصول على التفويض من الامراء المؤهلين بان يتولوا السلطة بان اوهم كل واحد منهم انه سيختاره سلطانا ، فلما حصل على التفويض اعلن انه اختار الصبي محمد الفضل ليكون سلطانا لأن ذلك كانت رغبة سيده السلطان عبد الرحمن الرشيد . دفع ذلك الاختيار الملك ابراهيم (كنقانقا دونوقو – ملك النحاسات) المعروف بولد رماد ان يبدي ملاحظة من الفراسة الشخصية ؛ انه يري في وجه الصبي دماءً ، وان البلاد تكفيها ما سفكت من الدماء ، ومن اجل ذلك ليس سليما ان يولى سلطاناً دمويا ً ، واردف انه يرى ان كرا سيكون ضحية لاختياره .

حكم كرا بصفته الوصي على العرش ثلاث سنوات كانت الاكثر طغيانا في تاريخ دارفور ، فاذا مر على قوم جلسوا ارضا ونكسوا رؤوسهم وانشغلوا بمسح التراب باكفهم ولكأنهم يكتبون ويمسحون ، مرددين ابا كرا جابر الدار ، اي ابا كرا عامر الدار . وكان السلطان عبد الرحمن الرشيد قد اعطى اوامر مختلفة بخصوص مدة الوصاية ، قال لابا شيخ تسلمه الحكم بعد اربع سنوات ، وقال لابن اخته باسي دلدي دالدنج كويه (الملقب ب دينج سيدنج مانيو ديكو – وتعني جاموس سيده

الاسود) قال له : تعين اخوك ليتسلم حكمه بعد ثلاث سنوات ، وحرر مكتوبا سريا سلمه للايا كوري (أوا سالام — حواء سلام) التي اصبحت الملكة بعد كنانة ، فامرها ان تسلمه لولده محمد الفضل بعد ثلاث سنوات ، وفي الكتاب ؛ امر من الوالد لولده بالقضاء على وصي العرش محمد كرا .

اطلع كرا بطريقته على كتاب السلطان ، وابصر بعينيه الامر بقتله ؛ ورغم ذلك احتفظ بعلمه به ولم يبد شيئاً يريب السلطان الصغير ، الا انه بدا متحوطا ، فلا تمتد يده لطعام الا اذا سبقه اليه ادمي او كلب مخافة ان يقتل بالسم . ومن ناحيته تخلص من اغلب الوزراء بقتلهم ، فكان كرا يدعوهم لمنزله وهناك كان القتل ينتظرهم ، وكان آخر من دعاهم ليلا ملك النحاس (كانقانقا دونقو) ابراهيم ود رماد الذي هرع لسلطانه ناقلا له خبر استدعائه من قبل كرا ، فأمره السلطان الا يذهب اليه وان يتحوط لنفسه .

في السنة الثالثة واثناء ذبح كرامات العرضة تقدم الوصي الاب الشيخ محمد كرا كالعادة لذبح ثور الكرامة نيابة عن السلطان ، الا ان دلدي دالدنج كوي دفعه بكل قوته فسقط امام الثور المرقد للذبح ، ثم قدم السلطان محمد الفضل وطلب منه ان يقوم بذبح ثور الكرامة بالاصالة عن نفسه كسلطان ، وتعالت صيحات الفرحة من الحشود وعرفوا ان سلطانهم قد شب ولم يعد محتاجا للوصي الخصي الذي اهانهم وطغى وتجبر .

و توالت المصائب على محمد كرا الذي اسرف ذلك اليوم في شرب الخمر ليتناسى بذلك مصيبته ، اذ جاء ثملا الى المائدة التي اقامها السلطان لاطعام ضيوفه في يوم العرضة ، كان السلطان يمر على حلقاتهم ، فلما جاء للمجموعة التي كانت بينهم محمد كرا الثمل قال متلعثما للسلطان تفضل معنا ، وكانت الدعوة مخالفة للتقاليد وتنطوي على تحقير لشخص السلطان ، كان السلطان يحمل عصاً من الخيزران فانهال على محمد كرا ضرباً حتى تشققت العصاة ، فانصرف ناقما على السلطان .

في اليوم التالي وقع كرا ضحية لخطة دبرت اصلا لاختبار استمرار طاعته وولائه للسلطان بعد ضربه امام الملأ ، كانت الخطة ان يُرسل دلدي دالدنج كويه لمنع كرا من الشرب في آبار رهد الفاشر ، فاذا كان مستمرا في الطاعة فانه سيشتكي للسلطان

، واذا كان عاصيا قسيبادر بالحرب ، هجم كرا على دلدي دالدنج كويه و مجموعته الصغيرة فقتلهم ، وتحاربوا الى المغيب وكادوا ان يقتحموا القصر ، ولكن الوزير ابراهيم كانقانقا دونقو لجأ للحيلة بعد اجلائه للسلطان لمكان آمن ، حيث أمر الموقاوي ان يستفز الخصي ويحمله الى تأجيل الحرب للصباح . قال الموقاوي حقا ايها الخصي ، انت كالمرأة ، حتى قتالك يشبه قتال النساء ، الرجال يقاتلون ويحققون الانتصارات في وضح النهار ، وتشهد على انتصاراتهم الاطيار التي أوت الآن لوكناتها .

اوقف كرا زحفه نحو القصر بعد ان استفزه الموقاوي بكلماته ، وقال حسناً ، اذن ننتظر ونلتقي غدا ضحىً لنشهد الطيور انتصارنا . وكان باسي طاهر كننج ابا مقاتلا مع كرا بعد ان منّه بان يكون هو السلطان ، لانه يومئذ كان ابن احمد بكر الوحيد القادر على تحمل مسئولية الحكم ، فارسل باسي ابا طاهر عند العشاء رسولا لمحمد كرا طلب منه اعلانه سلطانا حسب وعده ، وامر رسوله ان يتبين اول كلامه في الرد ، قال كرا للرسول اذهب الى الرجل العجوز ، وقل له ان لا يستعجل ، فان كلام الليل لا يستقر ، ثم استدرك فغير لهجته فقال : اذهب الى ابينا وقل له اننا انتهينا من دق الجرن الكبير ، وتبقى الصغير وعندما ننتهي منهما غدا صباحا نسلمه حكمه . عاد الرسول بالردين فقال ابا طاهر والله ان العبد الخصي فتنني مع ابن اخي ، فلما كان الصبح غادر مع اولاده الفاشر لئلا يقاتل مع كرا الذي عرف من رده نواياه .

ابراهيم كانقانقا دونوقو ، امضى ليلته كله في الاستنفار والتحضير للمعركة القادمة ، فطاف على كل مقاتل في الفاشر ممن لم يحضر معركة الرهد ، وحرضه للقتال الى جانب السلطان الشرعي ابن سيدهم السلطان عبد الرحمن الرشيد ، حضر السلطان بنفسه هذه المقابلات ، وكان ممن استفزّهم ليستنفرهم احمد جراب الفيل ، قال له ودرماد : اصحيح ما يقال انك بعت ابن سيدك للخصي ؟ اين كنت البارحة عندما اشرف الخصي ان يستولى على الحكم ؟ قال له احمد جراب الفيل يا ملك ود رماد ألمثلي تقول هذا الكلام وانت تعلم انكم اودعتم سيفي في خزانة السلاح واخذتم جوادي الذي اقاتل عليه ؟ لم انت قلق من الخصي بهذه الطريقة ؟ اعطني حصاني الذي اختاره ، وادفع الي سيفي ، ومدني بابنائك الثلاثين ، ثم مدني باثني عشرة ثورا هذه الساعة وساكفيكم شر الخصي .. احضر الملك ابراهيم ما طلبه احمد جراب الفيل الذي بدأ يختبر الخيول ليختار حصانه الذي سيقاتل على ظهره ، فجلس على

قدميه ، ويحضر اليه الحصان فيمسكه من ناصيته ، ثم يجذبه ، فاذا وقع الحصان من جذبه صرفه ، حتى أُتي له بحصان جذبه فرفعه الحصان وصهل ، قال هذا حصاني الذي ساقاتل عليه ، فقام من ساعته بذبح الثيران ، والبس فرسانه جلودها ثم تمسحوا بالرماد . شهدت تلك الليلة ما عززت في جيش السطان آمال الانتصار ، فقد صوتت النحاسات دون ضارب ظاهر حيث كانوا يعتقدون ان النصر في مثل هذه الحالة اكيد .

و لما اصطفت الفئتان للقتال في الضحى ، برز من بينهم فرسان جراب الفيل كالعفاريت ، فركضوا الى حيث جيش السلطان فهزوا بسيوفهم ، ثم انقلبوا الى جيش محمد كرا فهزوا عليهم بالمثل ، ثم ركضوا مرة ثانية الى جيش السلطان ، فانقلبوا راكضين نحو جيش محمد كرا الذي برز امام جيشه ليرى هذه الشياطين عن قرب ، فكانت المفاجأة ان قفز احمد جراب الفيل من حصانه فاردف نفسه فوق حصان محمد كرا ، فصرعه ارضاً ، واجتز رأسه في لمح البصر بعد ان طوقه فرسانه ، ثم حمل الرأس على سنة رمحه عاليا ، فخرج منصرفا من المعركة مثلما دخل ، فصاح الموقاوي في جيش كرا لقد كنتم تقاتلون خلف خصي ، وليس له وريث وها قد قتل ، ففيم تقاتلون ؟ هجم عليهم جيش السلطان ، وانهزموا شر هزيمة .

امر السلطان محمد الفضل بملاحقة عمه باسي طاهر الذي توجه نحو اقرب حواكيره في دوبو ، وعندما لحقه الفرسان بدأوا يصرخون من خلفه كعاداتهم في المطاردات ، فقال لابنائه اين ابوتولي ؟ لم لا يُسكت مني نعيق الغربان ؟ تأخر ابنه ابوتولي و تدارأ بحصانه خلف شجرة تبلدي ، فلما دنا منه اقرب الملاحقين ضربه بسيفه ضربة قطعهما وحصانه نصفين , ثم اهوى سيفه على شجرة التبلدي بحجة تنظيفه من دم المقتول ، فهوت الشجرة ، وفزع الملاحقون فزعا شديدا فطاروا يسابقون الريح من هول ما شهدوا . فيما بعد استدرج السلطان محمد الفضل عمه طاهر باعلان عفوه ، فلما حضر للفاشر غدر فقام بحبسه وبتعصيب عينيه ، استنكف الامير ان يأكل طعاما لا يراه فياكل معه الذباب ، اضرب عن الطعام حتى مات .

استقرت الاحوال لمحمد الفضل الذي كان ينحو يوما بعد يوم نحو القسوة والاسراف في العطايا ، فقد اخذ رجل واحد مرسل من الوزير احمد ود عدلان آخر وزراء الهمج في سنار ؛ وحده الفا من كل من اصناف العبيد والجمال والابقار والاغنام

. وما كان احد يتمعن في رؤيته او في تقليده فيما يلبس ، وقسى على اخوته فهرب بخاري وابومدين لكردفان فلُوحقا ، وتمكنوا من بخاري ولكن ابومدين نجا ثم التجأ لمصر ، وهناك جهزوه ليكون خلفا لمحمد الفضل بعد احتلال دارفور ، قيل ان ابا مدين طُبّ فاختل عقله ومات فزال خطره ، ولكن في عهد محمد الفضل فقدت دارفور حكم كردفان ، فالمقدوم مسلم اراد الاستقلال بكردفان وعقد حلفا مع اخوة السلطان ، بخاري وابومدين ، لذلك كان محمد الفضل غاضبا عليه فلم ينجده عندما غزا محمد الدفتردار كردفان .

ولم تقف الاطماع التركية بانتزاع كردفان ، اذ حاولوا اخضاع دارفور فكتب محمد علي باشا رسالة لمحمد الفضل يدعوه للخضوع لحكمه وذلك في عام 1245 هجرية الموافق 1830 م ، فرد عليه السلطان محمد الفضل بهذا الكتاب الذي يورد نصه نعوم شقير (الحمد لله الذي حكم بين عباده بالحق قطعا ، سبحانه يجزي كل نفس بما تسعى ، واليه المعاد والرجعى ، وهو حسبي وكفي . . من حضرة من أمّن الله به البلاد ، وجعل ملكه مسموعا من كل احد ، وصيّره في قلوب الاعداء ناراً تستعر ، وجمراً يتوقد ، وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرد ، وضل وتعنّد . وهو شاب صغير السن ؛ ولو صار كهلاً لخضعت له الانس والجن ، وقد اشتهر بالكرم والجود ، وحال بعوارضه انجم السعود ، وان قامت الهيجاء فبنفسه يجود ، ويصل الى الاعداء بقواطع النهود ، وينتصر بعون الله على كل موجود !

هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد اعزه الله ، الى حضرة الكوكب العالي ، والنير المتلألئ ، بهجة الانام وقدوة الليالي ، صاحب العز و الافتخار ، اخينا العزيز محمد علي باشا ، سلمكم الله من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنّه و كرمه .

أما بعد : – فسلام عليكم ورحمته وبركاته لديكم ، قد وصلنا جوابكم ؛ اوصلكم الله الى رضوانه ؛ وفهمنا خطابكم ، ومقتضى جوابكم ، وكل كلمة من المرقوم تستحق جوابها المفهوم . و لكن يكفي من ذلك كله كلام الحي القيوم حيث قال : (وله دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) . . (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا) .

انكم طالبون دولتنا وطاعتنا ، وانقيادنا لكم ، فهل بلغكم اننا كفار وجب لكم قتالنا وابيح لكم ضرب الجزية علينا ؟ او غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية ، فنحن السلاطين وهم الرعية ! أو ورد دليل من الله تجد فيه ملكك ؟ أم ورد حديث من رسوله تجد فيه تمليكك ، ام خطر لك خاطر من عقلك بان لك ربا قويا ولنا رب ضعيف ؟

الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ، ندين بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونؤدي الفرائض ونترك المحرمات ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، والذي لم يصلّ نأمره بالصلاة ، والذي لم يزّك نأخذ منه الزكاة ونضعها في بيت المال ولا ندخرها ، ونرد الامانات الى اهلها ، ونعطي كل ذي حق حقه ، حتى دانت لنا القبائل العظام . ومن اتى دولتنا يرجع مكرما باذن الله تعالى ولواشتدت به الريح في يوم عاصف . الم تر الى قوله صلى الله عليه وسلم (لو بغى جبل على جبل لدك الباغي) ؟.

أما علمت ان دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية ، وخيول جرد ادهمية ، وعليها كهولة وشباب يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشيا ؟ اما علمت ان عندنا العباد الزهاد والاقطاب والاولياء الصالحين ممن ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ؟ ويرجع الملك الى اهله ، ويكفي من بعد ذلك ، والله يكفي شر الظالمين) .

ارسل السلطان محمد الفضل لسلطان وداي يستوهبه فرسته ، فرد عليه اذا ارسلت لي شقيقتك ارسل لك الفرسة ، ابلغ الموقاوي هذا الرد والسلطان في فاشره (مجلسه) ، فبدأ يضرب باصابعه برشام سيفه (مؤخرة السيف التي تبرز خارج المقبض) ، ويطلق يده التي انجرحت اصابعها ، وكلما اطلق يده يرش الحضور بدمه ، وهاب مجالسيه الموقف فصمتوا منتظرين القرار الصعب ، فتكلم قائلا : أفي بلدنا رجل من وداي نرسله ليحكم تلك البلاد ؟ قالوا نعم هناك جزار ولكنه يبدو ان له صلة بالاسرة الحاكمة واسمه محمد شريف يقيم في جديد السيل .

بعث اليه السلطان ، وتبين انه شقيق سلطان وداي وقد هرب لدارفور ضنّا بعينيه ؛ حيث جرت العادة عندهم ان السلطان يقوم بكحل عيون اخوته حتى لا ينافسوه

في الحكم ، وذلك باحماء حديدة ثم تمريرها بالقرب من الوجه فتسبب العمى . أُرسل محمد شريف في جيش كان فيه محمد الحسين بن السلطان محمد الفضل الذي اظهر الحكمة من خلال الاجابات التي اعطاها لجواسيس وداي الذين سعوا لتحديد من هو الامير محمد حسين بين جيوش دارفور ليستهدفوه ؟ كانت الاسئلة هي : - ما اجمل البلاد ؟ و ما اشهى طعام ؟ وما اجمل امرأة ؟ و ما اذكى رائحة ؟ و ما اشرف كساء ؟ ومن دون اجابات الناس كانت اجابات محمد الحسين ان اجمل البلاد هي وطن المرء ، وان اشهى طعام ما طعمه الانسان وهوجائع ولا يجد غيره ، وان اجمل امرأة هي التي تحبك وتحبها ، وان اذكى رائحة هي الدعاش (النسيم الذي يهب من حيث تنزل اول الامطار في البلدة المجاورة) ، واما اشرف كساء فهو الذي يكتسيه الانسان و هو متأكد انه من خالص قدرته ؛ كأن يبذر القطنة فيحلجها ، ثم يغزلها ، ثم ينسجها ثوبا دمورا ، ثم يخيطه فيلبسه فذلك اشرف كساء . أُسر سلطان ودّاي في تلك المعركة ، واقتيد الى الفاشر ، قام قائد جيش الفور بقتل بطلهم كمنج كمنج العملاق فانهزموا ، وتولى محمد شريف حكم وداي ، وظل وفيا لسلاطين دارفور . كان يبتدر رسائله للسلطان محمد الفض بمخاطبته أبي السلطان .

تولى الحكم بعد السلطان محمد الفضل ابنه السلطان محمد الحسين الذي لم يكن اكبر الابناء ولكنه كان احلمهم ، وكان زاهدا من ريع الدولة فيخيط الطواقي ويأكل من كسبها ، ولذا عده البعض من المقترين البخلاء ، وعلق الوزير عبدالباري على اختياره موجها الحديث للوزير احمد طربوش : ايها العبد ؛ اما كان يكفى ان تنصب سلطانا واحدا بدلا عن خمس سلاطين ؟ كان يقصد ان السلطان المعين سيكون ضعيفا تحت تاثير اخويه (ابونا ابكر ، وباسي نورين والد السيدة مقبولة ام الامام عبدالرحمن المهدي ، وتاثير امه واخته الميرم زمزم) .

كان صعبا الاعلان عن قرار تنصيبه سلطانا خوفا من ابونا ابكر الذي ما كان يفارق سيفه ولا يلتفت مطلقا للوراء ليتحدث مع اي شخص خلفه ، فكان متحدثوه يجرون ليأتوه من الامام . اتفقوا ان تكون امهم هي التي تبلغه بامر تعيين محمد الحسين سلطانا ، و اجلوسها لدى بوابة القصر ، ثم ضربوا النحاس معلنين وفاة السلطان محمد الفضل و تنصيب سلطان خلف ، اندفع ابونا ابكر نحو القصر حاملا سيفه كالعادة ، فتلقته امه عند الباب . قالت له : انت السلطان الفعلي واخوك الاصغر

هو السلطان المعلن للناس ، امتصت بعض غضبه ثم ذهب الى حيث يجلس السلطان فوجد اخاه جالسا هناك على كرسي جده احمد بكر وفي زيه ايضا ، فتهيب المشهد ولكنه سأل يا محمد حسين ! لم انت هناك ؟ اجابه انا هنا لامسك لك الامر ولاكون درقة لك امام الناس فانت السلطان الفعلي ولكنني اظهر للناس بدلاً عنك . قال له اذن اجلس .

كان محمد الحسين كثير الصلاة والصيام ، محبا للصالحين كجده عبدالرحمن الرشيد ، وابلى بصلاته تسع وتسعون فروة دفنت معه ، وكانت اخته الميرم زمزم نافذة الرأي في السلطنة وهي التي بنت مسجدا في دوبو ما زالت معالمه باقية ، وابلغت بخبر وفاة شقيقها السلطان محمد الحسين عندما كانت في طواف لقرى السلطنة ، سقطتت من حصانها على الفور ولحقت به من فرط تأثرها بالخبر .

تولى الحكم بعده ابنه ابراهيم قرض المعروف ايضا بابراهيم كيوكو ، ولم يكن هذا التنصيب ليرضى اعمامه حسب الله ونورين وسيف الدين ابناء السلطان محمد الفضل ، ورغم ذلك صحبوه عندما خرج من الفاشر لملاقاة الزبير باشا الذي دخل حدود دارفور قاصدا الفاشر قبل اقل من سنة من توليه الحكم ، استشهد ابراهيم قرض في منواشي واستطاع عمه حسب الله ان يسحب الجيش لتبدأ دارفور مرحلة جديدة من التاريخ ما بين عامي 1874 م الى 1898 م ، وقاوموا فيها اولا التركية من نهاية العام 1874 م الى نوفمبرعام 1883 م حين استسلم سلاطين باشا للمهدية عقب سماعه خبر ابادة المهدي لحملة هكس باشا في شيكان جنوب الابيض (7) ، ثم قاوموا المهدية منذ بدايتها في دارفور عام 1883 م الى العام 1898 م الذي استطاع فيه السلطان على دينار استعادة الدولة .

وخلال هذه الفترة من 1874 الى 1890 م تولى مقاومة الحكم الاجنبي ثمانية من السلاطين استشهدوا جميعا ما عدا اثنان منهم هما حسب الله بن السلطان محمد الفضل الذي خثدع بمعاهدته للاتراك فهجّر للقاهرة فبقي هناك حتى الممات ، والثاني هو عبدالله دود بنجيه بن ابونا ابكر بن محمد الفضل ، الذي آمن بالمهدية قناعة و رمى راية الجهاد ولحق بالمهدي بابي سعد ، فبايعه وزوجه بنت عمه الميرم مريم مقبولة بنت نورين بن السلطان محمد الفضل ، وهي والدة الامام عبدالرحمن المهدي . ثم انصرف هو للجهاد في جبهة الشرق .

وممن قاوموا سلاطين باشا بشراسة السلطان هارون الذي برع في حرب العصابات ويقال انه كان اصغر الامراء المأسورين في منواشي ، وانه كان يعض اصابعه وهو في القيد ، وان الزبير باشا سأله عن سبب حسرته ، فاخبره انه تمنى لو كان طليقا ليريه القتال ! أمر بفك قيده واطلاقه ليفعل ما يريد ، فدوخهم باساليبه القتالية عندما تولى راية المقاومة من ابيه وعمه اللذين قادا المقاومة معا من دون اظهار لمن الاقدمية واستشهدا سويا ، غدر به سلطان القمر فقتل .

واستطاع يوسف ابراهيم قرض استعادة الحكم حينما جعله الخليفة واليا معترفا به على دارفور للحد من الاضطرابات التي كانت سيدة المشهد لعقد كامل ، فاعاد تنظيم البلاد على الوظائف التاريخية القديمة وتسمى بالسلطان فخافه الانصار فارسل الخليفة عثمان جانو لاخماد ثورته فقتله وبعث برأسه للخليفة في ام درمان ، وقال عثمان جانو في اول لقائه باهل الفاشر كلماته المذعورة ؛ انه يعمر الآخرة بخراب الدنيا ، وان ام اهل دارفور تزوجت بالجان ، وان من اراد الخلاص فعليه فداء نفسه بماله وعياله ، ومن اراد السترة منه فعليه ان يحوط الشمس غرب ، فحدثت اول هجرة ونزوح في تاريخ دارفور لودّاي في عهده ، وحدثت مجاعة سنة ستة المعروفة عند اهل دارفور بكارو فتة وتعني العظام البيضاء ، لان افنية قرى دارفور امتلأت بعظام الذين توفوا بالمجاعة ، فالاموات لم يجدوا من يواريهم ، وكان يقوم بالتهجير القسري للمواطنين لام درمان بان يوثق رباط شخصين بالخلاف بحيث يعطي كل واحد منهما ظهره للآخر فيتناوبان في قيادة نفسيهما بهذه الطريقة من دارفور الى ام درمان تحت سياط من يسوقونهم ! كان اكثر المهجرين يموتون في الطريق لام درمان . و اصيب جنده عندما كان يلاحق الهاربين من بطشه بالحمى النزفية ، وهلك جانو نفسه بها ونقل جثمانه ودفن في الفاشر . كان يستهزئ بما سمع ان الفارين من بطشه يقرأون سورة يس ليخلصهم الله من شره ، قيل ان الخائفين منه رقوا ثورا بالمهلكات ، فلما قتل جند جانو الثور الذي اطلق في طريقهم وطعموه ؛ اصابتهم الوباء فكان هلاكهم بها .

تولى راية مقاومة المهدية بعد يوسف ابراهيم شقيقه ابوالخيرات ، ولعبت امهما دورا في مقاومتهما ، اذ وضعت كل املاكها تحت تصرفهما للوفاء بتكاليف الجهاد . وكاد ابو الخيرات ان يستعيد الفاشر عندما حظيت الثورة في عهده الى مذكي ديني تمثل في دعوة الفكي ابو جميزة الدينية ، وقد اوقع بجيش المهدية في دونانج تاورا (

مرتع التياتل) ما بين مايلو وجراب في كمين محكم ما بين جبلي ديبو و آوريه ، وكان حسن ادم احد احفاد السلطان هارون ومن كيرا شوبا قد وقف على تفاصيل خيانة عمد كل من شوبا وجراب ومايو و تآمرهم مع المهدية لشن هجوم مباغت لجبل مرة لقتل ابي الخيرات ، فقام حسن ادم وهو صبي صغير بنقل تفاصيل خطة الخونة للسلطان ابو الخيرات الذي عمل الكمين المحكم ، وبقي حسن ادم بعد ذلك مع السلطان .

توفي ابو جميزة قبل مهاجمتهما للفاشر فاندحر ابو الخيرات ولاذ لدارسلا بعد ان تنكر وتمرد عليه المساليت ، ولكن سلطان دارسلا خاف على حكمه فطلب منه العودة الى بلاده ، فعاد واستقر بداركولي ، فقتله عبيده ونصبوا علي دينار قائدا لمقاومة اهل دارفور وسلطانا خلفا لابي الخيرات ، ولعب حسن ادم دورا في نقل السلطة لعلي دينار ، وكان ذلك في منتصف عام 1891 م ، وكان ضمن مرافقيه في رحلة ام درمان ورحلة العودة لدارفور بعد كرري .

الهوامش

1 — ر . س . اوفاهي . الدولة والمجتمع ، ترجمة ، ص 25

2 — نعوم شقير ، تاريخ وجغرافية السودان ، ملحق في التونسي ، تشحيذ آلاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، ص 368 — 360

3 — امين محمود ، سلطنة الفور الاسلامية ، مصدر سابق ، ص 27

4 — المصدر السابق ص 113

5 — نفس المصدر ص 39 — 40

6 — جوستاف ناختيقال ، رحلتي لدارفور ، ترجمة ، ص 232

7 — الن ثيوبولد ، علي دينار آحر سلاطين دارفور ، ترجمة فؤاد عكود ، العالمية للطباعة والنشر ، السودان 2005 م ، ص 20

الفصل الثالث

نشأة السلطان علي دينار وتوليه قيادة المقاومة

نسب السلطان علي دينار

هو علي دينار بن الامير زكريا بن السلطان محمد الفضل بن السلطان عبدالرحمن الرشيد بن السلطان احمد بكر بن السلطان موسى بن السلطان سليمان سولونج بن السلطان سابل كورو . . ويتصل نسبه بالسطان شاو دورشيد من جهة جدته كيرا بنت شاو دورشيد حسب الاسطورة السائدة في الانساب . وكان زكريا من اصغر ابناء السلطان محمد الفضل وعرف بتدينه الشديد ومات من صاعقة أصابته (1) .

ونلاحظ الاسم المركب في سلاطين الفور وعند غالب اهل طرة وهي البقعة التي احتضنت قيام السلطنة في نسختها الاسلامية ، ويرجح ان تكون مرد اضافة دينار لاسمه تيمنا بعلماء السلف الذين لقبوا بدينار امثال مالك بن دينار ، او تيمناً بقيمة الدينار كعملة في الحضارة الاسلامية ، ولا يمكن قبول التفسير الذي يقول ان اللقب هو (علي دا نار) من شدة تهيجه واشتعال غضبه ، او التفسير الذي يمزج مسمىً عربياً بمسمى فوراوي فيقولون ان المعنى هو (علي دي نار وتعني علي الذي رماده نار — دي في لغة الفور تعني الرماد) ، فكل هذه المذاهب في التفسير ما هي الا غلو وشطط لا تصمد امام حقيقة ان الاسماء غالبا ما تُقتبس من اسماء المشاهير .

اما والدته فهي الميرم كلثومة المعروفة باسم (كلتومو نونو) ابنة الامير علي كرمي بن الامير يحيى بن السلطان احمد بكر بن السلطان موسى ... (2) . ويقول عنها الاستاذ زكريا انها كانت ثرية وكريمة قوية وذات رأي في مجتمعها المحلي كعادة المرأة في مجتمع الفور ، وانها توفيت بلدغة ثعبان سام عندما كانت تسير ما بين كيلا والملم بتبلدية ابوسلتيك ، فنقلت لقرية ابوجلدي شرق الملم للعلاج فماتت بها ، وان الذي صلى على جنازتها هو الفكي اسحق بابا عبد الصادق ، وكان علي ديار وقتئذ في

المقاومة والجهاد ، وعندما صار سلطانا ابتنى ضريحا لامه وجعل عليها الحراسة وبنى مسجدا وقصرا في شاواية ، واحتفر بئرا في الملم تسمى ام كلنا ، وتقول الرويات المحلية ان حفر بئر ام كلنا تزامن مع حفر آبار علي في ميقات اهل المدينة عند الحج .

ومن المعالم التاريخية في منطقة كيلا الجبل المسمى فوقو اري ، ومعناه جبل السلطان، وكان مقرا لباسي يحيى بن السلطان احمد بكر الذي ارسل لحماية المنفذ الجنوبي الشرقي لجبل مرة واستقر ابناءه في هذه المنطقة ، وفي جبل افارا شرق الملم على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات ؛ يقال ان هناك نفقا يربط هذا الجبل بجبال دوبو اسفل شرق جبل مرة ، ويطلق على النفق اسم دولو موريه ، ومعناه الحفرة العبقة ، او الحفرة الطيبة الرائحة مع ان رائحتها المنبعثة كريهة ، ولقد درجت التقاليد على تسمية الاشياء المرهوبة بالاسماء المحبوبة اعتقادا بان تسميتها بالاسماء الواصفة لسوئها ستسبب في اغضابها ، ومن ثم انتقامها من الذين يسمونها بالاسم القبيح ! فالجدري مثلا يسمى أبو اي الحبوبة ، وذلك خوفا من اصاباتها عند الاغضاب ، ومن الطرائف انهم كانوا حين يسمعون بوبائها في بلدة مجاورة فان الحبوبات كن تسرعن بجلبها لقراهن ، بالقيام بتقريح مرضى الجدري بشوك شجرة الهشاب ثم القيام بتقريح اطفالهن بذات الشوكة ، وعلى الرغم من اعطائهن تفسيرات بان الاطفال انما يسلمون لأن الحبوبات قمن باداء ما يتوجب من الاحترام للمرض بدعوته للقرية فيأتي زائرا لا مقتحما ؛ فان التفسير العلمي لعدم الاصابة بعد التقريح هو انهن انما قمن بالتطعيم ضد المرض الخطير بطريقة علمية ، مما يعطينا اشارة واضحة بتقدم الطب في مجتمع الفور وسبقه بالاكتشافات العلمية تحت غطاء التقاليد لا تحت التفسيرات العلمية .

مولده ونشأته

هناك اختلاف حول مكان ميلاد السلطان علي دينار ، البروفسور فيفيان ذكرت انه ولد في الفاشر ، ولكن غالب المؤرخين ذهبوا بانه ولد في شاواية بالقرب من الملم ، و الراجح انه ولد في شاواية التي يقول الاستاذ زكريا آدم علي انها كانت تسمى بزونقا كورو ، وتعني بلغة الفور ديك فوق شجرة ، ولكن بعد قيام السلطان علي دينار بزراعة شجرة الاراك التي تعرف بالشاوة في موضع دفن سرته - فصارت الشجرة معلما في المنطقة لانها كانت شجرة غريبة بين الاشجار - انقلبت تسمية المنطقة من زونقا كورو الى الشاواية . وتغليب هذا الرأي مبني على التقاليد التي تجعل موطن

الشخص هو مكان دفن سرته ، فيكون السلطان نفسه قد حسم موضوع اين ولد ؟ بزراعته لشجرة الشاوة اي الاراك الذي يستاك بها في موضع دفن سرته

اما تاريخ ميلاده فكان في اواخر حكم عمه السلطان محمد الحسين بن محمد الفضل وفي الارجح العام 1867 م ، وتيتم بوفاة والده المبكر اذ لم يكن له اخ شقيق الا اخته الميرم تاجة ، وتزوجت امه من بعد وفاة والده بابن خالتها الفقيه مكي جبريل من قبيلة بني منصور بجهة الوالد ، اما والدة جبريل نفسه فكانت من الميارم اي من بنات سلاطين الفور واسمها الميرم ام بشائر . و تفسر البيئة التي تربى فيها السلطان علي دينار جوانبا في حياته المختلفة ، فغزارة المعرفة الدينية ، والفقه العميق ، والحفظ المبكر للقرآن الكريم ، وطلاقة التعبير بالعربية – في سني الاضطراب وعدم الاستقرار – ، وتوفر القوة والارادة نحو الاسلام التطبيقي في الدولة من حرصه وفقهه ، فكل هذه دلالات على البصمات القوية التي تركها الفكي مكي جبريل الذي تولى تربية السلطان علي دينار بعد وفاة والده الأمير زكريا الذي كان هو نفسه حافظا لكتاب الله .

فاذا كان مولد السلطان علي دينار في العام 1867 م ؛ فبعد سبع سنوات فقط من مولده دخلت دارفور في سني رعب و فوضى ربما لم تشهدها الا في السنين الغابرة حينما دفعت الحروب الانسان الى بناء الملاجئ باحتفار الجبال ، والى اخفاء حركته من ظاهر الارض الى باطنها عبر الانفاق التي بنيت خصيصا للايفاء بالمتطلبات الامنية الماسة في تلك العصور .

مات الآلاف في مقاومة التركية وتعرضت الاسرة الحاكمة الى التقتيل والتهجير للقاهرة ، فالحقيقة هي أن محمد علي باشا الألباني الاصل الذي حكم مصر باسم الخلافة الاسلامية في تركيا ؛ كان بعيدا عن تطبيق القيم الاسلامية في حكمه ، لقد كان مفتونا بالحداثة الغربية ، وكان ناويا الانقلاب على دولة الخلافة في تركيا وتكوين مجده الشخصي ، فاستعان لحكم السودان بالنصارى واليهود فأعطى أسوأ مثال للحكم الاستبدادي القهري الذي لا علاقة له بدولة الخلافة الاسلامية في تركيا ، وفهم السودانيون وخاصة أهل دارفور أن حكمه هو حكم الكفار ، وكانوا محقين لأنه لم يستخدم في إدارته لدارفور خلاف اليهود والنصارى ، ولذلك جرى اطلاق اسم الترك ايضا على الانجليز حينما قدموا لاستعمار دارفور في 1916 م حتى قيل ان

الترك جاءوا سيلي ، فهذا الخلط تم لأن محمد على باشا استخدم النصارى واليهود في حكم السودان ودارفور وفهّم الناس ان حكمه حكم تركي .

ثم دخلت المهدية فكانت اشد فتكا بالانسان واعظم دورا في تخريب الدار باهلاك الحرث والنسل والاخراج منها بدعوى التهجير لام درمان ! استبيحت الانفس والاموال والاعراض ، واسترق مسلمون في تلك السنوات التي امتدت من نهاية العام 1874 م الى العام 1898 م وهو العام الذي استعاد فيها علي دينار الدولة فاعاد النظام . ولئن لم يتم توثيق اهوال هذه الفترة من تاريخ دارفور بالكتابة فان قصصها المروعة تُحكى وهي محفوظة ومحفورة في ذاكرة اعقاب ضحايا تلك الاهوال .

السلطان يكتب عن ايامه الأولى

ساحاول هنا اعادة كتابة الوثيقة التي كتبها السلطان علي دينار بخط يده شارحا فيها قصصاً من ايامه الاولى والملحقة اصلا في كتابنا سلطنة الفور الاسلامية — دراسة تحليلية — لأن الوثيقة مكتوبة بخط غير شائع في زماننا ، ويصعب على القراء قراءتها ، وساواجَهَ بعدم وضوح بعض الكلمات لأنني لا اجد اصل الوثيقة فالصورة باهتة وبعض الكلمات تكاد لا تقرأ ، كما ساعيد كتابة بعض الكلمات بالرسم الشائع اليوم للقراء في السودان .

يقول السلطان علي دينار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبياً بعده ، فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على النبي محمد عبده ورسوله : –

اولا يا معشر المسلمين اني اذكر لكم امري الذي شاهدته بنفسي وشفته بعيني لما صار خراب دارفور ، دقشنا الاشجار (   ) بها الاوعار والجبال ، بقينا متحيرين في انفسنا ، لا يسأل كبيرنا عن صغيرنا ولا يسأل صغيرنا عن كبيرنا ، وعدمنا الطعام واللباس حتى صار سلطاننا بمنزلة واحد نفر من الانفار بقدرة الله العزيز الجبار . لأن الملك ملكه و العظمة عظمته ولا يشغله شأن عن شأن ، اذا اراد شيئاً قال له كن فكان . انقضى الامر (----) امره نفد بما يختار ويشاء ، قد ابدي واذكر لكم تفصيلا فذا من قدرة الله الذي جرى ليوسف من قبلنا وكل اسبابه من ارتكاب

المعاصي والفواحش وعدم اعطاء كل ذي حق حقه ، وانصاف المظلوم من الظالم حتى قضى الله امرا كان مفعولا .

سلط الله علينا واحدا اسمه جانو حتى خرب مدينتنا حتى لحقنا هذه المسيخات والاوعار ، قضى الله امرا كان في يوسف ، مات وتولى اخوه ابو الخيرات ، فما زلنا في تلك المسائل والمسايخ والاشجار والاوعار حتى صار احدنا لا يملك دجاجة ، ثم مكروا عليه عبيده وخدامه ، فتركوه مقتولا مجندلا في الارض ثم بعد ذلك ربطوا شورتهم على توليتي انا العبد الضعيف ، فاذكر لكم ذنوبي الذي فعلتها في الدنيا بعد ما طلبوني هذه الملوك قالوا لي (نحن كرهنا ابوالخيرات وقصدنا نجعلوك انت سلطانا علينا) قلت لهم انا ليس لي طاقة بهذه المسائل ، بل اني انا مقطوع وصغير ومسكين ولا لي ابن ام ولا لي ابن اب ، ولا تصلح المملكة الا بالاخ ، ولا املك من المال شيئاً لا غنماية ولا شيئ أضيّف الضيف .

وبعد فراغي من هذا الكلام قالوا (تا الله اما ان تكون معنا في هذه المسألة واما نقتلوك والحجاب واقفون بالسلاح عليّ احتياطا وقولهم لي خشية من ان تعلم (يعل) ابو الخيرات يقتلنا (فيقتلنا) ، فلما رأيتهم صمموا عليّ بهذا الكلام قلت مداراة المؤمن على نفسه حسنة لأجل ان يقتلوني نكون معهم فاتبعتهم في رأيهم حتى قضى الله امرا كان مفعولا ، توليت بحكمهم بما حكم الله ، ولما نفذ الله امره ازلني لحكمة يعلمها هو ولا يعلمها غيره ، فاجتمعت اهل البلد وقالوا لي (توجه الى المهدية ، افدي دمك بدمنا) قلت لهم (خير بجاه النبي) فقمت متوكلا على ربي وطلبت راحلتي وركبت عليها وتوجهت الى الفاشر ، فوجدت فيه عبدالقادر دليل وابو جود فات البرتاوي ، ومحمد فضل الفوجاوي ومع كون عبد القادر دليل ابوه عبدا لعمتنا ايا باسي زمزم بنت السلطان محمد الفضل بعد زلني الله من كرسي مملكتي بقيت معهم عبدا حقيرا ذليلا ، فمكروا علي هم الجميع ، عبد القادر و ابوا و محمد فضل وطلبوا القاضي امامهم واتفقوا الجميع بمجلس وقالوا ما تفعلوا في هذا الرجل المتكبر المتجبر المتمرد الزاعم انه سلطان (؟) وقال لهم القاضي ما علينا به غرض حتى تخابروا به ، ان هذا الرجل حضر بنفسه في دين المهدية فتخبروا به محمود والشئ يعلمكم به افعلوه ، قال عبد القادر (ورب المهدي هذا الرجل ما تدركوا امره الا يتور لكم فتنة ، وقبل ما تكون ليلة سلطوا علينا واحد اسمه حمزة برتاوي يحضر عندنا بصفة جاسوس

وانا لا ادري ، فعند ذلك راودني ان احضر له الخمر ، وقلت له ان هذا الشيئ ممنوع عندكم ، و قال لي انا صحبتي منك وخاطري معك لا يتم الا ان تحضر لي الخمرة ، انا اشربها بالدس وكتر عليّ المراودة ، فقلت له هذا الشيئ انا لا افعله ابدا وعندكم ممنوع ولعل الخمر يزبطوه من عيالي وقال لي ابدا لا ينكشف لي غطا ابدا . فما زال يراودني بانواع المحبة منه ولا ادري انه مكر حتى احضرت له ، فشرب منها وقال آمر اولادك يوصلوها لي الى محلي واخذوها له وبعد رجوع الاولاد منه اخذ الخمر ووصلها قدام عبد القادر وكلمه ، فعند ذلك عبد القادر جمع قومه العربان كالمسرية وغيرهم واتفقوا ان هذا الرجل بهذه الصفة يعصي علينا البلاد ، فاستقر امرهم على ان يسجنوني او يقتلوني ، ولما اصبح الصباح اجتمعوا هم الاربعة ؛ عبد القادر دليل و ابو ومحمد فضل والقاضي وطلبوني عندهم ، واول ما دخلت الباب وجدت الحجاب من العربان الارامل واقفين زيادة من مائة وسبعين نفر بسلاحهم ، اول ما جئت عندهم قالوا لي انت محبوس خالفت امر المهدية ، قلت ما اسباب هذه الخلاف ، وقالوا لي انت جئت بحيلة تشرب الخمر وتعصي البلد ، فقلت لهم منذ خلقني ربي ما شربت الخمر ، فما نشعر الا قام منهم واحد احضر السخان الذي كان اخذه حمزة وقال هذه خمرتك التي شربتها ، فتلجلج امري واظلمت الدنيا في وجهي وتسدد بصري واحترت في امري ، فعند ذلك امروا بسجني واجتمعوا علي واوثقوني كتافا ، فو الله لو كنت اعلم انهم يفعلوا بي كذلك ولو انهم ثلاثة آلاف نفر لكنت حاربتهم بنفسي ولا ابالي ، ربنا قضى الله امره وسد البصر فنفد امره ، ارسلوني لمحل السجن وقعدت فيه ثلاثون يوما فاتى الله علي بالفرج من محمود ففكني من السجن واما نسواني ومالي وعيالي ادخلوهم بيت المال بطرف محمد فضل ، ومن نسائي منهم من باعوها ومنهم استسروها ومنهم من دفعوها وسفروني ام درمان بقيت عبدا مملوكا لا اعرف لنفسي نفعا ولا ضرا الا عبدا تابع و مملوك ، فعلمت ان الملك ملكه و العظمة لله بعد ما شفت هذه المسائل و نظرت مشرقا ومغربا فما وجدت فرجا ، رضيت بحكمه ظاهرا وباطنا وفوضت امري الى الله ورسوله بعد ما انزل الله ربي الفرج وبقي علي الخير ، فاتكالي على الله ورسوله فانه بعد ما اماتني احياني واليه النشور ، ثم سلط الله عليهم الدولة الانكليزية وشتت الله شمل الخليفة وقومه ، وفرق الله جمعهم واذاقهم من الذل و النكال اضعاف ما اذاقوني ، واعطى الله كل ذي حق حقه ، بعد ما كنت مظلوما نصرني الله واعادني الى مواطن جدودي و آبائي بلطفه الخفي الذي لا يعلم به احدا

الا هو عظيم القدرة ، فوجدنا دارفور فيافي وقفر وبقوا اهلها يأتون اليها من كل فج عميق يخرجون من الاحجار والاشجار ، ويأتون نفخة الصور بعد ما اماتنا احيانا واليه النشور ، حتى يحنا الله بلطفه بعد الجوع والبشتنة والتعب كسانا الله بلباس فاخر جميلا ، وطابت قلوبنا بعد ان انقذنا من الظلمات الى النور وعافانا الله من فضله بعد ان انقذنا من الظلمات الى النور ، وعافانا الله من فضله بعد ظلمنا ، ومع ذلك بقول انا الظالم لنفسي بارتكاب المعاصي حتى اذاقني الله جزاء ما فعلته فنذكر لكم الامور التي جرت علينا في سابق الازل ، تعدّينا حدود الله ، وقد ظلمنا انفسنا بارتكاب المعاصي والفواحش ولا ننصف المظلوم من الظالم ، ولا نمتثل لأمر الله ، بل تابعين اهواء النفس ، والعجب والكبر ، وتسفهنا بأمر الباطل بملك الدنيا الباطل لان نعيمها فاني وزائل حتى غضب الله علينا بعدم سماع اوامره ، ولذلك اذاقنا هذه الاتعاب ، وان ربك من بعدها لغفور رحيم غفار لمن تاب ، ما عزيز على الله ان يعطي ملكه لمن يشاء ومن تكبر وتجبروتمرد ما قاسي عليه ان يذله ويختار فيه بما يشاء ، الا من تاب وءامن بالله ورسوله وعمل عملا صالحا ، هذا كله بلطفه الخفي الذي لا يعلم به الا هو ، هذا الامر جرى عليّ في الدنيا وانا رضيت بحكمه ، وقد جرى مثل ذلك لكثير من قبلي من الانبياء والاولياء والسلاطين ، وكثير من عباده الصالحين ، والحمد لله بنعمته نحمده ونثني عليه ، هذا الامر الذي جرى رأيته في حياتي وفي مماتي ، نستخير الله ورسوله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليعمل عملا صالحا ولا يشرك يعبادة ربه احدا ، فيا مسلمين لا تقولوا اني كتبت هذه المسائل استهزاء ؛ بل تحدثنا بالنعم واظهار الشكر بنعمة سيدي عليّ ، من منن الله وكرمه ولطفه ، محى ذنوبي بعد عيوبي وعزني واكرمني واني بشر ، والسلطان هو الله مالك الملك ، وسماني باسم لا استحقه ، سماني سلطانا هذا فضل الله عليّ ، بعد التعب والعري والبشتنات والفقر والجوع ما سمعت باحد ربنا اكرمه اكثر من اكرامي ، لا سمعت في كتب ولا في الملوك من قبلي ، والحمد لله سعيت الزراف وولدت ، وسعيت الغزلان والنعام وولدت عندي القرودة ، ومن فضل الله استكمال الامور وكوني نداوي المجنون بركوتي ، ونداوي كل مرض في الدنيا الا مرض الموت ، وقال الله تعالى (واما بنعمة ربك فحدث) ، وهذا كله من تمسكي و اعتقادي بالله ورسوله وخلفائه ؛ سيدي ابوبكر الصديق رضي الله عنه ، وسيدي عمر الفاروق رضي الله عنه ، وسيدي عثمان رضي الله عنه ، وسيدي علي الكرار رضي الله عنه ، زوج البتول السيف المسلول ، وسيدي الحسن ثم الحسين

، وسيدي حمزة والعباس رضي الله عنهم والصحابة رضوان الله عليهم اجمعين ، وعزة مولاي وجلاله ونبيه ما عندي سواهم و (   ) الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

في هذه الوثيقة وصف السلطان علي دينار الاوضاع في دارفور خاصة ايام الحكم المطلق لعثمان جانو وما حدث من تخريب لعمران البلاد بدعوى اعمار الآخرة . ووصف حادثة مقتل سلفه السلطان ابو الخيرات ورفض تهمة انه سعى لازالته بدافع طموحه او بدافع غضبه على تعنيف ابو الخيرات له واستنكاره الشديد لما قام به علي دينار من غارة على قرى للفور في الحدود مع دارسلا حينما قال له ابو الخيرات (لقد هجمت وسلبت وقتلت اهلك) (3) ، فهو هنا يؤكد على الاقل انه تحاشى اخطار السلطان ابو الخيرات بما نوى له عبيده لأنه كان اضعف من ان يمنعهم فعل ما دبروه ، وانه خاف على نفسه منهم ومن السلطان ايضا .

لقد كان علي دينار احق الناس بعرش آبائه من حيث الترتيب في الانتساب الى السلطان محمد الفضل منذ ان القى السلطان عبد الله دود بنجيه راية الجهاد والتحق عن قناعة بالحركة المهدية ، فقد كان علي دينار عماً لابناء السلطان ابراهيم قرض ؛ يوسف ابراهيم وابو الخيرات ؛ الذان خلفا دود بنجيه ، وذكرت فيفيان ان الفور اصلا نادوا به سلطانا قبل تولية يوسف ابراهيم الا انه رفض عرضهم لصغر سنه ، ثم اعادوا الطلب بعد مقتل يوسف ابراهيم الا انه رفض للمرة الثانية لصغر سنه ، و عندما اغتيل ابو الخيرات لم يكن من هو احق منه لتولي السلطة كونه الحفيد المباشر للسلطان محمد الفضل (4) وكان قد تجاوز يومئذ العشرين من العمر ، ولذلك قبل او أُجبر ان يكون سلطانا لزوال اسباب رفضه الاول وهي صغر سنه .

ثم ان في الوثيقة فقرة مهمة تشرح روح التضحية والفداء لدى السلطان علي دينار ، وهي خلة لم تفارقه منذ ان تولى قيادة المقاومة الى ان استشهد ، تمعّنوا في قوله (فاجتمعت اهل البلد و قالوا لي توجه الى المهدية وافدي دمك بدمنا ، قلت لهم خير بجاه النبي ، فقمت متوكلا على ربي وطلبت راحلتي وركبت عليها وتوجهت الى الفاشر) .

تحرك السلطان علي دينار من كولمي الى كيبي غرب جبل مرة (نيرتتي حاليا)

، ومن هناك كاتب عامل المهدية محمود ود احمد مبديا له الرغبة في حقن الدماء المسلمة التي اريقت في دارفور ، فبذل له محمود ود احمد عهد الامان و طلب منه ان يوافيه في الفاشر للتحاور . وهنا تتجلى عبقرية السلطان علي دينار وادراكه ان هناك اكثر من طريقة لبلوغ اي هدق ، وان افضل وسيلة لها هي تلك التي تقلل مشقات الوصول للهدف ، اي اقلها كلفة واعظمها نتيجة ، فلم لا ينظر الى وسيلة اخرى لاستعادة ملك آبائه من دون وسيلة المواجهة الحربية التي جربها من سبقوه من السلاطين منذ نهايات العام 1874 م الى العام 1890 م تاريخ توليه هو قيادة المقاومة ؟ ان قومه بنوا حضارتهم باستقرارهم في ارضهم وصانوها بان لا تكون ساحة للحروب ، فالاستقرار مكنهم من ريادة القبائل في دارفور وقيادتها بالاستارة النابعة من تعلمهم ، وسمح الاستقرار بازدهار العلوم والمعارف الدينية والحياة الاقتصادية الرغدة وتحقيق الرفاهية قياسا بمن في محيطهم . فكان الانتقال من المواجهة الى المهادنة انقلابا في سياسة المقاومة للحكم الاجنبي والعمل على استعادة الدولة . وسنرى انه لم يحد لحظة عن هدفه في استعادة الدولة وانه ظل مشبعا بالايمان والأمل بنصر الله ونجاحه في استعادة سلطة آبائه .

وصل السلطان الفاشر في 12 اكتوبر 1891 م فشمله عفو الخليفة ، وكانت اول رسالة له لمحمود ود احمد مؤرخة بتاريخ الرابع من سبتمبرعام 1890 م ما يدفعنا الى القول انه نودي به سلطانا قبل هذا التاريخ ، وشرح فيه سبب تاخيره عن ملاقاته (5) ، ولما حط في الفاشر وجد محمود ود احمد غائبا من دارفور لأنه استدعي لاخماد ثورة في جبال النوبة ، وكان قد ترك عبد القادر دليل نائبا عنه لادارة دارفور . وكان معه علية قومه الشراتي وافراد اسرته ، ودأب هؤلاء ان ينادوه بلقبه كسلطان مما احفظ عليه امراء المهدية الذين افتروا عليه بتدبير حادثة الخمر كما فصلها في الوثيقة . وزج به في السجن فجاء محمود ود احمد فاخرجه منها وهاجر به لام درمان ، ثم عادا لدارفور بعد مقابلة السلطان للخليفة بالحفاوة ، وعندما استدعي محمود ود احمد للتوجه لمواجهة الغزو الانجليزي المصري للسودان منتصف العام 1886 م ؛ كان السلطان علي دينار قد سبقه لام درمان بنداء من الخليفة في اوائل يناير عام 1895 م ، وتصادق السلطان مع ابراهيم الخليل اخ محمود ود احمد فترة مكثه في ام درمان .

المقاومة في دارفور تقتلع جذور المهدية قبل ان يغلبوا في كرري

ما ان غادر محمود ود احمد دارفور حتى هبت مقاومة عنيفة ضد حكم المهدية بقيادة حسين محمد عجيب الملقب بابي كودة ، ووجدت المقاومة مساندة اغلب قبائل دارفور ولكن البرتي كانوا بعد الفور اكثر الثائرين ، يمكن تشبيه حالة الهدنة بما حدث بعد مبايعة دود بنجيه للمهدية اذ لم يوقف مبايعته استمرار الثورة بقيادة جديدة . واستعان الثوار بسلطان دارسلا الذي امدهم بالسلاح الناري فتعجل بذلك سقوط الحاميات الانصارية في دارفور ، سقطت دارا وارغم عامل الانصار محمد فضل الله الدغور للهروب لدارحمر ، ثم سقطت الفاشر بعد معركة ماجدية جنوبي الفاشر وهرب امبدي الرضي عامل المهدية هو الاخرالى دارحمر ولم تبق للانصار منطقة يسيطرون عليها في كل دارفور الا قلعة كبكابية التي كانت عليها الفكي سنين و دارمساليت التي كانت تحت سلطة ابكر اسماعيل .

الهوامش

1 – ثيوبولد المترجمة ، مصدر سابق ص 23

2 –فيفيان ، سلاطين الظل ، مصدر سابق ص 45 ، وورقة الاستاذ زكريا ادم علي ، لمحة تاريخية عن السلطان علي دينار – الميلاد و النشأة – فندق رجنسي ، الخرطوم 23 / 2 / 2017

3 – المصدر السابق ص 45

4 – المصدر السابق ص 46

5 – ثيوبولد ، المترجمة ، مصدر سابق ص 24

الفصل الرابع

عودة السلطان علي دينار لدارفور واستعادة تنظيم الدولة

ما بعد عشية كرري

كان الخليفة قد وضع علي دينار واتباعه تحت قيادة ابراهيم الخليل احمد الذي استشهد في كرري يوم 2 سبتمبر 1898 م فكان السلطان مقاتلا الى جانبه ، ولقد قاتل لاسترداد جثته ، وحملها لمنزل ابراهيم الخليل فدفنه كما سمعته من احد احفاد ابراهيم خليل ، ثم جمع علي دينار الفور وكل ابناء الغرب الذين رغبوا في العودة لدارفور ، وتقول فيفيان انهم في طريق العودة استولوا على جمال الخليفة عبد الله الذي توجه هو الآخر لام دبيكرات (1).. وهنا لا بد من تصحيح لمقولة شائعة عند بعض من يريد تزييف التاريخ بقولهم ان قبائل دارفور عادت لدارفور بعد المهدية وانهم عندما وصلوا جبل حلة ولوا عليهم علي دينار سلطانا ، فكما سبق ان ذكرنا فان علي دينار قد بويع سلطانا بعد مقتل سلفه ابي الخيرات بن ابراهيم قرض العام 1890 م بكوملي ، ثم هجر لأم درمان بعد مكاتبته للمهدية ،وانه اختفظ بحاشية من الشراتي ظلوا حوله طوال مكثه في الاقامة الجبرية ، وعندما تحرك لدارفور عقب كرري كان يعرف هدفه منذ انهيار دولة المهدية ، كان عائدا لدارفور كسلطان أصيل للبلاد وبموجب بيعة سابقة له من أهله . ربما جدد العائدون معه لدارفور في جبل حلة بيعتهم له كسلطان وتعاهدوا معه على ازالة اي عوائق امام استعادته لسلطانه وسلطان آبائه .

المصاعب امام استعادة الدولة والسلطة : -

تواجهالسلطان علي دينار بالمصاعب الآتية لاستعادة سلطانه على دارفور : -

1 – ابراهيم علي ؛ قيل انه حفيد السلطان ابراهيم قرض ، وكان ضمن القوة التي توجهت تحت قيادة محمود ود احمد لصد هجوم كتشنر للسودان ، وفي المتمة هرب

وانضم لجيوش الحملة مثلما فعل العديد ممن كانوا ناقمين على المهدية وغالبهم من ابناء الشمال الذين مرت جيوش المهدية بقراهم ، وكان هروبه في فبراير عام 1898 م ، واوعز الى كتشنر ان يتوجه لدارفور مع بعض اتباعه لاستردادها ، وبعد موقعة عطبرة ارسل لدارفور لتولي ادارتها لحين وصول قوات الحكم الثنائي ، و يقول ثيوبولد ان ابراهيم علي تلكأ في طريقه ، فمضى علي دينار بقوته الكبيرة فوصل الفاشر قبله واستلمها (2)

في الخامس من نوفمبركتب ابراهيم علي للسردار طالبا منه تعزيزات لدعم موقفه ضد علي دينار قائلا (خلال هجومكم على ام درمان هرب ابن سلطان ما ؛ هو علي دينار حليف الدروايش ؛ الى الفاشر عاصمة المديرية ونصب نفسه رئيسا على المديرية ، ومن الضروري ان تزودونا بالرجال المسلحين ومعهم ما يكفي من الذخيرة لتمكننا من الهجوم عليه وقتله هو وجماعته ، ان كل سكان دارفور هم رعايا الحكومة من زمن طويل ، ان كل رؤسائهم وشيوخهم معنا عدا اؤلئك الذين هم ضمن سلطة علي دينار في الفاشر وما جاورها . . نرجو ان ترسل لنا عددا كبيرا من الخيام وكذلك افواج الجنود والذخيرة في اسرع وقت ممكن) . و يورد ثيوبولد بعد هذا الخطاب رد كتشنر لابراهيم علي (اعلم انك متورط في نزاع مع علي دينار فيما يتعلق بحكم الاقليم ، وانك تطلب من الحكومة ان تساعدك كي تحاربه . ولكن علي دينارحسب علمنا موال للدولة . . ولذا فاننا لا نسمح لكم بشن حرب ضد شخص لا يبدي لنا الخيانة ، كن على علاقة طيبة معه الى ان تتقدم جيوش الحكومة الى دارفور لاحتلال وتنظيم الاقليم . وعندما تجد اي من سلالات سلاطين دارفور الآخرين من هو اكثرهم حبا لدى المواطنين ، وفي الوقت نفسه ايهم اكثر قدرة على حكمهم ويحقق افضل النتائج لهم وللحكومة ، سنعتبره ممثلا للحكومة في الاقليم) (3) .

فيما بعد كتب علي دينار ان ابراهيم على ادعى فقط الانتساب لاسرتهم ، وانه عبد ابق . ومن صيغة خطاب ابراهيم علي فانه من الواضح انه لم يعش في دارفور ليتعلم تقاليد اهلها وأنسابهم ، فلا احد وفق الاعراف يجرأ بالتصريح علانية انه يريد هجوم اشخاص وقتلهم ناهيك عن التصريح بهجوم وقتل من هم افراد في اسرته ! كما ان ما بدأ به رسالته على ان علي دينار هرب اثناء هجوم الانجليز لام درمان دالة انه لم يكن مستوعبا لأثر المعلومة التي ذكرها (تطوعا) بان علي دينار لم يشارك

في مقاومة الغزو ، كانت هذه البلاهة كافية بان يصرف كتشنر النظر عنه ، خاصة عندما تماهى السلطان علي دينار بذكاء ، فتمسكن لكي يتمكن ، ثم انه لو كان حقا حفيد للسلطان ابراهيم قرض لما وقع في خطأ عدم معرفته لنسب السلطان علي دينار بن زكريا بن محمد الفضل الذي سيكون جدا له بالنسب لأنه ابن عم ابراهيم قرض بن محمد حسين بن محمد الفضل . فهو يقول (هرب ابن سلطان ما) قاصدا علي دينار بينما المعروف ان زكريا والد علي دينار لم يكن سلطانا ؛ فلو كان ابراهيم علي من الاسرة الحاكمة لما وقع في هذا الخطأ الفاحش وهو عدم معرفة انسابه ، فالاصح انه عبد ابق وانتحل الانتساب للسلاطين كما ذكر السلطان علي دينار ، فهو الاعرف به . .

لما فارق ابراهيم علي ؛ عطبرة ضرب في الصحراء قاصدا دارفور ، يقول موسى المبارك (انه نزل اولا بالصافية 160 كلم شمالي الابيض ، فشغل نفسه باثارة قبائل كردفان وتدبيرهجوم على الختيم موسى في الابيض ، وانه نجح في استمالة زعيم الحوامدة عمر محمد قش الذي خرج عن طاعة المهدية وتحالف مع مبعوث كتشنر ، فاغار على بارا وقضى على الانصار المرابطين بها ، ثم تطلع لفتح الابيض دونما طائل في يونيو 1898 م ؛ ويمضي موسى المبارك يقول ؛ ان ابراهيم علي لما سمع بزحف كتشنر على ام درمان آثر ان يكون على مقربة منها ليسد المنافذ على من يحاول الهرب من قبضة كتشنر ، فلما علم باندحار الخليفة في كرري عاود سيره لدارفور فنزل بام شنقة الا انه فوجئ من هناك بنبأ احتلال علي دينار للفاشر فتوقف عن الزحف و كتب لكتشنر كتابه الآنف يستمدده بالرجال والذخيرة) (4)

صرف عنه الانجليز النظر ، بينما اقام هو في دارحمر بقطع الطرقات لاهل دارفور ، فارسل السطان على دينار كيران رزيقي فاوقع بابراهيم علي في فوجة بتاريخ 26 يناير 1899 م فانهزم الى ام درمان ، ولم يسمع له بعد ذلك اثراً .

2 – حسين محمد عجيب ابو كودة ؛ عندما لبى السلطان علي ديناراستدعاء الخليفة له لام درمان في يناير 1895 م ؛ تولى ابو كودة المقاومة ، فجمع حوله قبائل دارفور التي ادركت ان التهجير افقدت البلاد الصف الاول من القيادات بسبب اصرار الخليفة على هجرة كل ذي نفوذ ، فما ان غادر محمود ود احمد دارفور منتصف العام 1896 م بغالب قوات المهدية ؛ الا وهبت الثورة التي اقتلعت جذور المهدية بسرعة

مذهلة في كل الجبهات مما يدل ان المهدية لم تجد الطاعة الا بالقهر والجبر

اولاً اشتعلت كل الجبهة الغربية من دارفور بالثورة على المهدية ، فباسناد من البرقو ودارسلا لقبائل الفمر والتاما والمساليت وبطون الزغاوة ؛ فقد تشجعت قبائل الجبهة الغربية للخروج على المهدية . وكان محمود ود احمد ما يزال في جبل الحلة متابعا لتطورات الاحداث في الجبهة الغربية ، وكان يرى ضرورة العودة لتأديب البرقاوي الذي الب على المهدية ، الا ان الخليفة استحثه السير اليه فواصل سيره لام درمان ليصلها في 20 مايو 1896 م ؛ وفي ام درمان تعرّف من الخليفة على الموقف في الجبهة الشمالية والمخاطر الاكيدة التي تواجهها الثورة المهدية من زحف كتشنر ، عاد محمود سريعا لكردفان ودارفور ، فوصل الابيض مطلع يوليو 1896 م ، وواصل السير للفاشر ، وفيما بعد تلقى محمود خبر احتلال دنقلا فدفع بجيوشه صوب ام درمان ، ثم لحق بهم بنفسه بداية النصف الثاني من نوفمبر1896 م ، ولم تصل الجيوش الكثيفة ام درمان الا بعد ستة شهور من التحرك ، وما ترك محمود في دارفور من قوات الانصار الا ستمائة وخمسين مقاتلا تم توزيعهم على الفاشر وكبكابية ودارا ، وكانت عدتهم من السلاح والخيل 273 من البنادق بانواعها و 142 حصانا . كان هذا كافيا لبلوغ القبائل غاياتها في الاستقلال دون قتال طالما يعجز الانصار من مد ايديهم نحو القبائل ، فالزغاوة ظلوا ساكتين الى ان اختلف محمد دردوق مع ام بدي الرضي فاثارهم عليه فخرجوا عن طاعة الانصار دون ان يقصدوا الفاشر لخرابها ، وابدى البني هلبة رغبة للدخول في طاعة كتشنر وهو ما فعلته بطون البيقو والداجو والميما (5).

ثانيا كان الخطر الاعظم نابعا من ثورة الفور وبقية قبائل دارفور المستقرة و بالاخص البرتي ، وتزعم مقاومتهم حسين محمد عجيب ابو كودة ، اذ اختلفت مطامح الفور عن مطامح بقية قبائل دارفور لانهم ارادوها بعثا لسلطنتهم التاريخية ، ويقول موسى المبارك (ان الحركة بدأت متواضعة من بير كويه – تعني بئر الولد – بقيادة ابي كودة، وسرعان ما ذاع صيته فتقاطرت عليه وفود الساخطين من الفور وكل المجاورين لدارا وخاصة البرتي ، فانبرى لهم محمد فضل الله الدغور في بداية الامر ، فارسل ثلة من جهاديته لبير كويه فتمكنوا بتفوق سلاحهم الناري من احتلال بير كويه ، اختفى ابو كودة وعزز نفسه واعده ، فاستعادها وهرب الانصار و احتموا بدارا ، وكسب ابو كودة تبّعا جددا ، واحس بحاجته للسلاح الناري فلجأ الى دارسلا لسد احتياجه

فوجده من سلطانها ، فعاد لبير كويه وفي معيته رسولان من خاصة رجال السلاوي ومحاربين مزودين بالسلاح الناري وبالخيول ، قصد ابوكودة دارا وخرج الدغور لملاقاته ، وبعد اشتباك عنيف تراجع ابوكودة فيما قتل رسولا السلاوي ، فلجأ ابوكودة لجبل مرة لاستعادة قوته وتنظيم صفوفه ، و في هذا الاثناء و بايعاز من علي دينار هرب من ام درمان مجموعة من الفور لدارفور عقب الاغنية الحماسية التي ذكرتها في كتابي سلطنة الفور الاسلامية التي غنتها الميارم الاسيرات بام درمان و تقول كلماتها :

إلا كوينج سور كاري

كاينج كونا بارونج جو نانج كاوريلا

دارفور كي كيننج كوو

ابشنقننج جودا كارا

جودا كالي الا جابا النج كوو

خميس فكراننج ال ابشنقاننج بيترا كي

ومعنى هذه الاغنية حسب مقاطعها اعلاه :-

سئمنا الاستعباد وضقنا به ذرعا

و شبابنا يرفضون العودة لديارنا

ترى ، مع من نعود لدارفور ؟

وخلاء ابشنقة موحشة وبعيدة

لا تخافوا من الخلاء حتما سنعود

فخميس فكرا حلفا خلاء ابشنقة - الحلفا نوع من الدجاج البري يميل لونها للحمرة -

و لم يخب ظن ميارم الفور في البطل المشهور بالمغامرات ، خميس فكرا الذي قاد

عودتهم لدار فور بسلام .

نعود الى موسى المبارك في تتبعه لثورة ابي كودة ؛ فيقول : - ان الامل ازدهر في نفوس الفور عندما حكى العائدون عن الهزائم العظيمة للانصار في جهادهم ضد كتشنر ، فشخص ابوكودة ثانية لدارا ، فشكى ام بدة الرضي للخليفة يستنجده ، ويقر بعدم قدرته على مجابهة ثورة ايدها بالقلب جميع الناس فأضحى شأن الانصار بينهم كشأن بعوضة في شجرة هبت عليها ريح عاصفة ، فهزت جذوعها وفروعها ! كان الخليفة مشغولا ومكرسا كل جهده لمدافعة كتشنر ، انقطعت حتى الاتصالات ما بين دارفور وام درمان لان قبائل كردفان تمردت فسدوا الطريق ، بل بدأت جماعات منهم تغير على حدود دارفور الشرقية وتستنهض سكان ام شنقة وجبل الحلة و الطويشة ، فصار الانصار في الوضع الذي صار فيه سلاطين باشا حينما اجتاحت الثورة المهدية دارفور وهزمت حملة هكس باشا المنقذة ، اخيرا اقتحم ابوكودة دارا وارغم فضل الله الدغور للهروب لدار حمر ، واندفع بعدها نحو الفاشر فانبرى له ام بدي الرضي واعتركا في ماجديّة على بعد ستين ميلا جنوبي الفاشر . ظفر ابوكودة بالانصار فتراجع ام بدي للفاشر لا ليقاتل ولكن ليهرب منها بانتظام لدارحمر منضما لكل من الدغور وابراهيم علي في تحالف غريب ، فهما قادة المهدية في دارفور بينما ابراهيم علي وكيل للرجل الذي هزم دولة المهدية ؛ كتشنر! (6) ، حقاً ان المصائب لتجمع المصابين .

لم يهنأ ابو كودة الذي ادعى نسبا من جهة آبائه بسلاطين الفور بالنصر الا قليلاً ، لقد سمع بتوجه السلطان علي دينار لدارفور فور عشية الجلاء موقف الدولة المهدية في كرري ، كان في قرارة نفسه يعلم ان الفور قد بايعوا علي دينار سلطانا عقب اشتشهاد ابي الخيرات على يد قواد جيشه ، وان علي دينار لم يتنازل عن لقب السلطان قط عندما كان في الفاشر وعندما هُجّر لام درمان ، وانه عائد كسلطان ، و لكن ماذا يفعل وهو الذي قاد الطرد الناجح للانصار من دارفور ؟ كان عليه استرجاع التاريخ والتأكد فيما إذا كان الفور سيقبلون مناصرته على سلطانهم الفعلي ؟ وهل سيكررون معه موقفهم مع محمد كرا عندما حرض من معه من الجنود لمنازلة السلطان عبد الرحمن الرشيد فقالوا له نحن نحترمك ، ولكن نحن تبع ارادة سلطاننا ولن نؤثرك عليه .

لقد ارسل ابوكودة جيشه لتلقي علي دينار ولصده من دخول دارفور ، كانت القوة المرسلة بقيادة سراج والد الشرتاي المرحوم محمد سراج شرتاي شطاية الذي افادني ان والده كان ابن خالة السلطان علي دينار ، ولما التقى الجيشان على الحدود ورأى السلطان علي دينار ان الذي يقود جيش ابوكودة هو سراج ابن خالته ؛ امر جيشه بعدم مبادأة القتال وامر الموقاوي ان ينادي بضرورة التقاء قائدي الجيشين اولا على انفراد ، فلما التقيا استعطف السلطان رحمه بسراج قائلا له أتبيعني يا سراج لأبي كودة ؟ رد عليه سراج بان الدم لا يصير ابداً ماءً ، و انه لو طلب منه التوجه للفاشر لجز رأس ابي كودة لفعل .

انضمت قوة سراج لقوة السلطان الذي توجه بثقة نحو مدينة الفاشر فدخلها دون مقاومة ، فقد كتب السلطان لابي كودة يشكره على حسن صنيعه بتحرير دارفور من الانصار ، ويدعوه للتخلي عن العرش لعودة صاحبه الشرعي . فلما رأى ابوكودة ان موقفه ضعيف لجأ لبير كويه فاستأمن السلطان ، ثم جاء فقال له انه لم يكن الا كالوكيل في غياب صاحب الامر وانه سعيد بعودته واستلامه لميراث اجداده ، فاكبر فيه السلطان شجاعته وثمّن جهده في تطهير ارضهم ، وحرصه على حقن دماء مواطنيه ، وعينه ملكا لاصحاب الصناعات الحديدية وهي اليوم بمثابة وزارة الصناعة وأقطعه حاكورة سارانج بانقا .

3 – عربي دفع الله : الذي عينه الخليفة في 1893 م مسئولا عن الاستوائية ، فكان معزولا في الرجاف مركز رئاسته كما يقول ثيوبولد ، وحينما طرده الكونغوليون منها عام 1897 م لجأ برجاله لبور في بحر الغزال ، وعندما سمع بانهيار سلطة الخليفة في كرري جمع ما تبقى من رجال المهدية للسير بهم عبر البلاد ليشق طريقه الى حيث الخليفة في كردفان ، فعبر لجنوب دارفور بطريق دار التعايشة ، فتناوش مع جيش السلطان علي دينار ، وعندما وصلوا شكا اجبروا على التحرك غربا لبلاد التعايشة عكس ما كانوا يرغبون ، ولم يكن في مقدور السطان ملاحقتهم فورا ، ولان عربي دفع الله امتنع عن الامتثال لحكومة السودان او للسلطان علي دينار اول الامر؛ فقد دفع كتشنر بالضابط حسن وراق والشيخين عبدالرحيم سالم ابو دقل وابراهيم المليح من قبيلة الحمر لمقاومة عربي دفع الله والحيلولة دون اتصاله بالخليفة ، ويقول ثيوبولد ان هذه القوة وصلت معسكر عربي في ديسمبرعام 1899 م ، وانه وبعد

مفاوضات فاشلة ومناوشات انسحبت ببطء القوات الحكومية غير النظامية جهة الشرق وانسحب عربي لدار كارا فمكث في هدوء لعامين ونصف ، ثم بعثت الحكومة في مستهل مارس 1900 اوامر لحسن وراق وابودقل بالانسحاب من كل دارفور على ان تكون الابيض هي مركز اقرب قوات حكومية وان تكون القوة مكونة من مائة فرد من افضل الرجال .

و يتتبع ثيوبولد مسيرة عربي دفع الله فيقول انه وفي يوليو 1902 تقريباً ، حضر عربي دفع الله للفاشر و كان يعسكر في دار كارا لمدة عامين ونصف يغير ويناوش القبائل المحيطة وخاصة الاغارة على السلطان ابو ريشة سلطان دارسلا ، وبعد ان تناقصت قواته بشكل مستمر بسبب الاصابات والمرض ، ولعدم وجود مستقبل له كشخص طريد العدالة يحيط به الاعداء من كل جانب – حضر للفاشر وفي معيته 600 رجل ، و200 حصان ، وحوالي ثلاثة الف بندقية و 50 صندوق ذخيرة فسعد بقدومه السلطان علي دينار الذي كان في ذلك اليوم يبتسم للجميع (7) . صار عربي دفع الله أحد القادة في جيش السلطان .

4 – الفكي سنين في كبكابية : الذي كان مصدرا آخر للخطر ؛ كان سنين بحسب تتبع ثيوبولد لسيرته ممن حاربوا تحت قيادة ابوعنجة في جبال النوبة وكذلك في حملة الحبشة (1887 – 1889 م) ، ثم رافق الامير عبدالقادر دليل الذي ارسل للقتال تحت امرة جانو ، وعهد اليه ادرة مركز كبكابية ، وعند مغادرة دليل لدارفور اودع كمية كبيرة من الاسلحة والذخيرة تحت عهدة سنين ، فبقي حارسا لتلك الاسلحة ، و لما تقوضت المهدية وقتل الخليفة نفسه ؛ تسرب هاربون مهدويون لكبكابية فازدادت قوتهم حتى بلغت اربعة آلاف تحت قيادة الفكي سنين حسين . فصاروا خطرا حقيقيا لاستعادة سلطنة دارفور ، وخاصة عندما ضبطت مكاتباته للانجليز .

لقد اوردت في كتابي سلطنة الفور الاسلامية نص الخطاب الذي بعث به الفكي سنين عامل المهدية السابق للحاكم العام في العام 1900 م والذي ذكر فيه انه رفض الاستسلام للسلطان علي دينار الذي قام بدوره بقطع الاتصالات ما بين سنين والحكومة ، مبينا انه مخلص للحكومة ، و ان علي دينار طلب منه تسليم الوديعة التي عهد بها له عبدالقادر دليل قبل ذهابه للقتال ضد الغزو ، وانه اخفى الوديعة حتى عن محمود ود احمد ، ويؤكد انه مجرد خادم للحكومة ، وانه لما رفض تسليم

الوديعة لعلي دينار بعث اليه كيران رزيقي ولتوقعه ان الحكومة ستسأله عنها فانه رفض وحارب كرن وهزمه ، ثم تابع انه سيسلم الوديعة لاي مندوب ترسله الحكومة لانها ليست ملكا لاي سلطان ، ثم يحصر سنين مكونات الوديعة بمائة درع ، ومائتى سيف ، والفين وخمسائة رطل من العاج ومائتين قرن وحيد القرن ، ويدلف الى طلب سلاح لقتل حيوان (الككك) الذي يأكل الناس والحيوانات والذي استعصى قتله بالرمتون (8) .

بمجرد وصول السلطان علي دينار لدارفور اسس سنين رفضه الانصياع اليه بانه كان يعتبر نفسه وريثا للمهدية في دارفور بعد الهروب المبكر لزميليه عاملي دارا والفاشر – الدغور وام بدي الرضي – تحت وطأة ضربات الثوار الذين تزعمهم ابوكودة ، وكان سنين يرى في السلطان علي متخاذلا لنصرة خليفة المهدي ، لانه لم يناصره بعد كرري للممات ، وانما توجه للاستيلاء على دارفور ، وكما نرى في خطابه للحاكم العام فانه تهافت مثل صاحبيه الدغور والرضي في الارتماء تحت احضان المستعمر اذا كان ذلك سيضمن له البقاء في سدة الحكم ، مع ما في ذلك من تناقض مع اصل دعواه وتخوينه للسلطان ، ومن جهة ؛ فان اتصالاته بالحاكم العام كانت تزعج السلطان علي دينارالذي كان يخطط لادارة مستقلة في دارفور .

ومع ذلك كان السلطان يرى عدم سفك الدماء ، ولذلك سلك معه سياسة عدم المواجهة عسكريا الى ان استنفد كل الطرق السلمية فلجأ الى ضرب الحصار على حصنه في كبكابية ، كان سنين يرسل للقرى القريبة من كبكابية من ينهبها باستمرار بالقوة رغم انها كانت قرى فور موالين للسلطان كقرى طرة بجبل مرة ، وكان زعيم هذه المنطقة يسمى تكور ، وتحاشيا منه للمواجهة مع قوات سنين درج على تحصيل اموال من مواطنيه ودفعها لسنين مفاخرا انه (تكور تلاف المال ومعمر الدار) يقصد انه يعمر بلده بعدم تعريضه للحرب من خلال دفع المال كفدية لسنين مع الولاء للسلطان .

ارسل السلطان لسنين ؛ ان يتوقف على الاقل من ضرب نحاسه فوق ارضه ، فاحضر شعبة علق عليها النحاس واستمر في ضربها قائلا للسلطان ان نحاسه في سماء الله لا فوق ارضه ، فارسل اليه السلطان من يقول له واين غرزت يا سنين شعبتك ؟ افي استك ام فوق ارضي ؟ ارسل له السلطان في سنة 1900 م قوة بقيادة كيران

رزيقي فهزمها سنين وشاع انه يهزم بالرعب حيث كان يأخذ حفنة من التراب فيقذفها في وجوه اعدائه فيهربون كالانعام امام الاسد فرقا وخوفا فيشيّعهم بالشتم قائلا لهم مشركين ، مشركين ..

امر السلطان بتطويق كبكابية و محاصرتها لسبع سنوات ، هرب خلالها مناصرو سنين ولم يبق في حصنه الا النساء ، فتقدم من محور الجنوب الغربي القائد ادم رجال احد الجنرالات الاقوياء في جيش السلطان ، ومن الشمال والشرق تقدم القائد محمود علي الدادنقاوي ، وتقدم نحو حصنه مباشرة من الجنوب القائد رمضان برة ، وهو من مواليد توم باري احدى قرى كري، ونتيجة للحصار تناقصت المؤمن داخل الحصن، وفي يناير 1909 م انتهت فتنته بتمكن الجيش من دخول الحصن واجتزاز راسه و ارساله للفاشر ، يقول السيد محمد آدم ابكر عن جده : (أن القائد رمصان برة وبعد الحصار الطويل لسنين ، أرسل قوة بقيادة جده ابكر عبدالباري شرف الملقب بأبكر لابو والمولود في قرية رومي جوار القرية التي ولد فيها القائد سليمان برة ، وكان ابكر لابو من اقوى الرجال حيث كان يقذف بالحربة على الجواد فتخرج الحربة من الجهة الاخرى ، ومعه قوة خاصة من القادة احمد شطة المولود في كورما ، وخليل كاس كاو المولود في دولو ، وخليل جنة بيي ، وخليل ناقري من المساليت ، كقوة استطلاع للحصن فتمكنوا من قطع رأس الفكي سنين ، فارسلوه طريا للفاشر) . دفن رأسه في الفاشر في الموضع المعلوم شمالي وزارة التربية والتعليم في الولاية .

وتصادف عدم نزول الامطار خريف ذلك العام فشاع ان السماء امسكت لقتل سنين ، فجمع السلطان الفقهاء والحفظة واستجوبهم بم قابلوا تلك الاشاعات ؟ فلما اقروا بتقصيرهم في توعية المواطنين ، الزمهم بالتضرع الى الله ليغيث عباده بالقطر ، انهمرت الامطار في غير موعدها شتاءً ، واستمرت في الصيف حتى حصد الناس قبيل موسم الامطار العادي في فصل الخريف ، فشهد ذلك العام خريفين ولذلك سميت بسنة ام درتين (اي الحصادين) .

5 — ابكر اسماعيل سلطان المساليت ، ادعى المساليت اثناء فترة المقاومة ادارة مستقلة ، وتمادوا في ذلك بالعصيان ومحاربة كل من ابي الخيرات وعلي دينار ، وقبلهما قاموا بالاشتراك في محاربة السلطان هارون سيف الدين ، والوثائق التي تثبت تبعية دارمساليت لدارفور عديدة منها خطاب سلطان دارسلا لابكر اسماعيل عندما سمع

بادعائه لسطنة مستقلة عن دارفور ؛ فقد نصحه ودعاه لطاعة الله والرسول وطاعة ولي امره السلطان ابو الخيرات ، مذكرا اياه ان دارمساليت كانت جزء من دارفور منذ اول نشأتها وتوحدها ، وان الدعوة بفصلها ما هي الا دعوة احمق .. و لقد اورد الاستاذ المغفور له الاستاذ ابراهيم يحيي عبدالرحمن في كتابه المساليت ؛ التطور الاداري لسلطنة المساليت ، فقال انها بدأت بالتبعية لديار شراتي الفور في كل من دار فيا، وكرني ، وكلي ، وتبولا ، وكان قليل منهم تابعا لزامي بايا و زامي تويا ، و يمضى ابراهيم يحيي قائلا انه حتى عهد السلطان محمد الفضل كانت هناك ادارتان للمساليت في مستوى الفروشية التي تعادل عند ادارات الفور العمدة ، هما فروشية الفلكنجنق من جهة الشمال وكانت تابعة لدارفيا التي كانت تدار من معلقة غرب كبكابية على وادي باري ، وفروشية النرنق التي كانت تابعة لداركرني ، ثم حدث خلاف في بطون المساليت ولاحتواء ذلك الخلاف امر السلطان محمد الفضل بانشاء اثنين فروشية جديدة للمساليت لتصبح مجمل فروشياتهم اربعة ، ولكنها كلها تابعة لشرتاويات الفور ، قام الفرش الاربعة بزيارة للفاشر في عهد محمد الحسين بن محمد الفضل وطالبوا برئاسة موحدة للفرش الاربعة فعين السلطان الفرشة هجام بن موسى بن حسب الله بن كنجي فرتاك لرئاستهم ، ثم تعاون هجام مع الاتراك في محاربة سلاطين الفور فاشترك في مطاردة السلطان هارون وقتله بدار قمر فرقي هجام للبكوية ، وما بين العامين 1884 — 1885 م ؛ هوجم منزل هجام بواسطة ثوار مساليت غاضبين فهرب الى بورو ثم هرب لدارسلا ، فساء ظن سلطان دارسلا به فاخرجه من دياره، ثم التحق بالمهدية وارسل الى ام درمان ، فتولى زعامة المساليت بعده رجل اسمه الفكي اسماعيل عبد النبي في الفترة من 1882 — 1898 م و كان عاملا للمهدية في دارمساليت ، فعزله الخليفة عبد الله واعاد تعيين هجام مما اغضب ابنه ابكر اسماعيل الذي تركه والده كعامل للمهدية فخرج على المهدية مثلما خرج آباؤه على الفور ثم ادعي مملكة مستقلة .

بعد عودة السلطان علي دينار لدارفور كان من اول برامجه اعادة الحدود القديمة لسلطنة دارفور ، فارسل جيشا تمكن من اسر ابكر اسماعيل وارساله للفاشر ، وغنم جيش السلطان منهم 1800 حصان ، وعدداً من الدروع والملابس ، مع عدد خمسمائة بندقية ، وعادت دارمساليت لحوزة دارفور ، ثم ثار المساليت مرة اخرى بقيادة تاج الدين اسماعيل اخ ابكر اسماعيل فتمكن منهم السلطان مرة اخرى فاخضعهم وعاقبهم

بقتل ابكر اسماعيل (9) .

6 - فوضى بعض القبائل العربية ، ذكرنا ان دارفور وقعت في اتون فوضى عارمة ساد فيها منطق القوي يأكل الضعيف ، ودعوى اعمار الآخرة بتخريب الدنيا ، و منح سلطات مطلقة لمن تقمصوا الدفاع عن الحكومة ليجوسوا خلال الديار ، فساد الفساد بانهيار العدالة وعدم المساءلة على التجاوزات ، فعاد السلطان علي دينار لاستعادة النظام و الدولة في اوضاع كهذه .

كان يدرك ان الشدة وحدها هو السبيل لاستئصال نزعة العدوان والشر المستفحلة في البلاد لغياب سلطة تردع المجرمين ، فالمجرمين تسري عليهم قانون الطبيعة في هبوب الريح ؛ الانتقال من الضغط العالي الى المنخفض ، فاذا ما اخذوا بالشدة في مكان فانهم يهربون الى حيث يجدون الامان والسلامة لارواحهم او الى حيث لا يحاسبون بجرمهم . تمثلت مظاهر التفلت في قتل الناس ونهب الممتلكت ، وقطع الطرقات ..

ووصلت للسلطان شكاوي عديدة ضد مجموعات بدوية قامت بقطع الطرقات و العدوان على القرى وقتل الرجال وسبي النساء والاطفال واحراق المنازل . وكلما اراد السلطان بسط هيبة الدولة لاذ المجرمون لكنف الحكومة بالهروب لخارج حدود دارفور في المناطق التابعة لحكومة السودان في كردفان .

وبدأت سياسات فرض سلطان الدولة بحملة ضد البني هلبة شتاء 1900 م ، ثم حملة ضد التعايشة فسكنت تلك الجبهة كلية . والتفت السلطان نحو الشرق لمواجهة فوضى كل من المعاليا والرزيقات ، فبالنسبة للرزيقات كان موقف مادبو تجاه استعادة الدولة ضبابيا كما يقول ثيوبولد ، فبعد كرري قام المسيرية باعتقال مادبو و اسرته ولم يطلقوا سراحه الا بعد نحو عام ، وبعد عودته لدار الرزيقات اواخرعام 1899 م لم يطلب منه السلطان دفع الضرائب الا في 1900 م ، ومع ذلك تماطل في سداد ما طلب منه ، الامر الذي عرضه لسخط السلطان فقام بسجنه لفترة قصيرة حيث اطلق سراحه قبل حلول عام 1901 م وقد كتب شقيقه عيسى مادبو رسالة للحاكم العام في الاول من فبراير 1900 م يناشده ترتيب اطلاق موسى من السلطان ، وبعد اطلاق سراحه استمر السلطان يشتكي سلوكه واتهامه بقطع الطرقات وسفك دماء المسلمين لأن الشكاوي ظلت تصله ؛ ففي يونيو ويوليو واغسطس ؛ تلقى السلطان

شكاوي عن غارات كل من الرزيقات والمعاليا ، اذ كتب بخيت ابو ريشة سلطان دارسلا للسلطان علي قائلا : انه ارسل بعض رجاله للشرق للتجارة ومعهم 20 قطعة كبيرة من العاج و200 رزمة من الريش ، و لكن المعاليا اعترضوا طريقهم وقتلوا الرجال وسرقوا البضائع ، وكتب السلطان موسى حمد الفرجاوي ان المعاليا والرزيقات هاجموا رجاله بينما هم يحملون الف رطل من العاج وبضائع اخرى ، ونهبوا كل ما لديهم وقتلوا الجميع عدا شخص واحد هرب ليروي القصة ، و قال ادم تاو شرتاي داربرقد : ان الرزيقات احرقوا قريتين وقتلوا ثمانية رجال واستولوا على 400 شاة و 45 بقرة و 20 حمارا ، واشتكى اثنان من شيوخ الهبانية ان الرزيقات احرقوا ثلاث قرى وقتلوا سبعة رجال وجرحوا ثمانية وسرقوا 350 خروفا ؛ وذيلا رسالتهما للسلطان بالقول : (لقد اضطهدنا ظلما ، ونستغيث بكم — يا من تطبقون العدل — ان تعيدوا لنا ما تم نهبه) .

قرر السلطان في بداية سبتمبر 1901 م ارسال حملة ضد المعاليا والرزيقات بعد ان ضاقت البلاد ذرعا من نزعتهم لانتهاب وقطع الطرقات ، معيدين فوضى وتفلت الحياة في المهدية ، فوجه قائد الجيش تيراب سليمان الذي قطع مائتي ميل في خمسة ايام محدثا المفاجأة رغم وجود عيون للمعاليا في الفاشر ، فهاجم بغتة مع احكام كامل وقطع لطرق فرار المعاليا ، اما الرزيقات ففروا اثناء انشغال تيراب بالمعاليا لبحر العرب ولم تحدث لهم الا خسائر بسيطة ، ومن شكا كتب تيراب سليمان في 12 سبتمبر لشيوخ الحمر يحذرهم ايواء الهاربين من الرزيقات والمعاليا ، كما طلب من عبدالرحيم ابو دقل التخلي عن الحكومة والانضمام لعلي دينارمصطحبا معه كل رجاله ، و كتب لمأمور النهود طالبا منه اعتقال واعادة الفارين .

وكتب السلطان علي دينار الى مدير كردفان قائلا (تعلمون فيما يتعلق بالمعاليا والرزيقات بانني كتبت لهم عدة مرات ولكنهم اصروا على سلوكهم الشرير ، لقد كانوا قطاع طرق ولصوص وقتلة ، ولا يستطيع اي مسافر ان يمر بسلام ، انهم ازعجوا البلاد كلها ، لقد ثاروا ضد احكام الله ووصاياه ، لقد قتلوا رسلي للحكومة و رسل الحكومة لي ، هناك جبل يسمى سليجا هو موطن دودو في دارالمعاليا منجم الشر ، اذ يخرجون منه للاغارة وقتل المسلمين ، وداسوا تحت اقدامهم الرسائل التي ارسلتها طالبا منهم التخلي عن هذه الافعال الشريرة فمن واجبي ان اوقف شرهم) . وقال

القائد تيراب انهم قابلوه بالقتال ولذا كان مجبرا على قتال من حاربوه ، وانه ضمن الامان والسلام لمن لم يحاربه ، كما لم يقم بمطارة من هرب لئلا يعبر الحدود لاراضي حكومة السودان .

وعلى الجبهة الشمالية ، تلقى السلطان في سبتمبر 1901 م شكاوي من شيوخ الزيادية والبرتي ضد قبيلة الكبابيش وسكان جبال كاجا سيرج ؛ قال شيخ الزيادية ؛ ان 27 قرية دمرتها النيران ، وان 90 رجلا قد قتل ، وتم اسر 85 امرأة وطفل و70 عبدا مع 670 خروفا و 250 بقرة و 50 حمارا و 40 جملا ، كما رسم شيخ البرتي صورة اكثر شناعة لتعديات الكبابيش هي دمار 25 قرية ، وقتل 189 رجلا ، واسر 131 امرأة وطفلا و113 عبدا ، واخذ اكثر من ثلاثة الف شاة و 400 بقرة

وكتب مديركردفان اوائل اكتوبر تقريرا للحاكم العام عن شكاوي السلطان ضد الكبابيش ودارحامد وكاجا سيرج يهدد باعادة الاموال المسروقة فقال : ان تهديد السلطان حقيقي اذ ان الغارات الصغيرة تحدث دائما في تلك المواضع بين الكبابيش ودارفور . واردف تقريره ببرقية بعد خمسة ايام قائلا ان هناك اساس قوي بان علي دينار ينوي الهجوم على كاجا سيرج وان حملة تحركت ، ثم طالب بارسال قوات الى الحدود ، وفي 26 اكتوبر كان قمر الدين عبد الجبار قائد القوة التي ارسلها السلطان قد نفذ التعليمات وكتب لابراهيم المليح ان شعب كاجا سيرج اشرار يقتلون ويسلبون المسافرين والحجاج الذاهبين والقادمين من مكة ولذا فان السلطان ارسله مع الجيش لفتح الطريق ، ومع اقتراب الجيش هربوا لمناطق الحكومة فتتبعناهم الى الحدود فالحكومة والسلطان يعملون معا لانهاء السرقات وقطع الطرقات .

في نهاية نوفمبر 1901 م ؛ عادت قوات دارفور للفاشر وعسكرت فقط قوات قمر الدين في جبل الحلة ومنح السلطان الامان الى شعب كاجا سيرج كما منح الامان لموسى مادبو في يونيو 1902 م . وفي اغسطس 1901 م كان ان استسلم لعلي دينار اثنان من اشهر قادة المهدية هما الاميران محمد خالد زقل و محمد عثمان ابو قرجة الذان نفاهما الخليفة عبد الله في الرجاف واتخذا طريقهما للعيش في وداي ولكن بؤس الحال دفعهما للالتحاق بعلي دينار مثلما فعل بعدهما عربي دفع الله(10)

7 – التفلتات الامنية وفوضى الجماعات والافراد ، التفت السلطان الى فرض هيبة الدولة بالقضاء العادل الناجز ، اذ لم تكن النزعة الفوضوية خاصة فقط بالقبائل، ذلك ان الافراد ايضاً تمردوا على اعرافهم الناظمة للعيش معا في سلام ، فكان على السلطان في مسعى استعادة حكم القانون ان يأخذ بقوة كل من تسول له نفسه ظلم الناس ، ففكر في ان يحسم بنفسه امر الجنايات اضافة لنظم التقاضي العادية ، فابتدع قصة القاضي الاطرش ، وهي شجرة حراز يمكن للسلطان ابصار من تحتها من نافذة قصره ، فكان على المتظلم الجلوس تحتها فيهرع اليه السلطان لتلقي مظلمته. فمن الروايات الشائعة قصة المرأة العجوز التي فقدت تيسا ، تبين ان سكارى ذبحوه، فجعلهم السلطان عظة لمن اعتبر بان اوسعوهم ضربا ، ثم امر بخروف فربط في عنقه سكينا وملحا وشطة مع بصل وثوم ، فاطلق في المدينة ليرى من تسوله نفسه باكله، فلم يعد الخروف للزريبة الا بعد جلوس نساء السوق تحت القاضي الاطرش لتقديم الشكوى ضد الخروف الذي كان يأكل ما في اطباقهن من معروضات السوق ، أنصف السلطان النسوة بإعادة الخروف للزريبة .

و هناك ايضا قصة الذئب الذي اعتدى على الزريبة فقتل بهيمة فقبض حيا فاوسع ضربا امام الزريبة التي قتل فيها البهيمة ، ثم ادخل مع البهائم فبات ليلته دون ان (يهبش) بهيمة فاطلق سراحه ثم لم تتكرر هجوم ذئاب على زرائب الفاشر بعد ذلك . و كذلك هناك قصة رجل قتل شخصا من الفاشر ثم هرب ، وحلف السلطان الا يتحرك الا بعد ان يقبض على الجاني فيتم عقابه ، فلُحق الرجل على مشارف مليط فجيئ به وتم اعدامه قصاصا ثم انصرف السلطان لداره . لقد صدقت المقولة ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فبعد عامين فقط من عودة السلطان علي دينار استتب الامن في ربوع دارفور ولم يعد احد يخشى على نفسه او ماله او عرضه شيئً حتى الوحش تأدب و تخلى عن فطرته !

الهوامش

1 – فيفيان ، مصدر سابق ص 47

2 – ثيوبولد المترجمة ، مصدر سابق ص 26

3 – نفس المصدر ص 26 – 27

4 — موسى المبارك ، التاريخ السياسي لدارفور في المهدية ، ص 227 — 228

5 — نفس المصدر ص 203 — 222

6 — نفس المصدر ص 223 — 225

7 — ثيوبولد ، المترجمة ، مصدر سابق ص 27 - 28 ، 43

8 — امين محمود ، سلطنة الفور الاسلامية مصدر سالق ص 222

9 — نفس المصدر ص 224 — 226

10 — ثيوبولد المترجمة مصدر سابق ص 36 — 43

الفصل الخامس

بناء الدولة

1 – سياسته مع مستعمري دولة السودان

تغلّب السلطان على التحديات الكبيرة لاستعادة الدولة التي تقوضت في 24 اكتوبر عام 1874م باستشهاد السلطان ابراهيم قرض في منواشي ، واحتلال الزبير باشا رحمة لدارفور خدمة لخديوي مصر ، واندلاع المقاومة العارمة لحكمهم ولحكم المهدية التي خلفت التركية . وبعد عام واحد من عودته لدارفور وبعد انهاء مصدري التحدي المتمثلان في ادعاء ابراهيم علي وابوكودة للسلطنة ؛ وطد السلطان نفسه بقوة سلطانا على دارفور ، وادرك ان الاستعمار الانجليزي هو الخطر المباشر لقيادته، وانه لا بد من ابتداع سياسة للحد من خطره بالحصول على اعتراف الاستعمار به سلطانا على دارفور .

كان عليه ان يمنحهم ولاء اسميا لا يؤثر على استقلاله الداخلي وعلى علاقاته الخارجية ، من اجل ذلك دأب في اعلان اخلاصه ورغبته في الطاعة ، ووجدت حكومة السودان نفسها مضطرة للتعامل مع الواقع الذي فرضه السلطان ، لقد اعترفت الحكومة ضمنيا به سلطانا ، وبدأت التعامل معه منذ ان رفضت الحكومة ارسال قوات واسلحة لابراهيم علي ، وحتى عندما جرت مناقشات بان يقوم علي دينار طواعية برفع العلمين الانجليزي والمصري في الفاشر والكلكة وحفرة النحاس ؛ رد اللورد كرومر القنصل العام في مصر بانه لا ضرورة بذلك ، وطوال فترة حكم السلطان لم تثر موضوع العلم مرة اخرى ، ومن برقيته للورد سالزبوري وزيرخارجية بريطنيا لخص كرومر العلاقات المستقبلية ما بين حكومة السودان و السلطان علي دينار كالاتي : (يبدو ان علي دينار قد وطد حكمه ، وتم الاعتراف به فعليا من حكومة السودان كحاكم فعلي للاقليم ، واميل الى انه من المستحسن الحكم من خلاله بدلا من محاولة

ادارة البلاد عن طريق وكيل انجليزي – مصري . ان مديرية دارفور بعيدة ومن الصعب الوصول اليها ، وفي حالة حدوث اي اضطرابات خطيرة هناك قد يكون من الصعب ومن المؤكد انه سيكون مكلفا فرض السلطة البريطانية – المصرية . لا اعتقد ان المديرية تغل – تحت اي ظرف من الظروف – اي دخل كبير . ان الاحتمال الاقوى هو انها ستتكشف عن اعباء مالية اضافية . يبدو لي في الحقيقة ان متطلبات السودان ستقابل اذا ما استتب امن المديرية وسمح للتجارة بالازدهار . ربما من المشكوك فيه ان كان من الضروري او المرغوب فيه الاصرار بشأن اية علامات مادية ومرئية عن الاخلاص من جانب علي دينار . انه صديق في الوقت الحاضر . الا انه من القليل الذي اعرفه عن الموضوع فانني افهم ان صداقته من السهل تحويلها الى عداء) (1).

في ابريل 1900 اقترح ونجت اجراء مقابلة ما بين علي دينار وسلاطين باشا في سبتمبر او اكتوبر في المكان الذي يختاره السلطان ، وفي نوفمبرمن نفس العام وضح كرومر مرة اخرى موقفه السابق في ادارة دارفور عندما كتب الى سالزبوري قائلا (قد يكون من غير المجدي وعبئاً ثقيلا تولي وادارة حكم مديرية دارفور النائية ، لذا فقد ضغطت بشدة على كل من السير ر . ونجت وسلاطين باشا على ضرورة الحذر الشديد في التعامل مع هذا الموضوع . وبينما يجب ان يعلم علي دينار ان دارفور في مجال النفوذ الانجليزي المصري في الوقت نفسه الذي يسمح له بحرية كبيرة في التعامل مع الشئون الداخلية ، ومن غير المرغوب فيه ان تفرض عليه شروط من المحتمل ان يستاء منها – والتي في حالة المقاومة – قد لا تفرض عليه مضايقة كبيرة) (2)

عُين رودلف فون سلاطين باشا في اكتوبر 1900م مفتشا عاما في حكومة السودان ، كان سلاطين بعد استسلامه للمهدية اسيرا لمدى احد عشرة سنة بام درمان ، ثم تمكن من الهرب والخدمة في حملات دنقلا والنيل ، وعمل مديرا للمخابرات ما بين 1896 – 1898 م ، فكانت له معرفة سابقة مع السلطان علي دينار ، ومنحه الحاكم العام مطلق الصلاحيات في شئون دارفور كما يقول ثيوبولد ، ولذلك طلب الحاكم العام من السلطان علي دينار استشارة سلاطين باشا في اجراءات حكمه لدارفور ، كما اقترح له عقد اجتماع بينهما في مكان يختاره السلطان وذلك عبر خطاب محرر في 9 نوفمبر1900 م من الحاكم العام للسلطان ، و يقول ثيوبولد (و من الآن فان هذا الخطاب يجب ان يعتبر اعترافا رسميا بمركز علي دينار من الحاكم

العام للسودان) . فشرع سلاطين في الاستعداد للاجتماع بالسلطان ووصل الابيض في 12 ديسمبرفقابل عددا من شيوخ المعاليا والرزيقات والهبانية و نقل اليهم اعتراف الحكومة بعلي دينار كممثل ، و لذا يجب ان يتعاملوا معه .

ويمضي ثيوبولد قائلا ؛ وصل سلاطين النهود في 14 يناير 1901 م فتم تحذيره بالّا يذهب الى الفاشر لاحتمال اعتقاله كاسير ، فأمل في مقابلة علي دينار ولو على الحدود ما بين كردفان ودارفور . و في 6 يناير كتب السلطان لسلاطين (كان من اعظم امنياتي لقياكم ، الا ان هناك الكثير من الامور التي تحول دون الحضور في الوقت الحاضر ، لذا فانني ارسل الشيخ صالح جبريل وممثلين آخرين عني لمقابلتكم والتوصل الى اتفاق شامل عن طريق العدالة والاستقامة المشهورة عنكم) ، ثم اردف الخطاب بخطاب في 21 يناير قائلا (قلت في خطابي بانني سارسل صالح جبريل والممثلين ؛ لكن هناك امورا معينة قد حدثت مثلا : وصول اطفال واشقاء من المديرية الغربية ، انني مشغول الآن في ترتيب رحلة عودتهم ، ونسبة لما سمعته بشأن التمرد الحادث بين سكان دار برقو (وداي) فقد ارسلوا لي طالبين المساعدة . ان المتمرد عربي دفع الله موجود الآن على الحدود وهو يحاول الهجوم على الجبل ، لذا فقد ارسلت الى هناك قوات بقيادة الرجال الذين كنت انوي ارسالهم اليك) ثم كتب لنائب الحاكم العام شانا هجوما شخصيا على سلاطين (لقد فهمت ان سلاطين باشا قادم لاجراء مقابلة شخصية معي في المكان الذي احدده ، من المعروف جيدا ان مواطني هذه البلاد اغبياء جدا ، ولا احد غيري يمكنه السيطرة عليهم . وهم سيعارضون مغادرتي البلاد ولو لوقت قصير . واذا حدث هذا فهم سيثورون خاصة اذا سمعوا ان سلاطين قادم . وهم لا يشكون مطلقا بانه قادم لتدميرهم لانه معروف لديهم منذ وقت طويل . . لذا لا ننصح بقدومه . ومن الافضل ان يتم استدعاؤه وتعيين شخص آخر بدلا عنه وارسال التعليمات الضرورية معه) .

ثم كتب لسلاطين نفسه في 28 يناير (لقد شرحت لكم في خطاب آخر كل شيئ عن تاخير المندوبين وعن القلاقل المستمرة حتى الآن ، ومن الافضل لكم العودة الى الابيض) . في 7 فبراير امتثل سلاطين لنصيحة السلطان فكتب له انه قد لا ينتظر طويلا وانه سيعهود الى الابيض ! و يعلق ثيوبولد : انه و منذ ذلك التاريخ وضع علي دينار سابقة تم اتباعها طوال فترة حكمه في علاقاته مع حكومة السودان

، فلم يغادر بلاده ، ولم يسمح لاي مسئول كبير في حكومة السودان بزيارته ، فكانت العلاقات تدار من على البعد (3)

2 - تحديد الحدود و مقاصد الدولة

يقول ثيوبولد ان السلطان لم يكن مستعدا لمناقشة مشاكله مع المفتش العام لحكومة السودان ، الا انه ظل قلقا لمعرفة اجابات الحكومة عن عدة اسئلة مهمة ، لذلك كتب في 21 يناير 1901 م طالبا من الحاكم العام معلومات حول ثلاث نقاط قائلا (اطلب منكم توجيه تعليماتكم فيما يتعلق بحدود بلادي . كما ارجو في الوقت نفسه اخباري عن المتطلبات التي عليّ اتخاذها تجاه تمويل جيشكم . كما ارجو ايضا السماح بارسال المحمل — الهدية السنوية المعتادة الى مكة — انني في انتظار ردكم واطاعة اي ترتيب قد تتخذونه) رد عليه الحاكم العام في الاول من مايو 1901 م بالاتي : (انني من جانب الحكومة صدقت على تعيينكم الحاكم العام لدارفور ما دمت تنصاع لاوامر الحكومة وتذعن لقراراتها كما تفعل الآن ، وفيما يتعلق بطلبكم تحديد حدود دارفور ؛ اود اعلامكم بان الحدود ستكون كما كانت في السابق ، وستكون الحدود من ام شنقة الى الطويشة ودار المعاليا ودار الرزيقات حتى بحر العرب ، ثم الى الكلكة والمالوم ودار التعايشة ، والحدود السابقة مع برقو(ودّاي) فهذه هي حدود دارفور التي كانت قائمة في الايام السابقة عندما كان صاحب المعالي سلاطين باشا يشغل مدير عموم دارفور حتى ثورة الدراويش . اما فيما يتعلق برغبتكم في دفع الضرائب للمساعدة في دعم الجيش ؛ اود ان اعلمكم بان حكومة السودان لا يحتاج الى مال ومساعدة ، ولكن لان هذا الامر سيدل على ولائكم وخضوعكم للحكومة و لأثبت ارتباطكم فانني مسرور لافرض اليكم دفع مبلغ مائة كيس اي كل كيس خمسة جنيهات او ما مجموعه خمسمائة جنيه) تقوم بدفعها سنويا . اما المحمل ؛ فان الحكومة تترك لكم المسألة برمتها ، حيث ان الطرق مفتوحة للحجاج الى مكة ، فبإمكانك ارسال اي شئ ترغب فيه بواسطة الطرق السودانية) (4)

كان واضحا انه يرغب في الاستقلال بدولته مع ادراك عميق بالاطماع الاستعمارية ، كما كان يريد الاستمرار في مسيرة اجداده لجعل دارفور دولة اسلامية بنهج عملي وتنظيم ايدولوجي ، وقد حدد لنفسه حدود مسئولياته ، فالسلطان هو الله واهب الملك ، وهو الذي من فضله خلع واشتق على من اتاهم الملك من عباده بلقب

السلطان ، فهو ليس سوى العبد الذليل الذي انعم الله عليه بالملك بعد ان كان مطرودا ومسجونا ، كما جاء في كتاب استتابته وبيان موقفه من مقتل ابي الخيرات .

وفي منشور موجه للمسئولين في ادارة الدولة في دارفور ، قال ان حكمه يبدأ باعمار المساجد والخلاوي والعناية بحفظة القرآن الكريم واعادة الامن والنظام ، والاستمرار في ارسال المحمل الذي قال في رسالة اخرى له لخليفة المسلمين في اسطنبول انه كان لاجداده في 1916م ثمانمائة وسبعون سنة ، دأبوا فيها على ارسال المحمل بشكل مستمر (5).

والمحمل وتسمى ايضا بصرة الحرمين الشريفين عبارة عن نفائس من بضائع دارفور يرسلها السلطان ، فتباع في اسواق مصر وترسل الاموال للعلماء والطلبة و الاداريين في بلاد الحجاز ، وللفقراء ومن ارسلوا من الاغوات لخدمة الحرمين الشريفين ، كما كانت تحوي على المصاحف المخطوطة بيد حفاظ دارفور لتوزع في البلدان الاسلامية وذلك قبل انتشار المطبعة . لقد ذكرنا طائفة من مناشطه في تثبيت وتحقيق ارادته في جعل دولته سلطنة اسلامية حقيقية في كتابنا سلطنة الفور الاسلامية ويمكن الرجوع لذلك في الكتاب المذكور .

3 – سلوك بعض القبائل العربية تحكم علاقات السلطنة مع حكومة السودان

تحكمت سلوك القبائل العربية الرزيقات والمعاليا والكبابيش وكاجا سيرج في علاقات السلطان مع الحكومة ، كان السلطان يشكو من قيامهم بنهب الطرقات والقرى ، ثم كانوا يلوذون الى كردفان التي كانت تحت ادارة الحكومة ، و لكن بعد الحملات التاديبية ضدها هدأت دارفور من الظاهرة التي تعود جذورها الى انهيار الدولة بعد موقعة منواشي ، واستمرارها طوال عهد المهدية للسلطات المطلقة التي منحها الخليفة لاتباعه ، ففي حوالي نهاية العام 1901 م خفتت مظاهر النهب وعمد السلطان الى تأكيد سيطرته على كل الاراضي التي كانت تحت ادارة آبائه في دارفور . و كمثال لكون سلوك تلك القبائل مصدرا للاحتكاك بين دارفور وحكومة السودان يقول ثيوبولد : انه صدرت شكاوي ضد الكبابيش في ابريل ، ثم في ديسمبر 1906م بسرقة جمال من بئر العطرون تابعة للبديات ، وبحلول يناير 1907 م ، قاموا بسرقات

واسترقاق واسعة ضد البديات والميدوب ، فطالب السلطان بعودة الاسرى المسترقين والاموال المسروقة ومعاقبة المجرمين (او اذا لم يكونوا من رعايا الحكومة فاسمحوا لي برد المعتدين) . ويقول ثيوبولد ان رد الحكومة كانت القيام بانشاء معسكر من فيلق الهجانة في بئر العطرون ، وما كان خطورة ذلك المخطط يفوت على السلطان علي دينار الذي رفض الفكرة وانتقدها بالقول ان ذلك الاجراء لن يسهم في احلال السلام ، وان المعسكر في هذا المكان سيكون بلا شك مأوى للصوص والعرب الجشعين خاصة الكبابيش الذين سيجتمعون حوله ، ولانهم معتادي قطع الطريق والاعتداء والقتل ، فانهم سيخلقون مشاكل عظيمة ، وسيكونون خطرين على مواطني البلاد ، وثانيا سيضيع هذا المكان ((التابع لدارفور) ، ولن يكون له اي فائدة لنا ، بل سيكون امرا مجحفا لنا ، وثالثا فان الاجراء يوحي ان الحكومة تريد ان تكون ظالمة وتفضل الكبابيش عنا وتوافق على رغباتهم . رغم التحذير ؛ وضعت الحكومة قوة من الهجانة في بئر العطرون عام 1907 م ، وبعد مدة وجيزة قررت سحب القوة فتاهت في الصحراء باجمعها فلم يعثر لهم على اثر (6) .

4 - علاقات السلطنة الخارجية

ولم تقتصر علاقات السلطان الخارجية مع حكومة السودان فقط ، فقد كانت للسلطنة علاقاتها الخارجية مع الحركة السنوسية ، ويلخص ثيوبولد تلك العلاقات بتناول مستفيض لنشأة الحركة السنوسية فيقول : - ان السيد محمد بن علي السنوسي الجزائري الاصل ، تأثر اثناء مكثه في مكة المكرمة بالسيد احمد بن ادريس الفاسي زعيم الطريقة المغربية القادرية ، ولكنه بعد موت الفاسي اسس طريقته السنوسية بابي قابس(ابي قبيس) بالقرب من مكة عام 1837 م ، والسنوسية طريقة صوفية سنية على المذهب المالكي تؤمن باندماج الروح مع الله من خلال التخلص من الشهوات ، وهدفه اعداد المسلم الصالح ، فالتصوف يجب ان يضاف الى الايمان الراشد القويم والاخلاق وليس بديلا عنهما ، ويرى السنوسي ان تهذيب الاشخاص العاديين قد يكون من الافضل التفكير فيه من خلال الاندماج الروحي مع النبي مفضلا ذلك على الاندماج مع الله . فاسس السنوسي زوايا للطريقة لتمكين المريدين من العيش كاخوان ، وشجع الاعتماد على التكسب من العمل بدلا عن الهبات ، وكان له مجلس شورى من اربعة شيوخ ليس فيهم احد من اسرته ، واسس اول زواياه في الكفرة

عام 1843م فانتشرت الطريقة بسرعة بين القبائل البدوية في برقة وطرابلس ومصر وواحات الصحراء الكبرى ، نقل السنوسي في 1856 م مركز رئاسته الى الجغبوب مؤسسا فيها جامعة اسلامية هي الثانية بعد الازهر لتدريب قادة المستقبل للحركة السنوسية ، توفي السنوسي عام 1858م وتولى مجلس للوصاية ادارة الطريقة الى ان بلغ ابنه محمد المهدي سن الرشد ، ثم قام في عام 1895 بنقل مراكز رئاسة الحركة الى واحة الكفرة التي كانت مركزا لالتقاء القوافل القادمة من وداي و باقرما و دارفور ، ولما امتدت الحركة في افريقيا ؛ نقل محمد المهدي مركز ادارة الحركة الى قيرو عام 1899 م بهدف مقاومة التقدم الفرنسي المتزايد .

توفي محمد المهدي في 1902 م ، وتولى رئاسة الطريقة ابن اخيه السيد احمد الشريف المتوفى في عام 1918 م ، وقد ادت الظروف السياسية الدولية الى تغير نهج السنوسية من طريقة صوفية سلمية رفضت الخوض في المسائل السياسية الكبرى مثل مساعدة دولة الخلافة العثمانية في حربها مع الروس في الاعوام 1876 — 1878 م ، ورفض مساعدة عرابي باشا في مصر عام 1882 م ، ورد عروض السيد محمد احمد المهدي في السودان لاتباعه .

ويمضي ثيوبولد الى القول بان السنوات الاولى من حكم السلطان علي دينار تزامنت مع ارتفاع نفوذ الحركة السنوسية التي كانت قوية جدا في وداي المجاورة ، وان علي دينار راى عدم تعريض سلطته للخطر بالسماح للسنوسية بالدخول لدارفور ، فعندما طلب السيد محمد المهدي في عام 1900 م السماح له بعبور دارفور لاداء فريضة الحج ؛ رد عليه السلطان بان بلاده ما زالت فقيرة بعد تخريبها بالحروب ولا تستطيع تقديم المساعدة الواجبة للوفد الميمون ، وبعدها رفض انشاء زاوية للطريقة في الفاشر ، ثم ارسل الهدايا للابقاء على العلاقات التي تعززت فيما بعد عندما ادرك السلطان ان السنوسية لا تشكل اي مصدر للخطر على دارفور بل هي منفذ جيد ومفيد لتزويد دارفور بالسلاح ، ففي اوائل 1906م كتب جواسيس الحكومة المزروعين في بلاط السلطان ان شحنة من الاسلحة وصلت الفاشر و كتبوا تقارير اخرى تفيد بوصول شحنات ضخمة ما بين مايو 1906 — وابريل 1910 م ارسلها السيد احمد الشريف للسلطان علي دينار (7) .

اما عن العلاقات مع الجارة وداي فيقول ثيوبولد انها صارت اشد خطورة ، لان

وداي كانت تعاني من الاضطرابات ، فعند استسلام سليمان الزبير الجيسي في عام 1879 م رفض بعض رجاله وعلى راسهم رابح الزبير الاستسلام وكان معه بعض رجال سليمان الزبير فاسس سلطنة في بحر الغزال ثم غزا دار كوتي وتوسع في دار رونقا ثم تحرك شمالا تاركا واحدا من اتباعه هو محمد السنوسي الذي صار سلطانا للركن الجنوبي الشرقي لوداي . ووصل رابح حدود باقرمي في 1893 م واجبر سلطانها على الفرار ثم غزا برنو في العام التالي ، فقتل سلطانه ونعم بسلطة مطلقة على كل تلك الديار لسبعة اعوام ، فوجدت فرنسا الفرصة للتوغل لوسط افريقيا فاتصل اميل جنتيل مع سلطان باقرمي والسلطان محمد السنوسي فتحالفوا ، فاقتطع بذلك محمد السنوسي الركن الجنوبي الشرقي لودّاي ، بينما هددت المخاطر المزدوجة لرابح والفرنسيين مملكة وداي من الشمال الغربي . ثم مزقت الخلافات الداخلية ودّاي بعد موت السلطان يوسف عام 1898 م نفس عام عودة السلطان علي دينار لدارفور ، فحاول السلطان علي دينار التاثير على ودّاي ، فافلح في اعتلاء السيد احمد الغزالي للعرش في فبراير 1901 م . اذ كتب السلطان للحاكم العام في يونيو عن تطورات الاوضاع الداخلية في دار برقو ، وذكر بانه ولانهاء تلك الاضطرابات ؛ ارسل بعض رجاله لوداي ليخطروهم انه مع اختيار احمد الغزالي سلطانا .

شن الفرنسيون الهجوم على رابح الزبير وهزموه في معركة كوسري في 22 ابريل 1900م وبانهزامه تواجه السنوسيون و الوداويون مع الفرنسيين . وقبل نهاية العام الاول من حكم السلطان احمد الغزالي تهددت سلطته من قبل اصيل حفيد السلطان محمد شريف الذي كان جد السلطان علي دينار السلطان محمد الفضل قد نصبه سلطانا على وداي ، لجأ اصيل للفرنسيين وطلب منهم المساعدة لاستعادة عرش وداي فلما انشغل عنه الفرنسيون بحرب رابح الزبير انبرى مطالب آخر لعرش وداي هو محمد صالح دود مورا الذي تمكن من اسر احمد الغزالي في يونيو 1902 م واعدامه ، فحكم دود مورا لسبع سنوات حتى 1909 م ، وكان مشهورا بالذكاء و الثقافة والتدين . ثم خطط الفرنسيون بعد تعزيز مواقعهم في باقرمي لشتيت اتباع اصيل مظنة ان له علاقات مع السنوسية ، وحدثت هجرات للرحل ادت لعدم الاستقرار والى احتلال الفرنسيين للمناطق الخلفية ثم التحرك منها الى الامام في عمق وداي مع قيامهم بتنصيب مديرين دمى للمناطق المحتلة . وأُطلق سراح اصيل للاستفادة منه مرة اخرى ، وفي 1907 م بلغ الفرنسيون منطقة اتيا التي تبعد فقط مائة ميل من العاصمة ابشي

مما دفع دود مورا للاغارة على المراكز الفرنسية المتقدمة ، وتذرع الفرنسيون في غزوهم لوداي بانها مجرد اصطلاح جغرافي وانها ليست امة ، وان الشعب مضطهد وانه لا بد من قمع تجارة الرقيق ، ثم ادعو ان دود مورا اعلن الجهاد .

تصدى للفرنسيين محمد بشرى عقيد المحاميد في ثلاثة الف بالهجوم على اتيا لكنه هزم ، ثم هوجم هجوما مباغتا في 16 يونيو1908 م فقتل مع اثنين من ابنائه ، فاهتزت هيبة دود مورا وهرب بعض رجاله للالتحاق باصيل ، ثم تقدم الفرنسيون فاحتلوا ابشي في 2 يونيو 1908 م فهرب دود مورا واعلن الفرنسيون اصيل سلطانا على وداي . ومنذ ذلك الوقت اصبح التقدم الفرنسي في الجبهة الغربية لدارفور اهم شواغل السلطان علي دينار . لقد بات الفرنسيون في حدود دارفور و كان هناك غباش في رؤية الانجليز تجاه حدود دارفور الغربية وفق تقديري (الحديث لثيوبولد) بدليل الاتفاقية المبهمة لترسيم الحدود بين مناطق نفوذ البريطانيين والفرنسيين والموقعة بينهما في 21 مارس 1899 م ، والذي نص اعلانه على ان يتبع الحدود من حيث المبدأ المياه التي تفصل ما بين النيل ونهر الكونغو حتى يتقاطع مع خط العرض 12 درجة . ويقول ثيوبولد انه و باحتلال فرنسا لوداي صارت مسألة السيادة على سلطنات التاما والقمر والمساليت ودارسلا المشكلة المركزية التي واجهت علي دينار(8) .

بدأت مشاكل الحدود الغربية و اختراقات قبائل كردفان للامن في دارفور ، وايضا لواذ الهاربين من العدالة من دارفور للاراضي الخاضعة للاستعمار في السودان من اهم اسباب الخلافات ما بين حكومة السودان والاستعمار الانجليزي المصري كما سنرى ذلك في الفصل الاخير من هذا الكتاب بعنوان غزو دارافور واستشهاد السلطان .

في عهد السلطان علي دينار أخذت علاقات سلطنة دارفور مع دولة الخلافة العثمانية في تركيا ابعادها التاريخية القديمة قبل أن تتأثر بأطماع محمد علي باشا التوسعية . فدارفور التي آمنت بوجوب وجود دولة الخلافة للمسلمين تعبر عن وحدتهم ؛ أقامت العلاقات مع الدولة العثمانية دون أن يلحقها غزو لاتباعها كما كان الحال مع العديد من الدول التي بدت مستقلة بعد وهن دولة الخلافة العباسية ، وسبق ان ذكرنا ان خليفة المسلمين هو من اطلق لقب الرشيد للسلطان عبد الرحمن الرشيد سلطان دارفور ، وكان ارسال المحمل من قبل سلاطين الفور الاوائل تتم عبر مندوب خليفة المسلمين في مصر ، وعبر الحاكم في بلاد الحجاز والذي كان تابعا

لدولة الخلافة .

في عهد السلطان علي دينار دخلت تلك العلاقات مرحلة جديدة بتهديد الانجليز لسلطنة الفور، وبإعلان خليفة المسلمين الدخول في حرب ضد الانجليز في الحرب العالمية الأولى . لم يخف السلطان وقوفه مناصرا لخليفة المسلمين ، ولم يضن سلطان المسلمين بمؤازرة السلطان في تصديه للاستعمار الانجليزي الطامع في دارفور. وهكذا صارت دولة الخلافة وسلطنة دارفور في حلف واحد يقاتلان ضد عدو واحد مشترك . ولما خشي الانجليز ان يؤثر موقف سلطان دارفور على المسلمين الواقعين تحت الاستعمار الاوروبي خاصة في السودان فيثوروا ويعيدوا ويجددوا الثورة على الحلفاء ؛ عجلوا بغزو دارفور وبقتل سلطانه الذي كان الوحيد من بين حكام ما تسمى بالدول العربية في مناصرته لخليفة المسلمين في الحرب العالمية الاولى .

4- اعادة الاعمار

استهل السلطان علي دينار عهده بمنشور لشعبه ابان فيه ان غايته هو استعادة الدولة واعادة اعمار البلاد والبدء بالمساجد والخلاوى والابار (ان رغبتنا هي استعادة البلاد ، واحياء الاراضي والاماكن السابقة . . يبدأ حكمنا بتجديد المساجد واحياء الاحتفالات الدينية) (9) .

فكل شئ في دارفور بعد سني الحرب الطويلة التي امتدت دون انقطاع يذكر من 24 اكتوبر 1874 الى نهايات العام 1898 م ؛ كانت في حاجة لاعادة اعمار، كادت دارفور ان تصير خالية تقريبا من الانعام بسبب النهب المستمر ، وتوقفت الخلاوي من تعليم الناس الا القليل منها التي أوى فقهاؤها الى مغاور الجبال الحصينة ، وحفظت الكتب في اماكن يصعب وصول البشر العاديين اليها (كما شهدته من موقع اخفاء كتب فقيه في طرة اسمه حسب الله - او حسبا - وكان قد علق مكتبته الضخمة في المنحدر الغربي لجبل نامي شرقي طرة ، ولم يستطع احد بعد وفاته الوصول اليها !) ، وانعدمت بذور اغلب المحاصيل عند المزارعين بما في ذلك بذور الدخن التي تعتبر الغلة الاساسية لاهل دارفور ، فاستجلبت تيرابها من دارسلا بدسها في تجاويف نبات يشبه القنا تسمى (ارقيه) ، واستجلبت بذور البندورة وشتول الفواكه من بلاد الشام . سعى السلطان لجلب سلالات محسنة من كل اصناف الحيوانات الاليفة فوزعها

للرعاة لسعايتها ، وجلب فصائل نادرة من الاشجار الخلوية المثمرة منها شجرة السدر التي في قصره . وبنى مسجدين في الفاشر ، ومسجد كبكابية وآخر في شاواية وفي فورقو ، وجدد سقف مسجد طرة ، وبنى اضرحة للسلاطين التسعة الذين دفنوا في طرة جامع بعد ان هدم القبة التي شيدها السلطان محمد دورا لوالده ولنفسه من الطوب الاحمر التي استخدمت المرقة كمادة لاصقة في صناعتها . وحكت لي عمتي فاطمة رحمها الله ؛ انه عندما جاء السلطان لتجديد سقف المسجد في طرة ؛ وجد ان هناك قلة في مياه الشرب بسبب دفن بئر توم الاثري ، فقرر فتحها اولاً ، ولكن كانت المعالم مندرسة ، فطلب من المواطنبن ان يدلوه على الموقع فتهيبوا خشية ان يصفوا موقعا غير دقيق فيعاقبوا ، فتقدم والدها محمد عثمان ليريهم الموقع فبكت بناته وتعلقن بردائه تردن منعه حتى لا يعاقب ان هو اخطأ الوصف ، لكنه مضى في ثبات و دلهم على فتحة البئر فاحتفر .

كان السلطان فريدا في تذوقه للفن ومغرما باقتناء صنوف الطيور والحيوانات النادرة المستأنسة ، من الفيل والزراف والغزلان والنعام والنمور والاسود ، فكانت له حديقة نباتية وحديقة حيوان يهدي منها . وكانت تاتيه هدايا من الخارج مثل ؛ الالات الموسيقية - كالقرب الاسكتلندية — والمعازف والبنادق والطبول ، واهدي اليه خليفة المسلمين كرسي العرش الذي نقش فيه شعار الدولة العثمانية .

و بنى السلطان قصره بالفاشر عام 1911 م تحت اشراف رجل قدم لدارفور من العراق اسمه الحاج عبد الرازق ، وقام بالاعمال الانشائية رجلان من اولاد الريف الاتراك هما احمد موسى وعطية محمد ، وقام الاغريقيان ديمتري وتوماس باعمال النجارة في القصر ، ولعب القصر دورا مهما في تاريخ دارفور ، حيث كان المحمل وقوافل العلم للازهر والحجاز والزيتونة وبيت المقدس وسامراء تنطلق من القصر ، بالاضافة لرسائل وبعوث السلطان للدول ، واستقبال المبعوثين من البلدان الاخرى . يقول ماكمايكل في وصفه لقصر السلطان عند دخوله فيه غازيا ؛ كان قصر السلطان هو قصر الحمراء السوداني (مقارنا بقصر الحمراء في الاندلس) ، ان بيت الخليفة في ام درمان يعد كوخا بالمقارنة بهذا القصر . كانت هناك حدائق صغيرة ظليلة ، واحواض صغيرة للاسماك ، واروقة مقنطرة ، وصفوف من الاعمدة ، ومخازن وكل انواع البناء . وكانت الارضيات مغطاة برمل فضي نظيف ، كما ان قش السقف كان ذو

منظر جميل ، وتبدو كما لو كانت مقصوصة بمقص . وكانت الحوائط مدهونة بشكل جميل باللون الاحمر ، والحوائط الداخلية للصالات مغطاة بأيات قرآنية بخط جميل او بتصميمات على شكل رقعة الشطرنج . كما استخدم افضل انواع البروش او الخيزران في السقف . كما وجدت تعريشة من الابنوس بدلا من الحوائط الداخلية ، وكذلك كانت ارضيات اجنحة الحريم – تحت رمل فضي – منقوعة بالعطور(10) .

وبعد استشهاد السلطان حصرت ممتلكاته الشخصية التي كانت معه يوم الاستشهاد كما يقول ماكمايكل بمجموعة من الاشياء المختلفة ، فخزانة ملابس السلطان تبز خزانة ملابس النساء في تنوعها و كميتها ان لم تكن في نوعيتها ايضا ، بما في ذلك عشرون زجاجة عطر باريسي ، ونصف دستة خواتم عيار 6 درهم بفصوص زجاجية (12)

و اضاف السلطان في موروثات دارفور المتعلقة بتنظيم المهرجانات التي تعرف بالعرضة وقصدها ؛ تحقيق التعارف بين اعيان المجتمعات القبلية واظهار الوحدة والتضامن و ابراز الولاء لدولتهم ؛ بان ابتدع دعوة جميع حفظة القرآن الكريم في البلاد وهم بالآلاف للفاشر ليكونوا ضيوفه طوال كل شهر رمضان للصوم معه ، ولاحياء لياليها بالذكر والابتهال ، فكان ذلك تكريما لاهل العلم وميدانا لابراز قدراتهم العلمية ، ولتحقيق التعارف فيما بينهم حيث كان منهج التعلم في دارفور يقوم على هجرة طلاب العلم للفقهاء ، فكلما ذاع صيت فقيه هاجر اليه الاعداد الغفيرة من طلبة العلم ، ثم ان هناك علوما متخصصة يبرع فيها علماء دون آخرين ؛ فكلما احتاج طاللب لفن او علم من علوم القرآن دل على الحاذق من العلماء لذلك العلم فهاجر اليه ؛ فكان ضروريا ان يلتقي الفقهاء في مهرجان منفصل خلاف العرضة ليتعارفوا و يتباهوا بالعلم .

اهتم السلطان بارسال المحمل خدمة للمشاعر المقدسة ، و يجب الايفهم انه اول من ارسى تقليد ارسال المحمل ، و لقد سبق الاشارة الى خطابه لخليفة المسلمين يخبره بان اجداده ظلوا وعلى مدى ثمانمائة وسبعين سنة متواصلة يرسلون هذا المحمل الذي يعرف ايضا بصرة الحرمين الشريفين ، وهي عبارة عن نفائس دارفور – من صادراتها المرغوبة – فترسل للاسواق العالمية فتباع ثم ترسل النقود لاصحاب العطايا الذين يحددهم السلطان ، وتوظف ايضا لانشاء المرافق العامة مثل تاهيل طرق الحج بالمياه

، ونظافة الحرمين ، و كسوة الكعبة ، واعاشة الاغوات ، و مرتبات الائمة والعلماء ، والانفاق على طلبة العلم ، وتأمين الحراسة لقوافل الحج . . وكل ما يتعلق بتاهيل الخدمات العامة في المشاعر المقدسة . وعندما اشتكى الحجاج من قلة المياه في ميقات أهل المدينة ؛ دفع السلطان أموالا لزيادة مواردها بحفر آبار آخرى .

واهتم السلطان بالتعدين والصناعات ، فقد كانت دارفور سباقة منذ عهود في تعدين معدني الحديد والنحاس ، اما الحديد فكان استخراجه امرا شائعا يتولاه اهل كل قرية وخاصة عندما ازدادت الحاجة الى الادوات الزراعية من الفؤوس والمحاريث ، و لصناعة الاسلحة البيضاء ، فخبث الحديد منتشر في كل ارجاء دارفور بشكل ملفت للنظر . كانت الخامة تجمع من فوق المسايل الصغيرة لمياه الامطار (بغربلة التراب الاسود اللامع الذي سال فوقها مياه الامطار بطبق من السعف) ، ثم تضع في فرن من الطين يشبه الدبنقة ، بيد ان له منفذ عند القاع على ارتفاع حوالي الشبر من القاعدة – فيُنصب هذا الفرن الحراري المصنوع من الطين فوق اثافي عالية من الحجر الجيري الذي لا يتطاير كشظايا عند اشتداد الحرارة . بحيث يمكن حشر كمية كبيره من الحطب والفحم تحته ، فيُشعل النار في الحطب بعد ملئ الفرت بخامات الحديد المجمعة والمغربلة ، وفي الفراغات ما بين الاثافي تُضع اصوار فخارية طويلة متصلة بالكير تسمى محليا ب (سوي) ، و ياتي الرجال الاشداء لنفخ الكير بشكل متصل وبرمي متواصل للحطب تحت الفرن ، متحملين القعود قرب درجة الحرارة التي تصهر الحديد ، فغالبا ما يكون مثل هذا النفير تحت تاثير اجواء طقوسية و تشجيعية من النساء . يبدا الحديد الزهر بالانبثاق من الفتحة التي تُركت عند القاع فيتجمد في قوالب فخارية معدة ، يسمى هذا الحديد الزهر بدورا بولود ، اي الحديد البولاد ، و يُشكّل حسب نوع الصناعة المطلوبة .

و الجدير بالذكر انهم توصلوا الى طريقة فيزيائية لجعل مصنوعات الحديد الزهر اكثر صلابة ، وتعرف هذه التقنية بسقي الحديد ، حيث يحمى الفأس المصنوع من الحديد الزهر ويُرمى فجأة في الماء فتنكمش ذراتها عند تعرضها للبرودة الفجائية – فتتقارب اكثر من تقاربها عند التبريد التدريجي ، فحالة كل مادة من حيث انها في حالة الصلابة اوالسيولة او الغازية تُعزى علميا على قوة الشد ما بين جزيئاتها – تعرض الآلة لهذه التجربة لمرات ، وفي كل مرة يتصلب اكثر واكثر ، فهذه طريقة

علمية لصناعة الحديد وجعله صلبا وقد عرفه اهل دارفور من زمن بعيد .

اما عن استخلاص النحاس في دارفور ؛ فنلاحظ اولا حرص السلطان علي دينار على تأكيد تثبيت تبعية منطقة حفرة النحاس للحدود التاريخية لسلطنته بعديد المكاتبات والمناقشات ما بين مبعوثيه والحكومة اثناء ترسيم حدود دارفور ، وقد سبق الاشارة لذلك ، اما ما يتعلق بتقنية استخراج النحاس من اكاسيدها ؛ فقد كان ذلك تطبيقا علميا لعلم الكيمياء ؛ كان يتم تجميع اكاسيد النحاس من التراب و تضع في فرن كالذي وصفناه في استخلاص الحديد ، بيد انهم هنا يأتون باعواد اشجار غير منتشفة ومشبعة بالماء ، مثل اعواد شجرة الرطرط (اللبان) وشجرة القفل ونبات السلعلع ، وتضع مع الخامة في الفرن الحراري ، ومع تسخين الحطب والفحم – الكربون – والماء (من الاشجار اللينة) معا ؛ ينبعث غاز اول اكسيد الكربون وهو غاز مختزل فيقوم باختزال اكاسيد النحاس (نحاسيك ونحاسوز) فنحصل بمعادلة كيميائية على غاز ثاني اكسيد الكربون وعلى مادة النحاس والتي كانت تستخدم في دارفور كزينة و كآنية .

وازدهرت في دارفور صناعة طلقات البنادق وحشو المدافع بالبارود ، وعند غزو الفاشر نشطت المرأة في صناعة الطلقات مساهمة منها في الدفاع عن دينها ووطنها ، كانت تحضر لهن البارود فيحشينها . ومن الصناعات المزدهرة ايضا صناعة الغزل والنسيج فكان القطن يزرع في غالب الاراضي الزراعية بدارفور ، وتُصنّع في كل قرية ، وكانت اثواب الدمور عملة في التبادلات التجارية طوال تاريخ السلطنة الى ان انشأ السلطان علي دينار عملته الوطنية التي كانت تسمى بالرضينا (من الرضاء) ، وجلب مصنعا لصكها في الفاشر . في نهايات الخمسينيات من القرن الماضي كانت المحالج والمناسج المحلية لصناعة الدمور من القطن المزع في مزرعة كل اسرة امرا شائعا في كل بيت في جبل مرة .

و استؤنفت صناعة ملح الطعام (الفلقو) في جبل مرة ، وكانت سلعة نقدية مثل الدمور في المبادلات التجارية ، كان تبخير المياه المالحة تتم من غلايات فخارية مفلطحة ضحمة تنصب على طول الاودية المالحة ، احيانا كانوا يحصلون على المياه عالية الملوحة باخذ التربة المالحة ووضعها في (دوانات) ضخمة مقدودة من الاسفل بعد افتراش قطعة قماش وظيفتها ان تعمل كمصفاة للمياه التي يضعونها في الدوانات

مع التربة المالحة . ترى في منطقة اوم تلالا من التراب الذي استخلص منها ملح الطعام في الازمان الغابرة ، وكذلك تراها حول ضفاف الاودية المالحة في جبل مرة .

اثرت الحرب الطويلة على سلوك افراد المجتمع في دارفور، فكثر المحتالون المتبطلون والمدّعون ، ادعى رجل النبوة وزعم رجل آخر انه النبي عيسى بن مريم عليه السلام ، وقال ثالث انه المهدي المنتظر ، تمت محاكمة الثلاث فاعدموا ، وزعم رجل انه وبنيه يتناسخون من بشر الى اسود ، و طافوا ارجاء دارفور يأكلون اموال الناس تحت تهديد قتل البهائم وربما اكل بعض الاطفال ان جاعوا ولم تُضيّفهم القرية التي يحلون عليها ضيوفا ، كان الرجل قد افلح في استئناس بعض الاسود بالقاء الطعام لها ، فكانت تسير خلفه في تنقله بين القرى ، وكان يتركها قريبا من القرية التي يزورها فتزأر حين يتأخر عليها بالطعام فيصدق الناس ادعاءه بالتناسخ , دفعه حمقه ليحل ضيفا على السطان في فاشره طالبا منه القيام بواجب الضيافة ظانا انه مؤمن مثل السذج بامكانية تناسخ الانسان لحيوان كما كان شائعا في ذلك الزمان ، لكن السلطان الفقيه بالعقيدة الاسلامية اشترط عليه ان يريه بيانا عيانا انه قادر على التحول من بشر الى حيوان الاسد او اي حيوان آخر وبعدها سيعطيه الضيافة الللائقة .

طلب الرجل ان يقاد لبيت نمل ليتمرغ فوق ترابها ، فحمل وطلب ساترا بعد ان تمرغ ولم ينتسخ ، فضرب عليه حجابا من حصير ، ثم زعم انه سيستنسخ تحت ستر الليل ، فامهل حتى الفجر بعد ان احيط بالحراس لكي لا يهرب ليلا ! اشبع المحتال ضربا بالنبابيت (عصي لضرب العُصاة) فلم يخلصه وابناءه من ان يموتوا تحت ضربات النبابيت الا سيقانهم التي اطلقوها لتسابق الريح .

كان السلطان حريصا على صلة ارحامه ، كتب لاخته السيدة مقبولة بنت عمه الامير نورين بن السلطان محمد الفضل ، وهي والدة الامام عبد الرحمن المهدي الرسالة التالية التي حصلت على نسخته من الامام أحمد عبد الرحمن المهدي (بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وءاله مع التسليم .

الى اختنا المكرمة مقبولة بنت والدنا الامير نورين حفظها مولاها آمين ، بعد السلام عليك والسؤال عنك وعن احوالك دائما ، فان جوابك وصل لطرفنا ، وحمدنا الله على عافيتك وصحتك ، والحمد لله على ما هنالك ، فواصلك منا عشرة ابقار

برفقة الرسل المرسولين من ولدك ، المرجو من الله ان يوصلوك بالصحة والسلامة ولأداء التحية وصلة الأرحام ، تحرر هذا اليك أملي ان لا تقطعوا عنا المودة بالأحوال و السلام - 27 شوال 1331 هجري الموافق 1909 م) – مصدرالوثيقة هو الامام احمد بن الامام عبدالرحمن المهدي

4 - ادارة التنوع في البلاد

سكان دارفور الاقدمون هم خليط من القوقازيين والزنوج ، ومن أقدم شعوب البلاد ؛ الفور والتنجر والبرتي والزغاوة والبرقد والميدوب والقمر والمساليت والداجو والميما والتاما والبيقو والبنقا والرونقا والاب درق و المراريت والبديات والسنار، وقبائل صغيرة اخرى لها لغاتها الخاصة ، ولبعض هذه القبائل امتدادات داخل ودّاي كالمساليت مثلا الذين كان جزء قليلا منهم في ودّاي كما ذكر ذلك ناختيقال ، اما المجموعات العربية فيتفاوت دخولها لدارفور من مجموعة لاخرى حيث ان هجرتها للسودان مستمرة حتى الان وخاصة تلك التي قدمت من الغرب ، وتعتبر هجرة عرب الرزيقات النوايبة من اوائل الهجرات العربية لدارفور ، تلتها هجرة بقية مجموعات الرزيقات بفروعها الاخرى ؛ عريقات ومحاميد جلول ومهارية . . ثم مجموعات البني هلبة وغلب عليهم الاختلاط بالفور ، والتعايشة والبني حسين والكنين الطوارق ، فكلها هجرة من الغرب عبر وداي ، اما المعاليا والزيادية والجوامعة وربما الهبانية وبني عمران فهجرة من الشرق عبر كردفان . واستوطن في دارفور منذ عهود قديمة مجموعات كانت لها ممالكها في غرب افريقيا ، فهؤلاء هاجروا لدارفور مثلما هاجر العرب في اوقات مختلفة الا ان هجرتهم اتسمت بالاستقرار لا الترحل وهي الصفة التي لازمت حياة المهاجرين العرب ، ويمكن فقط استثناء الرحل من قبيلة الفلاتة التي شابهت المجموعات العربية في حياة التنقل .

تتكون هذه المجموعة المهاجرة من القبائل الغربية غير العربية من غرب افريقيا ؛ البرنو والفلاتة والبرقو والباقرمة والطوارق ، ومنهم ايضا عرب الشناقيط والمغاربة والفيزان ، أما المهاجرون من الشرق ، فاولاد الريف من المصريين والبلقان ، والجلابة – وهؤلاء مجموعة كبيرة ومتنوعة تضم ابناء قبائل النيل ووسط السودان ممن كانوا يشتغلون بالتجارة ، أضف اليهم مجموعات متعددة من قبائل بحر الغزال ، وباقرما ، والبدالا والرنقا والبنقا . . الخ – فهذا هو التنوع الاثني والعرقي في دارفور ، ولم يكن

فيها تنوع ديني او مذهبي ولا تعصبا على طريقة صوفية . والملمح الثقافي الواضح كان مابين ثقافة المجموعات البدوية وتلك المستقرة ، كان هناك تفاوتا ملحوظا في حظوظهما من التعلم وبالتالي في درجات تدين المجتمعات بتطبيقها لتعاليم الدين . كان وما زال لهذا التفاوت اثرا مدمرا على الالفة الاجتماعية بين هذه المجموعات كلما تهاوت هيبة الدولة . فكان السلطان يدرك اهمية بسط سلطان الدولة على الجميع لضمان الامن والاستقرار والتعايش معا .

منذ زمن طويل كانت المعادلة في دارفور حول خيارين يبدوان في وضع التعارض ؛ هما قيمة الارض كمكنون ومستودع رزق ، ووجود الانسان المستحوذ على الارض والمتعهد بالاعمار ؛ فدارفور وبعد الانفجار السكاني الذي ذكرنا انه حدث يوما ما في هضبة جبل مرة ؛ اصبحت قليلة السكان بسبب من الاسباب التي تحتاج الى اجراء دراسات دقيقة لمعرفة اسبابها ، فكانت كفاءة استغلال الموارد تحتاج الى ايدي عاملة تحفظ معادلة الموارد والسكان . فمن هذه النقطة انطلقت سياسات ادارة التنوع المفروضة على بلاد اختارت ان تكون وطنا مفتوحا للانسان كانسان وفق اعراف يسنّها المجتمع لحفظ المعادلة ما بين قيمة الارض وادخارها لاهلها الاصليين ، وما بين حاجة هؤلاء السكان الاصليين بان تكون موارد ارضهم مستغلة بغيرهم (ايضا) ليستفيدوا منها هم وهؤلاء الذين قدموا لتغطية فارق السكان لارض شاسعة

تندر المعلومات حول هذه القضية في عهود ما قبل اسلام اهل دارفور ، و لكن من المعروف (وقد اشار اليه بروفسور اوفاهي) ان اكتساب المواطنة من اي احد كائنا من كان في دارفور كانت تتم فقط بان يكون الشخص مسلما . ان هذا لا يعني ان دارفور لم تكن وطنا لغير المسلمين ، ان تفسير ذلك ؛ ان اتباع الملل الدينية الاخرى كالمسيحية واليهودية كانوا يُعدّون غرباء وغير مأمونين على امن البلاد خاصة بعد بروز المطامع الاستعمارية لاوروبا في افريقيا ، وقد دفع حقيقة ان المسلم لا يعد مواطنا غريبا في دارفور ؛ اغلب الرحالة الاوربيين وغيرهم من الذين عاشوا في بلاد السودان الى ادعاء الاسلام كما فعل ذلك الرحالة ناختيقال و سلاطين باشا .

اما الوثنيون الافارقة سواء من اصول دارفورية او القادمين من عمق افريقيا فكانوا اهل بلد ولا ينظرون ابدا كغرباء ، كانت نظرة المجتمع اليهم انهم محتاجون للتأهيل ليلحقوا غيرهم الذين سبقوهم باعتناق الاسلام . كانت دارفور سابقة لعهدها دوليا

في تشجيع وتحفيز الهجرة النوعية اليها ، كانت توفر الملاذ الآمن للقادمين ، وتغريهم على الاستقرار بالاعفاء من الضرائب منذ ان اصبحت سلطنة اسلامية متصلة التاريخ في حوالي العام 1400م ، فكانت تستجلب الفقهاء والحرفيين والصناع المهرة والجنود فتمنحهم حواكير الجاه للاستفادة والتعيش من ريع استزراعها ، و كان الارقاء يرتقون للقيادة كلما اظهروا نباهة في الخدمة .

و كان المجتمع وسلطة الدولة حريصتان على اندماج المهاجرين مع اهل البلاد عن طريق معادلة توفيقية ما بين المهاجرين وسكان دارفور القدامي ، هذه المعادلة تقوم على قبول المهاجرين الاندماج في مجتمعات دارفور القديمة وعدم البروز كجزيرة سكانية او كمستعمرة منعزلة لغة وعرقا ، على ان تقوم المجتمعات الدارفورية القديمة بالاستيعاب وعدم النظر للمهاجرين كغرباء او على اساس من الاستعلاء . والحقيقة ان التقاليد الفوراوية تجنح الى تنسيب الناس الى اوطانهم الصغيرة ، فلا توجد عشائرية ولا بطون وافخاذ في التقسيم الداخلي للقبيلة ؛ فمنذ عهود جرت التقاليد على تقسيم الناس حسب حواكيرهم الجغرافية وهذا تقسيم اكبر سعة وأكثر استيعابا من التنسيب الى اصلاب الرجال الذين ينحدرون منهم ، وهذا التقليد ساهم في استيعاب القادمين في المجتمع بتعريفهم كمواطنين لا كقبائل او عشائر، فمثلهم كمثل اهل البلد مواطنين وينتمون فقط لرقاع ادارية في البلد .

السلطان علي دينار ادار التنوع في بلاده على ذات المنهج القديم ، فجميع المهاجرين اكتسبوا كامل حقوق المواطنة في السلطنة على الرغم من ان العديد منهم احتفظ بصلاته بدولة السودان ، ولم تحل انتماءات اصولهم القديمة لخارج دارفور دون توليهم ارفع الوظائف والوزارات في السلطنة ، ولم يُقيّد ذلك تكسب اي شخص من اي عمل يختاره لنفسه . وعالج بحكمته انغلاق اولاد الريف أول أمرهم على أنفسهم بعدم الاندماج في المجتمع الذي هاجروا اليه واختاروا طواعية السكن معهم ، لقد الزمهم السلطان بتعلم لغة الفور ، فلما تعلموها تزاوجوا مع اهل البلد فاندمجوا تماما في المجتمع الذي استوعبهم بدوره .

التنظيم الاداري للدولة :

لم تعد دارفور بعد سني الحرب الطويلة منتظمة اداريا ، اذ عاد السلطان ليجد ان

هناك حوالي ثلاثة انماط من الموظفين العامّين وفقا لخدمتهم تحت الادارة التركية و تحت المهدية وتحت حكم سلاطين الفور ، لكنه لم يعبأ بهذه التصنيفات فادار تنوعهم بابقائهم في مواقعهم القديمة كلما بينوا حرصا على خدمة البلاد ، وبذلك احتفظ قاضي القضاة القاضي ادريس عبد الله الدنقلاوي بمنصبه ، وكذلك نائبه القاضي حمد عبد القادر الذي كان يشغل الوظيفة ايام حكم الانصار لدارفور . وكان البلاط يشكل لوحة ليست فقط من اهل دارفور ؛ وانما من كل اهل السودان الاخرين ، فمثلا مر على قيادة الجيش كل من كيران رزيقي ، وادم رجال ، وتيراب سليمان ، و رمضان علي (برة) وهم من قبائل مختلفة . وتقول دكتورة اخلاص ان جاسوسا للحكومة في بلاط السلطان كتب تقريرا جاء فيه ان عدد جيش السلطان حوالي ثمانية آلاف رجل كما رآهم خلال العرضة ، وانه تحت قيادة دبكة الهلباوي ، ومحمد عثمان المسيري ، وابكر قيقار الفلاتي ، ومقدوم شريف الميدوبي ، وادم تميم الزغاوي ، وادم شرف الدين البرتاوي ، وعمدة من القمر ، وبشارة الفلاتي ، و قائد من البني حسين (11) .

و اما وزير السلطان فكان محمود علي الدادنقاوي الذي كان يحتفظ ايضا بقيادة فرقة في الجيش ، وكان والده فقيها وتعلم على يديه السلطان ابراهيم قرض بن السلطان محمد حسين ، وكان للسلطان مجلسا استشاريا يتكون من الولاة الاربعة ومن الوزراء ومن محمود علي الدادنقاوي ، وحسن سبيل ، وحاجب البلاط سالم ادريس ، وعلي السنوسي قائد الحرس الخاص للسلطان وصهر السلطان ، ومن مصطفى جلقام الذي كان يتولى قيادة لواء في الجيش ، وبخيت ام درمان ، ونلاحظ انهم كانوا من انحاء مختلفة من السودان ودارفور .

لا تزال قصة تعلم اولاد الريف للغة الفور في مدة محدوة التي جاءت الاشارة اليها في فقرة سابقة ؛ شاهدا على سعة افق السلطان وعلى حنكته الادارية ، وحرصه على ادماج ذلك المجتمع القادم من خارج السودان والذي اختار العيش في مدينة الفاشر حاضرة السلطنة . لاحظ السلطان عدم اندياحهم في المجتمع حتى كادوا ان يُكوّنوا جزيرة سكانية معزولة لها لسانها المصري ، ولون بشرتها خلاف لون بشرة المواطنين الآخرين ، انهم لم يمتزجوا وقتئذ بالتزواج مع غيرهم ، فاراد لهم السلطان الاندماج في المجتمع من اجل مصلحتهم هم ، فقرر عليهم ان يتعلموا لغة البلاد ، لقد نجحت

عملية تصاهرهم بعد ذلك مع اهل البلد وترك لنا السلطان تجربة عملية في ادارة التنوع بنظرية الاندماج والاستيعاب .

كما يعد تنصيبه لأمرأة عمدة على ام مراحيك ؛ احدى السوابق الادارية بعد الغاء تقليد افريقي قديم يجيز ولاية المرأة . فالسلطان خرج مع احد معاونيه لمزرعته في سويلينقا ، وعندما قطع الوادي وجد زريبة شوك منظفة حديثا ، فلما سأل قيل له ان هذا مسجد تحت التاسيس تابع للشريف كرار الذي كان السلطان قد عزله لتأخيره للصلاة و لعدم سماحه لغيره بالامامة اذا تاخر هو ، فاستدعاه السلطان وقال له لا اعود من مزرعتي فاجد مسجدك الضرار هذا ! واصل السلطان رحلته لمزرعته ولكن سرعان ما هبت رياح عاتية وامطارا غزيرة ، وكان الوقت عصرا ، فتاه السلطان ورفيقه الى منتصف الليل ، فذهب مع العاصفة يتملس البيوت للايواء ، وكلما طرق بابا ، اطفأ من بالداخل النار وسكت ، فينصرف السلطان وصاحبه لدار آخر ، ولا احد يؤويهما ، والامطار تنهمر ، الى ان دق بابا في اطراف القرية فاستقبلهما امرأة ، قالت لهم ؛ المطر حرابة ، وانا امرأة عزباء ، ولا اريد ان يسمع الناس ان غرباء باتوا عندي ، فتفضلوا ، ولكن مع اول الصباح ارحلا عني قبل ان يحس بكما انسان فيفتري علي بالباطل .

دخل السلطان ورفيقه البيت ، وقامت المرأة بواجب انزال الجوادين وربطهما وتعليفهما ، ثم تفرغت لضيفيها فاخرجت من جرابها اثواب التكاكي ، وطلبت منهما ان يخلعا ملابسهما المبتلة قائلة انها ملابس طاهرة ومحفوظة لتكفينها ، فقامت بغسل ملابسهما و انتشافها ، ثم صنعت لهما طعاما وافترشت لهما برشها وزوت نفسها في ركن التكل ساهرة تشعل النار لتبعث الدفء لضيوفها ، فلم تنم الا قبيل الفجر ، وخرج السطان وصاحبه من دارها دون ان يزعجاها ، فوصلوا الفاشر مع الفجر ، وفي الضحى ارسل السطان من يستدعى المرأة ، وشدد لرسوله لها الا يروّعها ، فجاءت وهي تظن ان الجواسيس نقلوا للسلطان انها ادخلت الرجال في منزلها ، فسارعت تبرر للسلطان ما فعلته بان حياة الضيفين كان في خطر ، وانها تعاملت وفقا للعرف القائل ان المطر كالحرابة ، ولو لا ذلك لتركت الضيفين ينامان تحت اي شجرة ، مع القيام بواجب ارسال الطعام لهما .

سألها السلطان اتعرفين من كان ضيفيك ؟ قالت لا والله ، فأنا لم أتحدث معهما

. قال لها انا كنت ضيفك البارحة ، وانت وحدك التي تستحق ان تتامري على اهل بلدتك لكرمك ، وقد عيناك عمدة على ام مراحيك ، ثم امر لها بعشرين رحل من الجمال تحمل صنوف الاطعمة والهدايا مع خدم وعبيد ، واوصى الا تنازع هي و ذريتها من ادارة ام مراحيك . فالى اليوم العمودية في ذريتها .

وتحكي جدة أمي عليهن الرحمة عن عدل السلطان علي دينار قائلة : تعرضت إحدى بناتي لضرب من زوجها ، فذهبت اليه وقلت : أنت تضرب ابتي ؟ فسابّني وقال أنّي (مرفعينة) ، فاشهدت له على ذلك الرجال ، ثم انطلقت وحيدة بلا زاد الا الماء من طرة للفاشر . قالت ولم أجد صعوبة في مقابلة السلطان الذي استمع باهتمام لشكواي ، ثم سألني السلطان عن الحكم الذي اريدها ضد صهري العائق ، قلت له : أريد تطليق ابنتي منه .

فارسل السلطان معي اربعة من الجنود ، فأمرهم بأن يطلبوا من الرجل فراق ابنتي بالطلاق ، وان أبى فعليهم إحضاره للفاشر ، فلما عدت ومعي الجنود فزع الرجل فزعا شديدا فطلق لي بنتي . نقول ؛ فهذا دليل على انصاف السلطان للمرأة تضاف لجملة من الوقائع التاريخية التي هبّ فيها السلطان بالاستجابة السريعة لانصافهن بعدل ناجز لا تباطؤ فيه .

نورد هنا نص اعلام شرعي في قضية نزاع حول ارض لنتبين امر فصل السلطات في السلطنة ، فالسلطان كان يفصل في القضايا فقط لتأكيد مسألة العدالة الناجزة من خلال فصله لقضايا المتظلمين الذين يجلسون تحت شجرة القاضي الاطرش ، وبالطبع كان يتحرى العدل ويستشير الفقهاء لتأكيد صدور الاحكام متوافقة مع روح الشريعة الاسلامية ، وستجدون امور عدة يمكن استخلاصها من هذا النص الذي بين أيديكم : -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وءاله مع التسليم .

أما بعد : فهذا اعلام شرعي مقتضاه .

حضر لدينا بمجلس القضاء شرفه الله تعالى أبوه هذا ولد أحمد إمام جامع ترّه ؛

وأحضر معه أحمد دخان هذا شرتاية ترّه ، وبعد استقرارهما بمجلس الشرع ، احضرت لهما الشهود ؛ فادعى هذا الذي على هذا الذي أحضره معه وقال في دعواه عليه : اني لي قطعة أرض يقال لها أمُ تُقى كاينة بجهة ترّه ، لها حدود معلومة وهي ؛ من جهة الريح بوباية العجوزأم رحمة ، ومن جهة الغرب قريود تويو ، ومن جهة الصعيد توسه ، ومن جهة الصباح خور كارنقو وبوباية الحلة دنقو . هي ملكا لي من أبي وجدي منقطع لجدي الحاج صالح اقطاع من السلطان عبد الرحمن الرشيد أعني هبة ذلك ، وقتها كانت قفارا وقد عمرها جدي المذكور وواصله بالزراعة ووضع يده عليها وصار ممتلكها وقت حياته ، وبعد ان توفي امتلكها والدي أحمد ، وحاز وتصرف فيها الى ان فارق الحياة الدنيا ، ثم صارت لي أنا بالارث من والدي في مدة الترك ، ووضعت يدي عليها من تلك المدة ولغاية الآن لم يعترضني فيها أحد ولم تخرج من يدي بناقل شرعي إلّا ما كان من احمد دخان هذا ، تعرضني فيها بالعام الماضي الذي هو عام 1221 هجرية ، واغتصبه مني بما فيها من الخضار بصل وغيره ، مع انه مقيم معي بمحل واحد ، وهذه المدة كلها حاضر وساكت ولم يحصل منه تكلم كلية ، وما دام كذلك حضرت ارغب استلامها منه وتسليمه لي وذلك بوجه الحق آه . .

بعد الاعذار اليه سئل أحمد دخان شرتاية ترّه المدعا عليه بجواب عن ذلك فاجاب قائلا : - قضية الارض المدعي فيها ابوه احمد هذا هي ضمن جهات ترّه ، وكان جدي الشرتاي كفوت اعطى لجده الحاج صالح لأجل الزراعة فقط ، ويعطيه خراجها ، وقد اجرى اصلاحها بالزراعة ، وفي كل عام كان يؤدي خراجها للشرتاي كفوت الى ان توفي .

وأبوه هذا بعد امتلاكي اليها طلبت ان يعطيني الخراج كعادة جده مع جدي ولأجل ذلك لم يحصل مني تكلم معه في الارض المذكورة في المدة التي ذكرها بدعواه ، وبالعام الماضي طلبت منه خراج الارض وتوقف لي به ، و لأجل توقفه لي بالخراج استلمت منه الارض المذكورة كونه ليس ممتلك عليها ، ارغب منعه منها وهذا جوابي آه .

فلما تقررت الدعوى والجواب لدينا على هكذا . شاورنا العلماء ومنعنا احمد دخان شرتاية جهة ترّه من ارض ام تقى حيث اقر انه حاضر وساكت وقطعنا نزاعه منها وحكمنا لأبوه ولد أحمد المدعي بها ، واستلمناه من احمد دخان شرتاية ترّه

وسلمناها اليه حكما ابرمته ، وقضاء نفذته ، متجمعا شرائط صحته ونفاذه بمحضر كل من هذين المتخاصمين وفي وجودهما ، واشهدت عليه كلا من الفقيه الزبير وعلي ولد بخاري وعثمان عبد الرحمن جو وعبد الله وغيرهم من الحاضرين ، والله تعالى خير الشاهدين

وكيل محكمة الفاشر

حمد عبد القادر

25 صفر سنة 1222 هجرية (13)

الهوامش

1- ثيوبولد — المترجمة ص 31 — 32

2- نفس المصدر ص 32 -

3 - نفس المصدر ص 32 — 34

4 — نفس المصدر ص 34 — 35

5 — نفس المصدر ص ، 139

6 — نفس المصدر ، ص 58 -59

7 — نفس المصدر ، ص 45 — 47

8 —نفس المصدر ص 49 - 51

9 — امين محمود، سلطنة الفور الاسلامية ، مصدر سابق ص 228

10 — ثيوبولد — المترجمة ، مصدر سابق ص 149

11 — اخلاص حمد ، غزو دارفور 1916 م التخطيط و التنفيذ

12 – ثيوبولد المترجمة ، مصدر سابق ص 158

13 – نص الوثيقة من المحفوظات التي لدي خزانة الاسرة في طرة

الفصل السادس

غزو دارفور

التاريخ يعيد نفسه عند البعض ولا يعيد عند أخرين ، ان تجاربه دون شك تُستنسخ ، ولكن النسخ يمكن ابطاله بمن يعتبر بعبر التاريخ ! لان قوة الارادة هي الطاقة الموجهة لمسارات الاحداث التاريخية ، فبقوة الارادة نمنع تكرار ما يضر، وبضعف قوة ارادتنا نُمكّن الاعداء لما يريدون لنا من شر . فتكرار الاحداث التاريخية مقارعة ما بين قوتين تفوز في محصلتها الارادة القوية العنيدة لا القوة الغاشمة . قال تعالى (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما) النساء : 104 .

بهذه العبارات ابدأ تناول هذا الفصل المؤلم في التاريخ ، والنفس مثقل برسيب هائل من اهوال ما شهدته عيانا من اهوال الحروب المتكررة بتخطيطها ومظاهرها . لقد صورت الدكتورة اخلاص حمد استاذة التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الفاشر عبر رسالتها للدكتوراة بعنوان غزو دارفور 1916 التخطيط والتنفيذ ، فبيّنت ما هو المكرر التاريخي على دارفور .. كفتني مقابلة احداث ومظاهر الحرب في دارفور منذ العام 2002 م ، بالاعداد لغزوها وأحداثها من قبل الاستعمار . لقد اعادالتاريخ نفسه بسريان وقائع غزو دارفور في 1916 م على اهلها في 2002 م وما بعدها .

اسباب الغزو

1 – كان الجيش الغازي ورغم تفوقه بالعتاد الحربي وهزيمته للانصار في كرري

مأخوذا بالمفاجأة من الاندفاع السريع والناجح للسلطان علي دينار باستعادته للدولة بدارفور ، فخطتهم قامت على الدفع بعميلهم ابراهيم علي لاحتلال دارفور متزامنا او حتى قبل دخولهم للخرطوم . فلما تباطأ أفسد عليهم تدبيرهم ، فوجدوا انفسهم امام واقع فرض نفسه متمثلا في استعادة السلطان علي دينار لملك اجداده . وادركوا انهم لن يطردوه من حكم بلاده الا بتكرار تجربة تاريخية حاولوا اخذ العبرة من فشلها ، فحذروا تكرار استخدام القوة لتطويع اهل دارفور ، فهي غير مأمونة الولاء ومشكوكة الانداياح في السودان ! وظلت هذه النظرة حاضرة طوال حكمهم وموصىً بها عند التسليم والتسلم بعد استقلال السودان في العام 1956 م . فدارفور بعد اول احتلالها من قبل الزبير باشا في اكتوبر 1874 م ؛ لم تستكن للاستعمار كما استكانت السلطنة الزرقاء بعد غزوها واحتلاها من قبل محمد علي باشا في العام 1820 م ، إذ قامت فيها مقاومة من ورثة شرعيين جاهدوا واستشهدوا لاستعادة الاستقلال ، ولم تتوقف الدعوة للاستقلال حتى بعد خروج المصريين بالثورة المهدية التي وجدت هي الاخرى المقاومة العارمة بقيادة سلاطين ظلوا يطالبون حكما تاريخيا ، فكلما سقط شهيد رفع لواء المقاومة سلطان وريث من ذات سلالة السلاطين .

فالمعرفة بطبيعة انسان دارفور ورفضه للحكم الاجنبي ، واحتياج الاستعمار لوقت يمكن فيه قبضته على السودان المحتل ؛ كان هو العامل الاساسي الذي اوقف تحرك الغزاة نحو احتلال دارفور فور انتصارهم في كرري . وما ان استقرت لهم أحوال السودان بخنوع اهلها وبعدم ظهور حركة مقاومة للاستعمار بعد المهدية ، وبعد فلاح المستعمر في تجنيد العساكر الضامنين لاستمرار حكمهم من السودانيين أنفسهم ، او حتى استعداد هؤلاء الجنود السودانين العاملين مع الاستعمار قبول دفعهم لاحتلال دارفور ؛ حتى قرر الاستعمار غزو دارفور .

2 – التوجهات الاسلامية الثورية في خطاب السلطان ، او الخطر الذي مثله السلطان بالهاب المشاعر الاسلامية ضد الانجليز كسبب قوي للغزو ، ذكرنا قول تريمنجهام في كتابه الاسلام في السودان ؛ انه لا توجد كلمة يمكن ان تحشد وتجمع المسلمين وتعبئهم على الجهاد اكثر من الصيحة (الاسلام في خطر) . ولقد كان الخطاب الديني للسلطان علي دينار دوما مصدرا للخطر على حكم الانجليز ، ليس فقط على السودان وانما على المائة مليون مسلم الذين كانوا في زمانه تحت التاج

البريطاني ، كان السلطان يذكرهم فيخيفهم بخطابه الديني بالثورة المهدية ، وكان اعداء السلطان ايضا يفزعون الانجليز بالزعم ان علي دينار يسعى لاحداث ثورة دينية كالتي قادها الامام محمد احمد المهدي وقتل فيها غردون باشا .

ساسرد هنا ملخصات لرسائل السلطان التي تبين قوة خطابه الديني للانجليز ، و اكتفي بالتلخيص لان نصوصها الكاملة موجودة في كتابي سلطنة الفور الاسلامية و لا اريد التكرار ؛ اذ نقلت بريطانيا اخبار الحرب للسلطان بخطاب من الحاكم العام في الثالث من اغسطس 1914 م ، وقال ان بريطانيا مشتركة فيها ، ثم طلبت من السلطان اعتقال مواطنيه الذين يطلقون الاشاعات ويروجونها ضد الانجليز وارسالهم للخرطوم لمعاقبتهم ، وان بريطانيا ارسلت قوات عظيمة لمصر . وان تركيا (دولة الخلافة دخلت الحرب ضد بريطانيا ، وان الزعامات الدينية في السودان ممثلة في السيد علي الميرغني و يوسف الهندي سارعت بتأييد الانجليز وبادانة دولة الخلافة الاسلامية ، وارادا بايعاز من الانجليز التأثير في موقف السلطان علي دينار للوقوف مع الانجليز . وفي 12 نوفمبر بيّن السلطان علي دينار موقفه للحاكم العام ، بانه فهم فحوى رسالتيه ، وانه غير سعيد بالحرب . وانه كان قبل الحرب واثقا من الحكومة ، الا انه تأكد ان الحكومة عازمة على غزو بلاده هذا العام ، فاخذ استعداداته لمجابهة ما يحدث دون خوف او فزع ، وانه سيقاتل من يقاتله متوكلا على الله . . واما عن يوسف الهندي وعلي الميرغني فان شرفهما امر خاص بهما ، وانه ليس معنيا بما يلتزمان به للانجليز، ويردف الخطاب بهذه العبارات القوية ؛ لقد ذكرت سعادتكم انكم لم تفعلوا شيئاً في معاداة الاسلام ، ولكنك قد فعلت كل شئ لتكذيبه و تزويره ، ولم يبق شيئاً في الاسلام لم تمسه ، وعليه فاننا نرجو الله ان يحكم بيننا وبينكم وهو احكم الحاكمين .

و عندما ازيح عباس حلمي خديوي مصر ، ووضعت مصر تحت الحماية البريطانية في 18 / 12 / 1914 م ظنا من الانجليز بانه موال لتركيا ؛ اخطر الحاكم العام السلطان علي دينار بالتطورات في مصر ، فاستشاط السلطان غضبا ، فكتب للحاكم العام قائلا : - الم يخطر لك ان الملك لله الواحد الاحد الغالب ؟ . . ان ارض مصر التابعة لعباس انبل واعز منك ومن بلادك ايضا ، وانا ادهش لجهلك و افتخارك بعددك وقوتك وجيشك ، الا تعلم ان القوة لله جميعاً ؟ . . انني لا اعير اي اهتمام لتهديدك، لانني اؤمن بالله ، واتوكل على الله خالقي . ان الاموال التي ارسلتها لك من بلادي

قبل ان تحنث بعهدك لم اكن راضيا بدفعها منذ البداية ، و الحقيقة هي ان الاتفاق قد تم مع الوسطاء لوقف الاعمال العدائية ، وقدّرنا نحن قدر هؤلاء الوسطاء وبعثنا لكم الاموال ، اما الآن وقد شرعت في تهديدي فاقسم بالله العظيم انني ساحاربك ولو بسيفي وحصاني وحدهما لاجدد الاسلام دين ربي ، ان دافعي هو احياء الجهاد . . الله ربي و محمد صلى الله عليه وسلم هو نبيي ، والاسلام ديني ، والقرآن دستوري وقائدي ، والسنة سبيلي وطريقي ، والمؤمنون اخوتي ولا ابالي بمن يعاديني ، وسأرده خائبا ، وليكفك هذا الآن) (1) ؛ انها كلمات اشبه بما رددها الشهيد الامام حسن البنا ، والسيد جمال الدين الافغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده و الشيخ رشيد رضا بعد السلطان علي دينار باكثر من عقدين من عهده ، فصارت كلمات قائدة وشعارات في دعوات الحركات الاسلامية الجديدة المنطلقة من مشكاة واحدة !

رد السير ريجنالد ونجت الحاكم العام على خطاب السلطان بشأن عباس حلمي ؛ وحاول خداع السلطان ، وانّبه على حدته معه على الرغم من انه يكتب اليه بلهجة مليئة بالحب والاخاء ، وقال الحاكم العام في رسالته ؛ ان السلطان بمثابة الابن وانه بمثابة الاب ، فرد عليه السلطان : - كيف يمكن ان اكون لك ابنا وانا مسلم وابن مسلم ، وانت نصراني وابن نصراني ؟ لن تكون هناك صداقة بيننا وانت لن تحكمني ولن تكون لك ولاية علينا لأن ولينا هو الله الذي نخشاه وحده . . . لقد ذكرت ان دارفور دفعت ضريبة بسيطة وانك لم تزدها . . وانت تعلم انك لم تعمل شيئاً تستحق عليه قرشا واحدا من دارفور التي ستعلم ان لها رباً يحميها .. وذكرت ان تحت امبراطوريتك مائة مليون مسلم يساعدون حكومتك باخلاص ، وانك تعاملهم كاخوان وانا لا اهتم بعددهم كثيرون او قلة ، لأن الله هو المعين وهو الذي ينصرنا . . وذكرت ان هناك عدة اسباب من خلال رسالتي الاخيرة تستوجب ايذائي ! وانا اتساءل ما ذا تظن نفسك ؟ هل انت ملك السماء والارض ؟ ان الله هو القادر ، و اذا شاء فسيأخذك وسيأتي بآخرين . . واشارتك لقواتك العظيمة في مصر والتي ستجلبها للاستيلاء على بلادي ؛ فان ثقتي كلها في الله ، ولن يصيبنا الا ما كتب الله لنا . . واخيرا ما ذكرته حول رغبتكم في اعادة الصداقة بيننا ، فان ذلك كله كذب و مستحيل ولا اود ان اعتمد على الخديعة والكذب ، انا لا اعتدي على احد ولكنني على استعداد لرد كل من يعتدي علي (2) .

في 28 يناير 1916 م كتب السلطان للسيد احمد الشريف قائد الحركة السنوسية قائلا : – اننا دُفعنا بحميّة الدين ، بايمان متقد وبقدرة الله تعالى للدفاع عن دين الله من الكفار المناوئين للشريعة الاسلامية والذين يحكمون دولة السودان جارتنا ، اننا قريبا سنعلن الجهاد ضدهم نصرة لله تعالى ، وستسمعون كيف يعاني اعداء الله العذاب بايدينا . . ان المسلمين في شرق السودان الخاضعين للاستعمار البريطاني قد فتنوا واستسلموا للنصرانية وهجروا تعاليم الاسلام ، ان نبلاءهم واشرافهم (يقصد علي الميرغني ، والشريف يوسف الهندي) قد كتبوا اليّ وطلبوا مني ان اتبع النصارى الكافرين ، محاولين بذلك ان يضلونا عن سواء السبيل ، الا اننا لم نستمع اليهم ، مرفق لكم خطاباتهم الكاذبة واخبارهم في جرائدهم وهم يثنون على الحكومة البريطانية للاطلاع عليها . .

وكتب لسلطان المسلمين في تركيا مخاطبا اياه بابلغ عبارات التعظيم – الى صاحب العظمة ، صاحب الجلالة ، جلالة الامبراطور المعظم ، سلطان القارتين ، وحارس الحرمين الشريفين ، حامي الدين وامير المؤمنين السلطان محمد رشاد الدين – معبرا له عن خيبة امله وغضبه على موالاة من نصبوا انفسهم حماة للاسلام وزعموا انهم قادته في السودان ممن والوا الكافرين ، وكيف انه وبمجرد ان اخبران سلطان المسلمين اعلن الجهاد ضد الكلاب الانجليز والفرنسيين والايطاليين وكل النصارى الصليبيين ؛ اعلن وقوفه وتأييده له ، وقال انه على يقين ان الله سينصر سلطان المسلمين على اعدائه، اما عن المسلمين في السودان فقد قال السلطان علي دينار عنهم لخليفة المسلمين ؛ ان قلوبهم تأثرت بمحبة الكفرة اعداء الاسلام ، وانه يعتقد ان هؤلاء الضالين لن يفيئوا الى الحق الا بعد اعلان الجهاد عليهم (3)

3 – الاطماع الفرنسية والسكوت الانجليزي ؛ استولى الفرنسيون على ابشي عاصمة وداي في الثاني من يونيو 1909 م ، وتوجهت اطماعهم لدارفور بقصد استقطاع اجزاء منها وضمها لمستعمراتهم ، فتقدمت قواتهم لدارقمر فتلقت رسالة من السلطان ادريس الذي عرض خضوعه لهم مما عزز الادعاء الفرنسي بتبعية كل من دارقمر ودار تاما ودارمساليت لوداي التي صارت باردة لهم !

في 4 يناير 1910م ، اصطدمت القوات الفرنسية عند توجهها نحو دارمساليت في بيرطويل بقوات السلطان تاج الدين فابيدت ولم ينج من الفرنسيين الا ثمانية جنود

، وغزا السلطان علي دينار دارقمر لمعاقبة سلطانها ادريس في يناير 1910 م ، فهرب ادريس لدار تاما ، وفي فبراير دخلت قوات المساليت دارتاما فهرب سلطانها الدمية الذي نصبه الفرنسيون ، الا ان الفرنسيين غزوا مرة اخرى دار تامة فاعادوا تنصيب حسن ، ولكن استطاع القائد ادم رجال غزو دار تامة واعادتها لحوزة دارفور وتنصيب عثمان خلفا لحسن ، ثم توغل لداخل ودّاي . رغم ذلك لم تتوقف الاطماع الفرنسية حيث اجبروا اندوكة سلطان المساليت على توقيع معاهدة مجحفة تخلى بموجبها عن ثلث ارض دارمساليت التابعة لدارفور مقابل الاعتراف به سلطانا (4) .

في 1912 م قتل الفرنسيون السطان عبد الرحمن فرتي سلطان الزغاوة كوبي ، وغضب السلطان علي دينار غضبا شديدا فكتب للانجليز ؛ لقد اغضبني هذا الحادث غضبا شديدا ، فاذا لم تتوقف الجيوش الفرنسية من مهاجمة وقتل رجالي من وقت لآخر فاننا لن ننعم بالسلام مطلقا . وبناء على هذا اخطرتكم ، فان يكن الامر يهمكم ، فعليكم التحرك الفوري مع السلطات الفرنسية من اجل السلام في المنطقة ؛ والا فدعونا نموت مجاهدة لهم فالموت من اجل الدين و الكرامة الوطنية افضل لنا . . .

من هو السلطان عبد الرحمن فرتي الذي غضب من اجله السلطان على دينار مثل هذه الغضبة ؟ يقول المهندس ابو بكر حامد نور :- انه تولى السلطة في العام 1879 م ونصب بواسطة سلطان وداي (كانت دارفوروقتها تحت مقاومة الحكم التركي منذ 1875 م) وتبع وداي ستة سنوات ، ثم استقل ، وعندما عاد السلطان علي دينار لدارفور 1898 عاد لتبعية سلطنة دارفور . عندما تقدمت سنه استفتى فقيها في عمل يدخله الجنة ، فقيل انه خيره ما بين ثلاث اعمال تدخل صاحبها الجنة ؛ الهجرة للخلوة وحفظ القرآن الكريم ، او الذهاب للحج والمجاورة حتى الموت ، او نيل الشهادة مدافعا عن دينه وارضه وعرضه ضد النصارى الفرنسيين . فاختار الجهاد واستفز ابناءه وحرضهم على الثبات وعلى عدم نقله لمكان آمن وقد علم بساعة هجوم الفرنسيين لمكان اقامته ، استشهد مع خمسة عشرة من عشيرته المقربين بتاريخ الاثنين الخامس عشر من ديسمبر عام 1912 م في منطقة الطينة ووري فيها بعد حكم دام لثلاث وثلاثين عاما .

بعدها ، حاولت الحكومة امتصاص غضب السلطان علي دينار ، فرد السلطان :
- تلقينا ردكم على ما كتبناه لكم بشأن دخول الفرنسيون الى حدودنا ؛ اننا لا نخشى

الا الله ، ويجب ان يكون واضحا لسعادتكم انني غير مستعد ما دمت حيا لاتخلى لفرنسا عن حدود دارفور التي كانت ملكا لآبائي واجدادي . لن نتردد ابدا في قتالهم اذا ما عبروا حدودنا واعتدوا علينا . اننا على استعداد للقتال حتى آخر رجل ولن يمنعنا شئ عن حدودنا الا الموت . . . ثم كتب لقائد جيشه ادم رجال يستحثه على الجهاد ضد الفرنسيين : سيجازيكم الله و يهبكم نعيم الجنة ، انكم جند الله المنتصرين، و سيخزي الله بلا شك اعداء الله . تأكدوا من النصر وقفوا بصلابة امام الكفار .

كان الفرنسيون ولمواقف السلطان ضد اطماعهم في دار تاما ودار قمر ودار مساليت ؛ قد اشترطوا على الانجليز عدم اشراك السلطان في اي مباحثات تُجرى بين الانجليز والفرنسيين لترسيم الحدود ما بين ودّاي ودارفور على الرغم من استناد ترسيم الحدود ما بين دارفور وتشاد على الاتفاقية الانجليزية الفرنسية في 21 مارس 1899 م والتي نصت فقرتها الثانية على ان الحدود من حيث المبدأ سيكون حدود كل من ودّاي ودارفور في العام 1882 م .

وفي العاشر من يناير 1911 م كتب الحاكم العام الى جورست ؛ اذا اخلت الحكومة الفرنسية دارتاما ودارمساليت واعترفت بترجا حدا ما بين وداي ودارفور ؛ فاننا سنكون مسئولين عن السلام ، والا ستكون هناك اعمال عدائية ضد ودّاي ، كما لن تمنح اية مساعدة للقبائل الخاضعة للحكومة الفرنسية . ومن جهة اخرى لا يمكننا ان نعد بالسيطرة على افعال علي دينار في المستقبل اذا بقيت القوات الفرنسية محتلة لهذه الاقاليم التي تسمى بالمحتلة (5).

كان واضحا ان الاطماع الفرنسية شكلت نقطة خلاف اسهمت في فقدان ثقة السلطان بالانجليز بما كان يرى من سكوتهم على التجاوزات الفرنسية .

4 – الاطماع الاستعمارية في حفرة النحاس ؛ هذه منطقة غنية بالمعادن النفيسة، و كان الانجليز يعرفون وفرة الموارد المعدنية في حفرة النحاس وكافيا قانجي وكفن دبي ، وكانوا طامعين فيها بنزعها من دارفور واضافتها لمديرية بحر الغزال على خلفية خطة استراتيجية لفصل جنوب السودان على المدى البعيد ، فالمنطقة غنية في ثرواتها المعدنية وتشبه منطقة الكاتنقا ، ولقد دخل مدير مديرية بحر الغزال للمنطقة فقام بتعذيب الشيوخ ورفع للعلم فوق المنطقة ، فمخاطب السلطان الحاكم العام بخصوص قيام

اجانب بلجيك او فرنسيين بالدخول في بلده دون اذن ، واوضح الحاكم العام ان من قام برفع العلم موظفون تابعون لبحر الغزال ، وانهم ضلوا سبيلهم ! (بينا كل ذلك في كتابنا سلطنة الفور الاسلامية) . ونمى لعلم السلطان ان مدير كردفان يريد زيارة حفرة النحاس ، فارسل رسالة للمفتش العام في الثالث من اكتوبر 1902 م جاء فيه (انك تعلم امر اهل دارفور وخفة رؤوسهم ، والحدود جميعها بها نقاط من رجالنا للمحافظة على الديار ، واغلب رجالنا في نقاط من جهة الشرق والشمال والصعيد ، مثل شكا والكلكة ، وقد بلغنا ان مدير كردفان قادم الى دارفور بطريق شكا والكلكة ، فاذا حدث هذا الامر تحدث الزعزعة للاهالي والاشتباك مع رجالنا بالحدود ، وينتشر الجند في جميع الاقطار ، وما دمت نائبا عنكم ، وكان هناك امر ضروري لكم بحفرة النحاس اخبروني به ، وانا اقوم بقضائه نائبا عن الحكومة) .

ردت الحكومة عليه (اخبركم بان ما جاء باحدى خطاباتكم عن عزم المدير للتوجه لحفرة النحاس عن طريق شكا خبر مختلق لا نصيب له من الصحة ، قابلني المدير وتوجه معي الى الاضية ، ومن هناك توجه الى دارحمر لاننا نعلم ان جيوش الحكومة اذا دخلت حدودكم فذلك يسبب زعزعة وهرج ، لا يتوجه احد من رجال الحكومة الى بلادك دون اخطارك وتوضيح الاسباب) (6)

حذر السلطان الحكومة بعد حادثة دخول مفتش بحر الغزال لحفرة النحاس بالّا تخطأ مرة اخرى بدخول اراضي دارفور من دون اذن سابق ، ومن الواضح ان اطماعهم على المنطقة استمرت حتى بعد غزو دارفور عام 1916م ، كما نشأت مقاومة عنيدة من البنقا بعد احتلال دارفور ووصول السلطان ادم عبد الله (دس) لكفيا قانجي وترأسه لقبيلته . وحاول الانجليز مرة اخرى في العشرينات من القرن السابق اتباع المنطقة لبحر العزال وتنصير اهلها فبنوا فيها كنيسة ، ولكن المواطنون احرقوا الكنيسة، فقام الانجليز باحراق كفيا قانجي وقاموا بعمليات تهجير قسري للسكان بعضهم تجاه بحر الغزال ، والبعض تجاه الردووم (7) .

و لكن لعبتهم الكبرى والمدسوسة كانت في تعديل حدود المديريات في السودان عشية خروجهم في 1 / 1 / 1956 م ، فقد وضعوا منطقة حفرة النحاس وكفيا قانجي وكفن دبي داخل حدود مديرية بحر الغزال ، ولكن من الناحية العملية لم تبسط بحر الغزال سيطرتها على المنطقة حتى بعد منح جنوب السودان الحكم الذاتي الاقليمي

بموجب اتفاقية اديس ابا با والتي حددت حدود الجنوب بخارطة الاول من يناير 1956 م المزيفة . وكانت من اقوى هتافات انتفاضة دارفور ضد الطيب المرضي رحمه الله العام 1981 م ؛ تلك التي تخص بعدم المساس بالحدود التاريخية لدارفور من الجنوب مناطق حفرة النحاس وكفيا قنجي وكفن دبي ، ومن الشمال امتداد حدودها لمصر وليبيا وبئر النطرون . كان الهتاف تعود تعود ارضنا السليبة .

5 – تحريض القبائل على العصيان ؛ فعلى الرغم من كثرة ورود كلمة (بلادك) في مراسلات الانجليز للسلطان كاعتراف بان دارفور كيان مستقل ، الا ان الوحدة بالتواصل كانت سمة اجتماعية في السودان مفروضة بالجغرافيا الطبيعية والبشرية ، وكذا وحدة التاريخ القديم والحديث – وعلى الرغم من ذلك – فان الاستعمار ظل ولاغراضه يتعامل مع هذا الواقع وفقا لمصالحه . و دأب على توظيف القبائل حسب استراتيجية قصدها التفريق ما بين مكونات وطن يتحكم الجغرافيا والتاريخ والدين في فرض الوحدة بين شعوبه بتواصلهم غير عابئين بالحدود السياسية ، كان الاستعمار يفاضل في سياساته ما بين القبائل ، فيعد بعضها بالحماية والمسئولية عليها ، و ان كان يعلم انها خارج حدود دولته المعلنة ، بل كان يقوم بتحريضها و تشجيعها على السرقة وقطع الطريق وقتل المسافرين بمن فيهم حجاج بيت الله الحرام ورسل دارفور للحكومة ، ثم عبور حدود دارفور بعد كل اجرام والاحتماء بالمنطقة التي تحت سيطرة الاستعمار ، وتقول دكتورة اخلاص علي حمد (كتب علي دينار خطابا لمدير كردفان يشكو اليه الرزيقات وقطعهم للطريق وقتل المسافرين وقتل رسله الذين ارسلهم للحكومة ، وفرارهم لكردفان ، فوعده سلاطين بارجاع القبائل التابعة لدارفور اليها . . وتمضي قائلة يلاحظ ان الحاكم العام تدخل لاقناع السلطان بفك اسر موسى مادبو رغم شكاوي السلطان المتكررة من الرزيقات وسلوكهم معه ، وهذا دليل واضح على ان حكومة السودان كانت تريد للنار المشتعلة بين السلطان والرزيقات ان تتأجج . . . وتقول اخلاص ؛ ان المراسلات ظلت مستمرة ما بين موسى مادبو والحكومة ، ففي رسالة من موسى مادبو الى مفتش عموم السودان بتاريخ 22 صفر 1329 هجري الموافق 22 فبراير 1911 ذكر موسى في خطابه – بخصوص الاذعان والطاعة لسيدنا امير المؤمنين و سلطاننا على حسب امركم على ما يرام ، معاذ الله ان نخالف امركم . . واصلين اليكم اولادنا الزبير ومحمود يخبروك باحوال البلد شفاهيا ، والامر مفوض لسعادتكم – ولقد علقت الدكتورة اخلاص على هذا بالاتي (من هذه الرسالة

نرى ان الحكومة بدأت تطلب من موسى مادبو الاذعان لعلي دينار من جانب ، وتستخدمه لنقل المعلومات عن البلد من جانب آخر ، والدليل على ذلك ان موسى مادبو قد ارسل اثنين لنقل الاخبار شفاهية الى مفتش عموم السودان ، و يُرجح ان الحكومة لم تطلب من موسى الاذعان للسلطان الا خوفا من تنامي قوته ، خاصة ان ذلك الطلب كان في نهايات عهد السلطان علي دينار عام 1911 م .) . .

وتمضي الدكتورة اخلاص قائلة ؛ يرجح ان مأمور النهود اراد ان يستغل فرصة الشقاق بين السلطان علي دينار والرزيقات بحجة كبح جماح العربان ، وذلك بادخال عساكر الحكومة الى منطقة الرزيقات ظنا منه ان السلطان سيوافقه على ذلك الامر ، ولقد برر السير ونجت خروج العربان المستمر على السلطان بانها خارجة عن طوع زعيمها موسى مادبو ، ولا يمكن قيادها ، و بهذا التبرير حاول ونجت خداع السلطان بمحتوى خطابه له بتاريخ 1911 م الذي قال فيه للسلطان ان موسى مادبو اثنى على السلطان عندما ارسل العشرين رجلا لمساعدته في امر العربان .. وزعم الحاكم العام ان العربان ليست في يده ، ولا يمكن قيادها (8) .

وتستعرض الدكتورة اخلاص مثالا آخر للصعوبات التي واجهت السلطان مبكرا لتمكين سلطته هذه المرة مع المعاليا ، ففي يناير 1900 م خاطب السلطان زعيم المعاليا بالخطاب التالي ؛ لو اننا نؤاخذ الاهالي بافعالهم لما كان عينّاك لدار المعاليا ، وايدناك واكرمناك . . . ولا كانت دارفور على هذه الحالة ، وعلى الاخص انتم المعاليا لو اننا نعاملكم بافعالكم لعدمتو ، ولا سيما انك عاهدتنا بكتاب الله تعالى بان تهدي الاهالي وتدلهم للعمار .. . و شقيقكم نورين يقيم معنا في احسن حال ، ولو قصدنا اعدامه فماذا يمنعنا ما دام انكم خلفتم وظهرت منكم الخيانة وخراب الدار ؟ فمعاذ الله ان نكون جبابرة ، بل اهل شفقة) . التاريخ 4 ربيع الآخر 1318 هجري الموافق الاول من اغسطس 1900 .

و تمضي اخلاص فتقول ان حسن وراق الذي اوكل اليه مهمة مطاردة عربي دفع الله كتب لمدير المخابرات العسكرية وذكر له انه تم ارسال مائتين من القوات النظامية الى شكا لحماية الناس من علي دينار ، فهذا دليل واضح يبين نوايا حكومة السودان تجاه السلطان علي دينار ، فبمجرد تفكيرها في ارسال فرقة لحماية العربان يُرجح انها كانت تريد كسب جانب هذه القبائل العربية وتشجيعها على مناوأة السلطان (9)

6 – فقدان السلطان الثقة بالحكومة – ان الخطاب المحررمن السلطان لعلي الميرغني في 20 مارس 1915 م ، يلخص جملة الاسباب التي افقدت السلطان الثقة في الحكومة السودانية ، حيث ذكر السلطان انه طلب منها اسلحة وذخيرة فلم ترسل له سوى بندقية وكمية قليلة من الذخيرة ، وكذلك طلب منها ان تمنع الفرنسيين عن حدوده ولم تفعل ، وقام موسى مادبو بتحريض القبائل ضده ، وهرب الزيادية بامواله والحكومة صامدة ولم تفعل شيئاً ، وهاجم الكبابيش حدوده ، ونهبوا امواله ، ولم تسمح له الحكومة بشراء الذخيرة والاسلحة من الحجاز ، واوقف سلاطين موفده المكلف بذلك الامر (10) .

7– الموقف من محاور الحرب العالمية الاولى ؛ ذكرنا ان الحاكم العام نقل اشتراك بريطانيا في الحرب التي اندلعت في اوروبا في اكتوبر عام 1914 م للسلطان ، وكيف انه حاول استقطاب السلطان علي دينار للوقوف في محور بريطانيا عندما ارسل قصاصات من الصحف التي فيها موقف السيدين علي الميرغني والشريف يوسف الهندي اللذان ايدا بريطانيا وادانا دولة الخلافة الاسلامية في تركيا بزعم انهما يمثلان القيادة الدينية للسودان ولدارفور، وعرفنا موقف السلطان من الحرب عامة عندما قال انه غير سعيد بنشوب الحرب ، فالسؤال هنا كيف انفرد السلطان تقريبا في العالم العربي وقتها بالوقوف مع محور دولة الخلافة الاسلامية ؟ ارى ان السلطان كان عليما بفقه الولاء والبراء ، ليس ذلك فحسب ؛ بل كان حريصا على تطبيق احكام الشرع الاسلامي في الولاء والبراء ادراكا متقدماً منه لما يمكن ان تصيب الامة عند اختلال هذا التطبيق من الشرع الاسلامي ، ويمكن بعد قرن من المواقف المخزية للقوميين العرب في ذلك الزمان وثورتهم على دولة الخلافة الاسلامية بايعاز من المخابرات البريطانية ممثلة في المنحرف لورنس العرب ؛ ان ندرك حجم خسرانهم بخروجهم على تعليمات واضحة من تعاليم الدين الاسلامي ، وكيف ستستمر خسارتهم لعزتهم وكرامتهم واستقلاليتهم بسبب موالاتهم للكافرين بمللهم ونحلهم .

جاء في وثيقة المدينة المنورة (و ان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم) وفيها ايضا (ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن . وفيها ؛ وان ذمة المسلمين واحدة يجير عليهم ادناهم) (11) . وقال تعالى (يا ايها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود

والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يُسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين) المائدة (51 ، 52) . وقال تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ الا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير) (ءال عمران : 28). فهذه نصوص ناظمة لمواقف المسلمين في علاقاتهم ، وهو فقه مهجور يجعل المسلمين اليوم أدوات مستخدمة في الحرب الصليبية ضد الاسلام والتي تتخذ صورا مدهونة تستغفل معظم المسلمين وتحملهم لمحاربة بعضهم البعض ، فصار بأسهم بينهم شديدا ، و صاروا متجبرين على بعضهم واذلة على الكافرين ، انهم صاروا جنودا للصليبية المتحورة ، ويحاربون الاسلام دينهم بالوكالة ! بل صار علماءهم يخافون بيان فقه الولاء والبراء في دينهم لانهم مرتمون في موالاة الكافرين فيرهبون اغضابهم ، فالحكام مدينون لاوليائهم من الكفار في البقاء في الحكم ، ولكن السلطان علي دينار رفض ان يناصر كافرا على مؤمن ، وان ادى ذلك الى فقدان الحكم ، فالمبادئ اعز عنده من المصلحة العابرة كالبقاء في سدة الحكم . وكان وقوفه مع دولة الخلافة في الحرب هو السبب المباشر الذي عجل بغزو الانجليز لدارفور وبقوات كانت اكثر جيشها المحارب من ابناء المسلمين السودانيين انفسهم ومن المصريين .

8 – خطاب السلطان لمفتش النهود ؛ في نوفمبر1915 م ، ارسل السلطان خطابا عنيفا الى مفتش النهود اوعده بالهجوم على النهود ، فسرّع التهديد خطوات غزو دارفور استباقاً منهم لئلا تنتقل الحرب لكردفان فتعبئ مواطنيها بعاطفتهم الدينية للوقوف ضد النصارى الانجليز مثلما فعلت الثورة المهدية .

الاعداد لغزو دارفور

يمكن عد جملة من الاجراءات التي اتخذها المستعمرون استعدادا لغزو دارفور ، ولكن نذكر هنا اهم تلك الاجراءات وهي : –

1 – تأليب القبائل الدارفورية والسودانية وخاصة العربية ضد السلطان وتحريضهم بالعصيان ، وبارتكاب جرائم النهب والسلب ثم الهروب لمناطق سيطرة الحكومة في

كردفان ، وكذلك نهب امواله الخاصة من الابل التي كانوا يقومون برعيها ، إذ بدأ تاليب القبائل ضد سلطة السلطان في وقت مبكر ؛ ففي 1901 صرح ادم دودو شيخ المعاليا بأن له عملاء او وكلاء مخابرات بالفاشر يرسلون اليه التقارير من وقت لآخر، وان قبيلته وقبيلة موسى مادبو تم جمعهم وتسليحهم ، وانهم جاهزون للهجوم ، وعلقت الدكتورة اخلاص على تصريح شيخ المعاليا قائلة (من هذا التصريح يبدو ان قبيلتي المعاليا والرزيقات تم تسليحهم من وقت مبكر ضد السلطان علي دينار) (12).

وعموما يمكن الرجوع لكتاب الدكتورة اخلاص - غزو دارفور - للمزيد من التفاصيل حول هذه الاعمال والقبائل التى اسند المستعمرون لها ادوارا في تقويض سلطة بلدهم على حساب المستعمر . فعلى سبيل المثال ولتبيان تأزم العلاقات مع بعض القبائل واستجارتها بالمستعمر ؛ ففي 23 مايو 1915 م ارسل السلطان لعلي التوم ناظر الكبابيش خطابا حمّله فيها المسئولية عن خطف وبيع مسلمين احرار هربوا من السلطات الفرنسية بودّاي ولجأوا للسودان ، وجاء في الخطاب (اذا كنت مؤمنا بالله ورسوله ، أفق ، ان دعوة الاسلام وتعاليمه موجهة اليكم واليّ على السواء ، دع الكافر يساعد كافرا مثله ويواليه . ...) ، حمل علي التوم خطاب السلطان للحاكم العام مرفقا معه الرسالة التالية (إنني أجزم ان علي دينار يعمل على إعمال ثورة مثلما فعل المهدي والخليفة ، واللذان سببا في خراب السودان وقتل ابي وعمي كما هو معلوم للحكومة ، وفي هذه اللحظات يريد علي دينار الهجوم على قبيلتي كما اوعد بذلك في خطابه ، وانا اتمنى ان تنتبه الحكومة الى هذا المتشدد وتتخذ التدابير اللازمة) (13) .

ويمكن القول ان الانجليز استخدموا القبائل لتحقيق الاطماع الاستعمارية لا غير ، بمعنى انهم لم يسعوا قط لمصلحة تلك القبائل ، فالحاكم العام يقول لمدير كردفان (يجب الا نسمح لموسى وشيوخنا الذين على الحدود بلوي ذراعنا) وفي رسالتين للحاكم العام لمدير كردفان بتاريخ 26 يوليو وواحد اغسطس يقول (ويجب ان يكون الهدف في المستقبل هو دخول الحكومة دارفور ابطالا للشعب او على اي حال ابطالا للعرب – ضد السلطان – ومن هذا المنطلق من المهم جدا منع اي مظهر ديني قد يصبغ اي اجراء تتخذه الحكومة في دارفور، ويجب مواجهة اي دعاية دينية للسلطان

في اي مكان وزمان تظهر فيه) (14) .

2 — زراعة الجواسيس حول السلطان ، بدأ المستعمرون التجسس على السلطان مبكرا ، فمنذ توجهه من ام درمان لدارفور عقب كرري سعى المستعمرون الى جمع حصيلة من المعلومات تعينهم لغزو دارفور حينما يستحكمون السيطرة على السودان و يفرغون من ترتيب ادارته ، و نلاحظ انهم اعتمدوا بالدرجة الاولى على التجار في التجسس ، وعلى البعوث التي كانوا يرسلونها للسلطان كحملة بريد ، و لم يتعاف من التجسس على السلطان حتى من أُسموا بالقيادات الدينية من امثال علي الميرغني ويوسف الهندي ، وكذلك بعضا من اهل البلاط بمن فيهم مسئولين رفيعي المستوى في الادارة المدنية وقيادة الجيش في دارفور ، وتلخصت مهام الجواسيس في جمع المعلومات الحربية عن السلطنة ، وفي زراعة الشك في نفس السلطان ضد اخلص الرجال حوله ودفعه للبطش بهم ، وعلى نقل المعلومات المغلوطة لتزيين صورة الانجليز او لتبرير تصرفاتهم تجاه السلطان ومحاولة الظهور بمظهر الناصح الامين ، كما اسند اليهم تشويه صورة السلطان بتنسيب الاعمال الفظيعة والقاسية اليه ونسج ما لا يمكن تصديقه كطحن الرجال في فندق . ولقد حوى كتاب الدكتورة اخلاص الآنف ؛ سردا مفصلا عن الرجال حول السلطان من وجهة نظر وتصنيف المخابرات الانجليزية نفسها .

3 — قفل الطرق امام دارفور ، فبايعاز من الانجليز كثّف العربان نهب التجارة الخارجة من دارفور ، وخاصة عبر طريق الاربعين لمصر حيث عمدت الحكومة لزيادة اسلحة الكبابيش وامرت علي التوم بمراقبة واحة النخيلة وبئر العطرون ، كما امرت كبابيش دنقلا بمراقبة منطقة لاقيا ومساعدة علي التوم ، وقضت الخطة بان يعمل الهواوير مع علي التوم للسيطرة على بئر العطرون (15) .

4 — التنسيق مع الحلفاء من القبائل واسناد المهام اليهم ، فقبل الغزو اجتمعت المخابرات مع الزعماء الموالين لهم ، فمنحوهم الاسلحة واوكلوا اليهم المهام المسندة اليهم في تنفيذ احتلال دارفور ، يقول الن ثيوبولد ان الحكومة بعثت باسيت Bas-sett سرا لموسى مادبو للتنسيق وتوزيع الادوار في محاربة السلطان ، و لمرضه بعث ابنه الاكبر ابراهيم موسى للقائه ، فتحادثا مطولا في الايام من 22 — 24 سيتمبر 1915 م ، ويقول ثيوبولد ؛ في هذا الاجتماع أقر ابراهيم موسى أن الرزيقات سيقبلون الاستعمار المباشر للانجليز على دارفور ، وانهم يرحبون بالتخلص من علي دينار

وسيساهمون بقوة قوامها الفي رجل لغزو دارفور ، واوضح ان الهبانية والبني هلبة وحدهم من بين قبائل البقارة هم الذين سيقفون مع السلطان علي دينار . . يمضي ثيوبولد قائلا في هذا الاجتماع ، تم التصديق للرزيقات بعدد ثلاثمائة بندقية وبالذخائر هدية شخصية لموسى مادبو (16).

5 — تأهيل الطريق بمياه الشرب وتشوين الاغذية للجيش الغازي ؛ منذ الاعداد للغزو اقترح ماكمايكل ثلاث طرق لسير الحملة من كردفان لدارفور ؛ طريق عبرجبل الميدوب وهو اقصر لكنه وعر، وطريق عبر جنوب دارفور ، والثالث عبرمليط بطول حوالي 104 ميل من حدود دارفور . اختارت الحملة طريق مليط وتجهزت في أبيض ، فاصلحت موارد المياه ، وفتحت مكتبا للتلغراف في 22 ابريل 1916 (17) .

6 — الحؤول دون تواصل السلطان مع ابن اخته السيد عبدالرحمن المهدي ، كانت سياسة الاستعمار هو تجاهل السيد عبدالرحمن واعزاز علي الميرغني والشريف يوسف الهندي وابرازهما كزعماء دين للسودانيين ، كان خوفهم شديدا من انبعاث المهدية مرة اخرى وخاصة من غرب السودان التي حفظت المهدية بولاء اهلها ، ووجد ويلز C. A.Willis الذي تولى ادارة المخابرات بدلا عن سلاطين ؛ نفسه امام امر واقع هو السعي لتحجيم تنامي الثورة الدينية بعد ان صورت المخابرات علي دينار بالخطر جدا في الهاب المشاعر الاسلامية ، فكان لا بد من استمالة السيد عبدالرحمن المهدي حتى لا يضطر للارتماء في احضان خاله علي دينار فيأمر انصاره في غرب السودان لمناصرة علي دينار ضد الانجليز ، فالسيد عبد الرحمن هو ابن الميرم مقبولة بنت نورين بن السلطان محمد الفضل ، والسلطان علي دينار هو ابن زكريا بن السلطان محمد الفضل . تقول د . اخلاص (يبدو ان الحكومة ارادت بسياستها ، منع اتصال السيد عبدالرحمن المهدي بالسلطان علي دينار خاصة ان هنالك روابط قوية تربطهما معا هي صلة الدم والمبادئ الدينية ضد المستعمرين و الغزاة ، وحقيقة اذا حدث ذلك الاتصال فان نتائجه ستكون وخيمة على حكومة السودان) (18) .

تنفيذ احتلال دارفور

يفيض كتاب الن ثيوبولد بتفاصيل سير غزو واحتلال دارفور ، ويمكن تتبع ما حدث في الغزو بالاحداث التالية حسبما اوردها ثيوبولد بما تشبه المدونة اليومية ؛

ففي ابريل 1915 م اعلن السلطان رفضه رسميا دفع الجزية لحكومة السودان ، وفي نهاية يوليو 1915 م اوضح السير ريجنالد ونجت الحاكم العام للسودان في رسالته لمدير كردفان انه قرر غزو دارفور وخلع علي دينار عندما تأتي الفرصة المناسبة . وشرع في خطوات تمهيدية تمثلت في تعيين ماكمايكل ضابطا للمخابرات لشئون دارفور ، وبارسال الاسلحة سرا للرزيقات ، وبتحسين موارد المياه على طول الطريق تجاه حدود دارفور .

في ديسمبر 1915 م تم تحريك القوات الى الاضية والنهود ، وفي نهاية العام بدا ان الحرب وشيكة الوقوع . وتناول ثيوبولد اسبابها المختلفة حيث يرى ان اسبابها من وجهة نظر السلطان ؛ خيبة الامل من حكومة السودان لعدم الدعم لمواجهة الاعتداءات الفرنسية على الحدود الغربية في دارقمر ودار تاما ودار مساليت ودارسلا ، وكذلك عدم المساندة ضد موسى مادبو وهروب الزيادية آخذين معهم اسلحة وخيول وجمال السلطان ، وايواء الحكومة لهم ، وسماح الحكومة للكبابيش بالاغارة المستمرة على اقليمه وقتل رعاياه وعدم معاقبة الحكومة لهم ، ثم رفضها للطلبات المتكررة بالحصول على الاسلحة والذخيرة التي قام السلطان بدفع ثمنها ، ثم جاءت الحرب العالمية الاولى في اغسطس 1914 م فصارت حكومة السودان ضمن اعداء الاسلام باعلانها الحرب ضد تركيا والقيام بخلع خديوي مصر الموالي للخلافة الاسلامية ، وشعور السلطان علي دينار انه جزء من الجهاد الاكبر ضد المسيحيين ، فتخلى في ابريل عن اعتماده على حكومة السودان ورفض دفع الجزية وكتب لمفتش النهود انه سيطرده ، و تشجع السلطان بنجاحات السنوسية في الشمال و بهدايا الاسلحة التي وصلته .

اما حكومة السودان فتذرعت بان السلطان هاجم قبائلها ، وانها آوت ووفرت حق اللجوء السياسي للهاربين من السلطات . وتغيرت سياسة الحكومة تجاه السلطان حتى قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى حينما قال الحاكم العام للمفوض السامي في مصر بتاريخ فبراير 1916م (كما يخشى ان تساهلنا معه قد يترجم في رأيه دليلا على ضعف سياستنا فإن اتصالنا خلال شتاء 1913 – 1914 م اصبح اكثر الحاحا ، وكان القصد منه في هذا الوقت المبكر هو اختبار واستمالة السلطان على قبول تواجد مفوض اوروبي او ممثل حكومي في الفاشر) .

خلال يناير 1916 م تم ارسال المقدم ب . ف . كيلي الى كردفان لإجراء استكشاف موسع عن النهود حتى حدود دارفور ، وفي 2 فبراير 1916 م ارسل كيلي تقريره حول الموقف العسكري العام فاوصى بارسال سرية مهندسين فورا للنهود ، وارسال الكتيبة الرابعة لبناء قاعدة متقدمة ، والى وضع كتيبة اخرى في الابيض لتحل محل الرابعة ، وان تتحرك السرية العربية الى وضع الاستعداد اما في ود مدني او سنار ، كما اوصى بتوفير مؤونة شهر من الذرة لكل القوات في النهود ، وتخزين مؤونة شهر في جمانا ، و مؤونة شهر ثالث في الابيض كاحتياطي . واوصى بتوفير 1600 جمل لنقل مؤونة الشهر الواحد .

في 9 فبراير 1916 م ابرق مفتش النهود عن وصول قوات السلطان لجبل الحلة ، فتم تعزيز النهود بسريتين من المشاة ومنح تفويض بالنفقات الضرورية للحصول على المخابرات والرشوة وتحريض قادة الفور في جبل حلة .

في 17 فبراير 1916 م ، ارسل الحاكم العام رسالة سرية مطولة للمفوض السامي البريطاني في القاهرة تتبع فيها مسار العلاقات مع السلطان علي دينار ، وبرر التمركز الكبير نسبيا للقوات في النهود قائلا (تلقينا معلومات ان السلطان يقوي حامية جبل الحلة التي تبعد 18 ميلا من حدود كردفان ، وان هذا المكان بالاضافة لام شنقة التي تبعد 15 ميلا عن جبل حلة تقعان في دارفور وتسيطران على اول مصادر المياه الدائمة غرب النهود وهما موقعان استراتيجيان ، واحتلالهما من قبل قوات معادية قوية تمزق حماية اهالي كردفان الذين يعيشون بشكل كلي على المياه المخزونة في شجر التبلدي وليس لهم آبار دائمة ؛ لذا اضطررت الى اصدار الاوامر بالتمركز السريع في النهود للقوة الباقية من قوة دارفور الميدانية .- قوة مختلطة قوامها الفي رجل من كل الاسلحة تحت قيادة الرائد ب . ف . كيلي من فرقة الهوسار الثالث .

في رسالته السرية لسير جون ماكسويل قائد القوات البريطانية في مصر ؛ ابدى الحاكم العام سروره بموافقة الحكومة البريطانية بارسال لواء من القوات البريطانية للسودان ، وطلب ارسال كتيبتين مصريتين لتمكين قوات الحامية السودانية من تعزيز القوات الموجودة في النهود ، ثم التمس منه طلب تعزيزات ذات طبيعة مختلفة قائلا (اذا كان ممكنا ارسال سرب من الطائرات — الامر الذي سيكون مفيدا جدا في اسنكشاف مكان وجود تمركز العدو في دروب هذه الصحراء الواسعة غرب النهود —

انني واثق من انك ستساعد في هذا الامر باقصى ما تستطيع) (19) .

كتب السكرتير الخاص للحاكم العام ردا لماكمايكل ذكر له اعتقاد الحاكم العام بان مجرد دخول الانجليز اقليم دارفور سيوجد لحظة سيكلوجية للاندفاع للفاشر ، وبالتالي فهو يرغب في تأجيل عبور الحدود حتى يصبح الاعداد العسكري كاملا وقادرا للتقدم الفوري في اول فرصة . ورد ماكمايكل بان هدلستون يعتقد انه يمكن احتلال جبل حلة بدون مخاطر ، وان التوليفة العسكرية والادارية تستلزم توسيع العمليات لتشمل الفاشرقبل نهاية اغسطس ، وانه اذا تحسن تخزين المياه فان جزء من القوة قد تتراجع الى ابي زبد او الاضية دون تعريض اهدافها للخطر ، والخلاصة ان احتلال جبل حلة قد يؤجل الى ما بعد مارس الا ان الظروف قد تجعل احتلال كل من جبل حلة والفاشر امرا محتوما في الغالب قبل بدء الامطار . سأل الحاكم العام ثلاثة اسئلة من بينها ما الذي ستكون عليه الخطة العامة للحملة مع التواريخ التقريبية ويوميات الرحلة من الوقت الذي تعبر فيه القوات الحدود ؟

في 20 فبراير ابرق ماكمايكل للحاكم العام خبر وصول رسول من السلطان ومعه اربعة رسائل اثنان لبعض التجار واثنان معنونان الى مدير جهنم في كردفان ومفتش النيران في النهود ؛ نص الرسالة المحررة في 6 فبراير كالاتي . . (لقد استخدمتم القمع واسأتم سلطتكم ، فاصبحتم متعجرفين وتظاهرتم بانكم لا تقهرون ، لذا فان ارواحكم الشريرة قد اغرتكم بالتظاهر بانكم تسيرون الى ام شنقة في بلادنا .نشكر الله ، انها معجزة عجيبة في ان يتحرك جسد ميت بين يدي المغسلين ! كيف ستصلون الى ام شنقة ؟ هل بخدعكم واكاذيبكم ؟ . . . اننا نتبع حزب الله ، وسنكون من المنتصرين ، انكم اعداؤنا واعداء الله ورسوله ، والله اذا تبعتم نصيحة ابيكم الشيطان — لعنة الله عليه وعليكم — وجئتم ام شنقة فستدمرون نهائيا وستكونون عبرة لامثالكم . ان الله مع الصابرين ، اننا بمجرد هطول الامطار سنسير ضدكم بجيش اسلامي لا يعد ولا يحصى ، كرس نفسه للجهاد من اجل الله ورسوله . . .)

اما الرسالة المحررة في 7 فبراير لمدير جهنم ومفتش النيران فكانت (انتم المسيحيون كفار وكلاب ، ان مصيركم الجحيم الذي ستذهبون اليه في النهاية لقد اخترتم الموت . اننا ايضا نرحب بالموت كشهداء لله وللفوز بالسعادة الابدية ، انا مسلمون ومؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ونطيع امره . لذا فاننا سنقاتلكم بحماس عظيم وبعون الله

سوف تتجرعون كاس الموت المر وستذوقون الدمار على ايدينا وسيحل بكم الندم والخزي ، وستلقى ارواحكم في النار والجحيم ، لا تفكروا في اننا نضع لكم اي اعتبار لسبب مدافعكم او بنادقكم او آلاتكم ، لا ، اننا لا نخافكم وسنقاتلكم بالرماح والسفاريك . . والله اذا تحركتم او أُتيتم فسوف اسير اليكم باذن الله اينما كنتم . . ان سبب تأخري في الوقت الحاضر هو نقص المياه بالنسبة للعدد الكبير لقواتي ، وباذن الله سنلتقي بمجرد ان تسقط الامطار . يجب ان تعلموا اننا تلقينا مؤخرا فرمانا من سلطان الاسلام محمد رشاد الدين يأمرنا فيه ان نحارب اعداء الله وقد ارسل لنا ذخيرة كافية ومواد حربية اخرى .)

في 20 فبراير عرض ماكمايكل وكلي للحاكم العام خيارات الغزو خلال او بعد الامطار ، او مباشرة قبل الامطار او في المستقبل القريب ، وعدد مميزات كل خيار و رجح خيار التقدم الفوري ، وقال كيلي ان لديه القوات الكافية لاحتلال ام شنقة وجبل حلة والاحتفاظ بهما ، وان طابور الهجانة ومعهم المدافع والمكسيم سيغادر النهود في او حوالي 11مارس وستحتل ام شنقة يوم 14 مارس ، وستترك بقية القوة النهود يوم 12 مارس ، وتصل ود بندة يوم 14 ، وتنتظر هناك حتى يتم تأمين ام شنقة ثم تنضم الى الطابور الاول يوم 18 مارس . وسيتم احتلال جبل حلة في تاريخ مبكر ولن يكون هناك تقدم اضافي حتى نهاية موسم الامطار حيث سيكون من المستحسن التحرك الى ابيض لكي نثبت انفسنا قريبا من الفاشر ، ولكي نكون في وضع يمكننا من تأمينها .

وكان رد الحاكم العام على الخيارات في 26 مارس ، وايد الخيار الثالث وقال انه سيسافر من الخرطوم في 29 فبراير ليسافر بالجمال للنهود في وقت مناسب لاعطاء الموافقة بهجوم ام شنقة وجبل حلة وان يحاط زيارته بالسرية التامة ، وتم ايصال قرار الهجوم على دارفور في 11 مارس 1916 م للمفوض السامي في مصر ومنه لوزير الخارجية في لندن . وحاول الحاكم العام تبرير الغزو بالعبارات التالية (في ديسمبر1915م كان الوضع ينذر بالسوء ، لذا تم على عجل ارسال قوة صغيرة من الهجانة الى النهود لحماية المركز التجاري الهام ولتحذير السلطان من تنفيذ تهديداته بالاعتداء على قبيلة الرزيقات الموالية للحكومة . وقد تم تحرك قواتنا الى الحدود ردا على قيام السلطان بتعزيز مفرزة في جبل حلة – واصبح واضحا ان استعدادات السلطان لغزو الاقليم

السوداني متواصلة وان الاعمال العدائية النشطة لا يمكن تجنبها).

ذهاب الحاكم العام الى النهود واصداره تعليمات الاحتلال

يورد ثيوبولد يوميات الحرب على دارفور من تقارير المخابرات (20) ؛ فيقول ان الحاكم العام تحرك متوجها للنهود في 29 فبراير 1916 م فوصلها في 8 مارس ، فوجد قوات الغزو تحت قيادة المقدم كيلي معدة بخمس سرايا هجانة وسرية من المشاة الراكبة وثمانية سرايا من المشاة السودانية ، وثلاثة سرايا من المشاة المصرية ، وست مدافع جبال و12 مدفع مكسيم ، ومفارز طبية وادوية و1200 جمل في خمس طوابير محملة بامتعة الجيش ، فبلغ العدد الاجمالي للرجال الفي رجل .

من النهود اصدر الحاكم العام اوامر التحرك لاحتلال النقاط الحدودية في 16 مارس ، وكتب رسالتين واحدة لموسى مادبو اخبره بالتحرك الوشيك وطلب منه منع الرزيقات من الاغارة على القبائل المجاورة ، وآخر للسلطان حذره وقال له انه في الوقت الذي يكون مستلما فيه رسالته فان قواته المستعمرة تكون قد احتلت المراكز الحدودية من بلاده ، وكذب عليه ان نوري باشا قد مات ، وان جعفر باشا مسجون لذا فلن تأتيه اي مساعدات من تركيا ، ثم ناشده بالاستسلام ووعده بعمل ترتيبات تضمن راحته وراحة اسرته .

ويذكر ثيوبولد حادث تمرد ضابط مصري برتبة الملازم والتحاقه بجيش السلطان و يدعى عبد الماجد ، وعلى الرغم من عدم خوضه في الاسباب الحقيقية الا ان دافعه كان دينيا فقد كان يرى انه يأثم بالمشاركة في حرب رأى ان دوافعها الخفية دينية طالما ان خوف الانجليز كان من اندلاع ثورة دينية على شاكلة الثورة المهدية فسعوا لاحتوائها ، ويقلل ثيوبولد من سخط عناصر في الجيش الغازي بدوافع دينية من الغزو فيقول : ان اثنين او ثلاثة من صغار الضباط الساخطين خلاف الضابط المصري عبد الماجد قد تم ابعادهم من الجيش فلم تحدث مشاكل اخرى .

في 13 مارس استلم السلطان خطابا من انور باشا تأخر خمسة عشرة شهرا من

تاريخ كتابته في فبراير 1915 م وكتب رده ، وسجل ملامة بعدم ايصال اخبار عن سلطان المسلمين يعبر فيها عن مباركته لجهادهما المشترك ويقول له (ان كل ما نرغبه هو الجهاد لان الاسلام ضاع فهؤلاء الكلاب الملاعين — الانجليز و الفرنسيون — جعلوا كل المسلمين في السودان كفارا بتحويل قلوبهم تجاه المسيحية من اجل الغنى الدنيوي . . قلدوا عمل المسيحيين فلم يعد اي اسلام في السودان لانه لا يوجد اسلام حقيقي الا في دارفور التي حماها الله بنا وستر سكانها ضد التعاليم الشريرة للكفار . . . ان الانجليز الكلاب على استعداد ليدفعوا خمسين قرشا جائزة لمن يأتي بعضو جديد . .)

رجع الحاكم العام للابيض من النهود على ظهر جمل ، فكتب رسالة شخصية للورد كتشنر وزير الحربية البريطاني بتاريخ 16 مارس 1916 م وتساءل عن المسئولية المالية لغزو دارفور وطالب بتحسين فوري للاتصالات وتحسين امدادات المياه وباعداد القوافل الضخمة من الجمال ومد السكك الحديدية نحو الغرب ، وقال ان المهمة المتعلقة بغزو دارفور ستعود دون شك بفائدة على اساس انه مشروع اقتصادي خالص ، فالبلاد غنية بالصمغ والماشية . وصاغ الحاكم العام هذه الحجج لتتولى الحكومة البريطانية دفع نفقات الغزو ولتشارك بريطانيا عن كثب ادارة دارفور بعد الغزو . ثم انهي الحاكم العام خطابه لكتشنر بتجديد التماسه ارسال سرب من الطائرات ذاكرا بالنص (انني اميل الى الاعتقاد بان قليل من القنابل تلقى في المنطقة المجاورة لسكن علي دينار في الفاشر قد تعجل وتنهي الامور بشكل كبير . لذا فانني آمل في انك سوف تكون قادرا على المساعدة في هذا الموضوع كما فعلت في مسألة المحطات اللاسلكية الميدانية)

احتلال ام شنقة وجبل حلة و الابيض

يقول ثيوبولد ؛ في 16 مارس 1916 م قامت قوة راكبة من الهجانة مكونة من خمس سرايا وكشافة من المشاة الراكبة ومدفعين وثمانية مدافع مكسيم بالتحرك من النهود بالتقدم عن طريق ود بندا فعبرت حدود دارفور واستولت على ام شنقة التي تقع اربعة اميال داخل دارفور

وفي 20 مارس استمر الجزء الاساسي من قوات الغزو السير ببطء اكثر الى ود

بندا وكان هناك قلة من الماء لان آبار ام شنقة كانت قد امتلأت بالطين ولذلك بقيت القوة الاساسية في ود بندا واعتمدت السرية الراكبة في شربها على السرية 20 ، وتحولت السرية 21 الى سرية معدة للحركة السريعة قوامها 300 رجل ، فتحركت في تشكيل دائري الى جبل الحلة عند فجر 22 مارس فشاهدت على بعد حوالي اربعة اميال قوة من قوات دارفور قوامها حوالي ثلاثمائة رجل على خيول وجمال وبعضهم راجلين فاطلق الغزاة عليهم النيران ، فتقدموا ليشاهدوا على بعد ميلين تجمعا آخر لقوات السلطان في واد كثيف الاشجار فاطلقت عليهم القذائف فتم احتلال جبل حلة في الثانية بعد الظهر .

وواصلت فرقة الاستطلاع تقدمها الى لُقُد على بعد ميلين والتي بها آبار اكثر فاحتلتها ، فصدر الامر لقوات الغزو الاساسية التقدم الى ود بندا ، وبحلول 26 مارس تم توزيع قوة الغزو فيما بين ام شنقة وجبل الحلة وذلك طبقا لموارد المياه بها , وتقول تقارير الاستخبارات ان قوات دارفور في هذه العمليات فقدت نحو عشربن ما بين قتيل وجريح بينما كانت اصابات الغزاة جريحا واحدا ، وافادت تقارير استخباراتية لقوات الغزو ان السلطان يحتفظ بالقوات داخل الفاشر ، وعلى الرغم من ذلك هناك قوات متفرقة على طول الطريق من جبل حلة للفاشر وخاصة في ابيض على بعد 50 ميلا الى الشمال الغربي . وفي ابريل تم ارسال قوة استطلاع على طول هذا الطريق لاستكمال استكشاف الموارد المائية ، ولتشتيت الحشود التابعة لقوات السلطان ومنعها من استخدام الآبار الهامة في ابيض .

وهنا لا بد لي من شرح اختلاف اساسي ما بين العقيدة القتالية للجانبين اثّرت بشكل كبير في سير المعارك ما بين دارفور والانجليز ؛ حيث رأينا ان الانجليز عجلوا بالغزو حتى لا يتمكن السلطان من تدمير موارد المياه في الآبار ومن اشجارالتبلدي ؛ ولم يدركوا ان ما عصم السلطان من فعل ذلك هي تعاليم دينه التي تحرمه من تدمير تلك الموارد التي هي مشاعة ما بين البشر ومخلوقات الله الاخرى ، فالاستيلاء جائز ولكن التدمير غير جائز شرعا ، ولذلك تفادى السلطان تدمير موارد بلاده بنفسه في الحرب .

يقول ثيوبولد ؛ في الثالث من ابريل 1916 م تحركت قوة من سريتي مشاة راكبة وكتيبة المشاة السودانية الثالثة عشر ومعهم 4 مدافع و 6 مدافع مكسيم من جبل حلة

، فاحتلت بروش وتحركت في اليوم التالي لام كدادة التي كانت بها حوالي السبعمائة من قوات دارفور فاطلقت عليهم قذائف المدافع فاحتلتها ، وتقدم الاستطلاع في الثامن من ابريل فوصلت ابيض صبيحة 9 ابريل بعد انسحاب لقوات دارفور قبل يوم .

في الثاني من ابريل 1916 م كان السلطان قد كتب آخر رسائله لسلطان المسلمين في تركيا ، وشرح له كيف تحولت سلطنة دارفور تحت قيادة اسلافه سلاطين الفور الى الاسلام قبل 870 سنة ؛ اي قبل فتح القسطنطينية بوقت طويل ؛ وانه و بمجرد استقراره في حكم دارفور استأنف تقليد قديم لاجداده بارسال المحمل لزيارة المدن المقدسة ، فمنذ 1900 م ظل المحمل مرسلا من قبله كل عام او عامين دونما انقطاع .

في جانب الاعداد ؛ يقول ثيوبولد انه في 30 مارس وافق السير ارشبولد موراي قائد قوات الحملة المصرية باقراض الحاكم العام طائرتين لمدة شهر ومنحه سبعة سيارات شحن فحصلت قوات غزو دارفور على سلاح متقدم للاعمال الهجومية ، وفي رسالة الشكر يقول ونجت (لدي الامل كله بانه سيكون ممكنا اجراء استطلاع على الفاشر وربما القاء قنبلة او اثنين على قصر السلطان . . فلمثل هذه العمليات تاثيرات متوقعة على المدى البعيد) .

بعد وقفة طويلة منذ احتلال ابيض في 9 ابريل ؛ كانت الجهود منصبة لتنظيف الآبار و الاعداد للخطوات المقبلة ، وفي 14 ابريل كتب قائد القوة كيلي للحاكم العام قائلا ان كل الآبار مطمورة ، وان الجيش لا يحصل الا على ربع المستحق ، و انه اذا تم الحصول على العربات للعمل في قطاع الاضية النهود فان واحدة من اعظم مصاعبهم ستحل جزئيا ، وان الانتظار حتى موعد الامطار لدخول الفاشر سيغير الوضع العسكري كلية . يقول كيلي (وقد نجد انفسنا امام قادة جيدين مسلجين بالمكسيم والمدافع) . يبدو اذن انه كان يستعجل الاندفاع نحو الفاشر حتى لا يحصل السلطان على امدادات مماثلة لسلاح الغزاة .

وفهم الحاكم العام منه ذلك فكتب للعقيد تالبوت عضو مكتب الدفاع المركزي بالخرطوم بانه بوغت باقتراح كيلي وسرد حججا ضد التقدم المبكر منها ان الطائرات لن تجد الوقت الكافي للدخول في العمليات وبشكل مؤثر ، وعدم تجهيز خطوط

المواصلات بشكل جيد ، وقلة في عدد المشاة لاحتلال ناجح لمدينة الفاشر ، وعدم التأكد من التدمير الكامل لقوات السلطان .

تلقى الحاكم العام رسالة مطولة من كيلي شرح فيه بالتفصيل دواعي التقدم الفوري نحو الفاشر قبل الامطار ؛ يقول انه بمجرد هطول الامطار فان كل وسائل اتصالات جيش الغزو ستكون معرضة للخطر ، وان ميزة تامين خط الآبار الى ابيض ستكون معطلة ، وان ملاقاة جيش السلطان وهزيمته سيزيل آخر حاجز خطيرلاخضاع كل الاقليم ، ولكن اذا تشتت قوات المقاومة فان الامر لن يتحقق بسهولة ، وسيكون من الضروري اتخاذ الاجراءات المسبقة لاحباط المحاولة الحتمية للسنوسية ومعهم الضباط الالمان والاتراك ، ومعهم المدافع والذخيرة لضم الايدي مع علي دينار بمجرد ان تسمح الامطار للتحرك ، كما ان الروح المعنوية للقوات الغازية ستضعف وستتجدد الدعاية الدينية ، كما ان التحرك في مايو عن طريق مليط ستشكل مفاجأة ، واخيرا هناك ميزة كبيرة لايواء القوات الغازية في الفاشر قبل الامطار .

اقتنع الحاكم العام بحجج كيلي وقال انه سيجازف بالتنفيذ ، وان يرجئ اعطاء كيلي التاكيد المحدد الآن ، فابرق لكيلي قائلا انه سيتم معالجة المشكلة بعناية من قبل مكتب الدفاع المركزي ، ثم امر الكتيبة السودانية العاشرة بالتحرك من الابيض الى النهود ، وقال لكيلي يجب الا يفسر هذا التحريك على انه يوحي بان مشروعك قد تم الموافقة عليه نهائيا رغم الا اعتراض لدي للقيام بمثل هذه الاستعدادات التي نعتبرها ضرورية والتي ستكون ملغية بالتالي اذا ما تقرر تأخير التقدم .

اجتمع مكتب الدفاع في 22 ابريل ، فقرر ان فرص النجاح في مقترح كيلي مرضية لتبرير المخاطرة . يقول ثيوبولد : بينما كانت المكاتبات تسير في اتجاه الاقتراح الداعي للتقدم المبكر نحو الفاشر ؛ فان المشروع تعرض لتهديد غير متوقع عندما عبر الوزير الفرنسي في القاهرة عن قلقه من ان الهجوم على الفاشر قد يدفع علي دينار نحو ودّاي في وقت تكون فيه القوات الفرنسية غير كافية لحراسة الحدود ، رد الحاكم العام على ملاحظات فرنسا بان العمليات في دارفور تهدف فقط احتلال الآبار الهامة حتى لا تترك في ايدي الاعداء ، وان التقدم نحو الفاشر بعيد الاحتمال ما لم تضطر القوات باحداث غير مرئية ، فابرق الوزير الفرنسي برد الحاكم العام لحكومته فتلقى ردا بان الحكومة الفرنسية تقدر جدا هذا القرار . ولكن الحاكم العام اوضح رأيه

حول المخاوف الفرنسية من التقدم الفوري لكليتون مدير الاستخبارات العسكرية في القاهرة قائلا (اميل الى الاعتقاد بان الاعتراضات الفرنسية بشأن التقدم الفوري سببه مخاوفهم السياسية القديمة بان استيلائنا على دارفور قبل ان يكونوا مستعدين لمناقشة الوضع السياسي بشروط متكافئة قد يؤدي الى استيلائنا للمناطق المتنازع عليها وهي دار مساليت ودار تاما .) .

لقي التقدم المبكر نحو الفاشر الدعم من الحاكم العام ، وقام المفوض العام في القاهرة بتسليمه لوزير الخارجية البريطاني في 26 ابريل ، فقام بدوره لتسليمه الى مجلس الجيش لابداء الرأي ، وكان ونجت قد بعث ببرقية شخصية الى كتشنر للتأثير في القرار وصادق المجلس على الاقتراح ، وفي مايو ارسل التصديق الرسمي من لندن الى القاهرة الى الخرطوم ، وتم ابلاغ فرنسا فردت انه ما دامت اللحظة قد تحددت فان باريس ستقبل فقط الاسباب التي ادت اليها ، وانها امرت قواتها في ودّاي بتسهيل العمليات العسكرية البريطانية في دارفور طالما هم يتبعون التعليمات المحددة لهم .

من جانبه سعى السلطان لتوحيد الجبهة الداخلية ضد الغزو وراسل لموسى مادبو في 21 ابريل يدعوه وقبيلته الى الانضمام للجهاد ، واتبع ذلك بخطاب آخر في 29 ابريل قال له فيه انه لا يوجد شئ من ناحيته ضده او ضد رجال قبيلته ، ونقل اليه اخبارا عن المعارك التي جرت بدخول الانجليز حدود دارفور .

التقدم نحو مليط

يصف ثيوبولد الجهود وتدابير التحرك من ابيض الى مليط عند اكتمال القمر ، ويقول ان المشكلة الاساسية كانت في وصول الطائرات للمساعدة في التقدم ، فذهب قائد السرب الكابتن بناتين لاجراء استطلاع حول افضل مهبط للطائرات ، ولتجهيز السيارات والجمال للنقل ، وصل الجزء الاساسي للحملة ومعه اربع طائرات داخل صناديق الى نهاية خط السكك الحديدية في الرهد يوم 30 ابريل ، واستخدم طريق الرهد النهود بطول 150 ميلا لنقل الآلات وحظائر الطائرات ، وورش الاصلاح وكل المعدات الثقيلة ، وكان قد تم فتح مكتب تلغراف في ابيض يوم 22 ابريل . وحلت الشاحنات في الرمال ودفنت محاورها ، وانفجرت صفائح بنزين الطائرات بسبب الحر الشديد ، والاخطر من ذلك ان سبعة صناديق كان المفترض ان تحوي 56 جالونا

تبخرت ولم يبق منها سوى 27 جالونا فقط . وانفجرت الاطارات وثقبت بالاشواك ، ومع ذلك تم تشييد اول حظيرة طائرات في جبل حلة في 6 مايو ، واتبع بآخر في 9 مايو وبمراكز قيادة القوة ومدارج هبوط الطائرات في ابيض ، واحتفظ بطائرتين كاحتياطي في النهود .

وفي 10 مايو تم التغلب على كل الصعوبات ، وفي يوم 11 مايو هبط عند الفجر في جبل حلة الملازم ف . بيلامي والملازم ثاني ج . س . سليزور . وقام بيلامي باستطلاع جوي فوق الفاشر في 21 مايو واسقط منشورات دعائية مخذلة ووعد بابقاء الذين يقدمون الطاعة للاستعمار في مناصبهم .

في 14 مايو صدر الامر بتقدم 60 من كشافة المشاة الراكبة ، 8 مدافع ، 14 مدفع مكسيم ، 8 سرايا مشاة ، مستشفى ميدان ومفارز . تم تفضيل طريق مليط لوجود مصادر كافية للمياه على الرغم من طوله البالغ 104 ميلا من ابيض ، وبدأ الطابور البطيئ حركته من ابيض في 15 مايو وتبعه الطابور الاسرع في اليوم التالي على ان يلتقيا في 17 مايو عند نقطة تبعد عن مليط 28 ميلا .

عند الساعة الرابعة والربع من صبيحة 15 مايو هوجم مركز مراقبة السلطان التي كانت على بعد ميلين من المعسكر ، واسر كل الرجال ونجا اثنان منهم ، واتحد الطابوران في 17 مايو ومرت الطائرة فوقهما لاجراء استطلاع في مليط وتمكن المدافعون عن مليط من اصابة المروحة برصاصة ، وكان الطيار قد قصف مدنيين كثر في ثلاث مواقع هي ؛ منزل ملك البرتي ادم تميم واستشهد فيه ست الدور بشارة ، وفي الآبار والغابة ، فكانت حصيلة القصف مقتل امرأتين وجرح ثمانية .

ووصلت اخبار الغارة للسلطان قائلة بأن البابور رمت جلة في بيت ملك البرتي فقتلت اخته ، فاجتمع مجلس الحرب فقرر ملاقاة العدو في سيلي ، وعين رمضان علي المشهور برمضان برة قائدا اول ، كما عين سليمان علي قائدا مناوبا .

تم احتلال مليط في 18 مايو وتبجح كيلي في برقيته للحاكم العام بالقول (لا استطيع ان اصف لك مدى سعادتنا لرؤية المصادر الكثيرة للمياه والبصل المنزلي . كل شخص يستطيع ان يشرب الى ان يرتوي ويأكل البصل ويطبخ اي صنف يريده . انني متعب من اكل البصل) .

معركة سيلي واحتلال الفاشر

يتابع ثيوبولد يوميات الحرب فيقول ؛ في 21 مايو استؤنف السير من مليط ، ونظم الجيش في وضع القتال في 22 مايو في تشكيل مربع عند الخامسة والنصف صباحا ، ودفع في المقدمة طابور من الهجانة واربعة مدافع مكسيم دعما للمشاة الراكبة ، وفي العاشرة والنصف وعلى بعد الفي ياردة كانت قوات دارفور متمركزة بقوة ، فتم قصفهم بالمدافع ثم تقدم المربع لمسافة 800 ياردة اخرى حاصلا على وضع افضل ، فتحصن للراحة في منتصف النهار على بعد حوالي 12 ميلا من الفاشر . وهنا برزت المعركة الحاسمة ، فعلى بعد 500 ياردة كانت قرية برنجية التي اتخذها المجاهدون موقعا للتحصن الرئيس ضد الغزاة خلف القرية على بعد حوالي 600 ياردة وبانتشار عرضي لمسافة الف ياردة شرقا وغربا ، اضطر كيلي للقيام بهجوم جانبي ضد مميمنة قوات دارفور ثم الالتفاف خلف تحصيناتها ، ولكن الرائد هدلستون تقدم من الواجهة اليمنى للمربع نحو برنجية وهنا خرج المجاهدون لملاقاته بصف متصل وهاجموا بكل عزم وبسالة وفي ظرف 40 دقيقة واجهوا المدافع الرشاشة و البنادق فاستشهد منهم 261 مجاهدا وجرح 96 بجراح بليغة ، وهلك من العدو خمسة وجرح من الضباط ثلاثة ومن الرتب الاخرى 18 جريحا وفقا لاستخبارات الغواة .

وتورد الدكتورة اخلاص ارقاما مخالفة لارقام الاستخبارات فتقول ان القوة المدافعة في شمال الفاشر قدرت بحوالي ستة آلاف ، وكانوا مسلحين بعدد 3500 بندقية ، فخسرت دارفور 1200 جريحا واكثر من خمسمائة قتيل ، وجد امام الموقع 231 قتيلا و96 جريحا ، بينما ذكر حسن قنديل ان خسائر جيش السلطان كانت اكثر من الالف ما بين قتيل وجريح كلهم من نخبة امراء وقواد دارفور ، وذكر عبد الرحمن الفكي في مجلة حامية الخرطوم ان خسارة جيش السلطان حوالي الالف مابين قتيل وجريح ، وحدد مكي شبيكة عدد القتلى من جيش السلطان بحوالي الخمسمائة قتيل ، اما دالي Daly فذكر انه قتل من جيش السلطان حوالي 261 جنديا ، وتقول

اخلاص ان تقديرات اهل دارفور جاءت مختلفة عن كل الاراء السابقة حيث قدر الملك رحمة الله محمود الدادنقاوي الشهداء باكثر من اربعة الاف شهيد ووافقه في التقدير السيد محمد عبد الله الامين (21) .

تتفق كل الروايات على بسالة المجاهدين من جيش السلطان ومقابلتهم لنيران الغزاة المنطلقة من المدافع الثقيلة ومدافع المكسيم الرشاشة والبنادق الحديثة وقصف الطيران الذي حاول الانجليز اخفاء مشاركتها في معركة سيلي بينما هي التي قصفت العزل في غير ساحات المعركة في مليط وفي الفاشر وفي طريق بير طويل كما تقول اخلاص ! وعمد الانجليز الى احراق المجاهدبن بالنار مباشرة من مدافع الدلاقين التي ذكر الرواة انها قطع من القماش تبلل بالجاز فتضع في فوهة المدفع فتندفع مع القذيفة وهي مشتعلة فتحدث الحرائق وتجفل الخيول

وتذكر دكتورة اخلاص ان القوات المصرية التي سبق ان لحق احد ضباطها بالسلطان كانت لها موقفا مخالفا في القتال وكانت تريد الانحياز لجيش السلطان ولكن لعدم وجود التنسيق الكافي لم يفهم الفور نيتهم فاطلقوا عليهم النار فاضطروا في مجاراة الغزاة ، ولما استدرك السلطان الخطأ من عدم تصديقه لخطة الجيش المصري المشارك في الحملة كفّر عن ذلك باعزاز الضابط المصري الفار اليه فسهل له طريق اللجوء الى السنوسية في ليبيا (22)

كانت معركة سيلي تكرارا لمعركة كرري ولكن ببربرية ووحشية افظع لاستخدام الغزاة الطيران الحربي ضد محاربين شبه عزل ، لم تكن ثمة مقارنة في تكافؤ الاسلحة ما بين الطرفين ، لقد حارب السلطان بالسلاح الابيض وبنادق كانت تصنع في الفاشر وتقوم النساء في المدينة باعداد ذخيرتها لتضفين على الجهاد وسم مشاركة الجميع فيه ، كانت الروح المعنوية عند المجاهدين المدافعين عن دينهم و وطنهم وتاريخهم في العنفوان ، فالشهادة امنية تمناها القادة الافذاذ بصدق لانفسهم وتمنتها لهم الميارم . تغنت الميارم

اصبحت يا سيدي . . جاييك معاي كلام

لو قلت لي سلم . . سيدي اني قدام

سيدي امس جايين من رهد ابوسيلي

خلينا ناس لامين لا لبد لا مليت

نصارى ترك ووسواس مع الخناس راكبين اتمبيلات

يمكن بدورو دواس ديل هم جمال الشيل

ما بعرفوا نوم الليل

حرسو الارض بالدم

وعدونا شاف الويل

سالم ابو حوة تعالوا مع رمضان

ابقوا لجوا يسلم ملك طرة .

طلب المجاهدون الشهادة وحظوا بها اكراما من الله ، خرجوا للحرب وكأنهم يُزفّون للعرس ، فلم يبالوا بالقذائف والرصاص المنهمر عليهم كوابل المطر ، خرجوا من التحصينات يعدون خلف عدو جبان اعتمد على قوة النيران لا على قوة القلب وشجاعة الشجعان ، حينما ولى الادبار هاربا من ان تلحقه سيوف المجاهدين المندفعين نحوهم كالضواري ، وقد شعروا ان البنادق لن تصد الزحف المقدس لمجاهدين يتخطون شهداءهم ويدفعون جرحاهم بالمناكب ليتلاحموا بالكفار الغزاة ويصرون على تحويل الحرب حرباً ما بين رجل ورجل لا بين عصاة ومدفع .

القائد العام للمجاهدين رمضان برة يسقط على بعد ثمانية ياردات فقط من فوهة المدفع الرشاش ، ومن ورائه وعلى بعد ياردات قليلة من المدفع نفسه يسقط نائبه سليمان علي ، وتراكمت جثث الابطال امام فوهات المدافع الرشاشة ليسطروا تاريخا وضيئا من تضحيات المجاهدين دفاعا عن عقيدتهم وعن وطنهم .

ويسجل البطل المغوار رمضان برة اخر انتصاره ضد الحقد الصليبي وهو مسجى عندما اجبر مجرم حرب سيلي كيلي بان يُحيّي بطولته باداء التحية العسكرية على

جثمانه الاطهر ، وان يناقض مسلكه هذا فورا فيُظهر حقارة و دناءة نفسه باستلال مديته ليقطع معصم البطل الذي رفض ان ينهب منه كيلي الحقير وشاحه الذهبي الذي قلدته بها ميارم الفاشر وهو خارج للجهاد . ان كيلي انهزم امام بريق الذهب في معصم الشهيد فاراد استحواذه ، فلما ابى الشهيد ان يخرج من يده السوار بالرضاء والاستسلام رغم فراق روحه لجسده ؛ قطع كيلي يد الشهيد لينهب سوار الذهب وليترك لتاريخه مسبة انه مثل بجثة رجل كان قد ادى على جثمانه التحية العسكرية كاستحقاق بلا منّ لبسالته وشجاعته ، ولكأنه نبش القبر ليسرق الكفن ، فما اشد دناءته وحقارته وهوانه ؟

انجلت المعركة وتفقد المجاهدون بعضهم بعضا ، وحمل الموقاوي النتيجة للسلطان على طريقته ، عزاه في القائدين ، فادرك السلطان خطورة الموقف بعدم التكافؤ في التسليح وغياب الالتزام بقواعد الاحتراب من جانب العدو ، كانت الخيارات هي ؛ ان يتلقى العدو داخل المدينة ، او ان يخرج لجبل مرة لاستعادة تنظيم الجيش والبدء في مقاومة الاحتلال كما فعل آباؤه بعد احتلال دارفور في معركة منواشي 1874 م ، واستطاع هو من بين كل سلاطين فترة المقاومة – التي امتدت من 1875 م حتى 1889 م – ان يستعيد حكم اجداده المتصل .

قرار الخروج من الفاشر والاستشهاد

اثرت كل من حكمته وعاطفته على تفضيله لخيار الخروج من الفاشر رغم مرارته وقسوته عليه وعلى شعبه ، فبمثل ما اختار الاستسلام مداهنة للانصار يوم ان قال له اهله المنهكين بالحروب المتواصلة خلال حقبتي التركية والمهدية فقالوا له (افدينا بنفسك واذهب لهذا الرجل) فقال لهم (بجاه الله ورسوله) وتوجه لارسال الرسائل لمحمود ود احمد عارضا عليه السلام ؛ كرر السلطان علي دينار تقديم نفسه فداء لاهل الفاشر ، فالوضع اليوم اشبه بالذي كان يوم ان تسلم قيادة المقاومة عام 1890 م بعد اغتيال ابي الخيرات ، لم يشأ ان تدور من اجله معركة داخل ازقة مدينة الفاشر المأهولة يومئذ باكثر من خمسين الف مواطن ، ولا ان تحدث خسائر مهولة في حرب غير متكافئة مع عدو لاِ يرقب إلاً ولا ذمة ، فهو يبصر استعدادا للعدو لارتكاب ابشع جرائم الحرب والابادة باستخدام القوة المفرطة لاذلال البشر بمن فيهم هو نفسه على خلفية المعتقد الديني ، ان الطائرات حينما حلقت فوق المدينة القت الجلل

فروعت الناس وطرحت ارحام النساء ما حملن من الاجنة بهول الارعاب والارهاب ، وقد تحاشى المؤرخون المستعمرون ذكر هذه الحقيقة في تناولهم لاقاصيص الحرب على دارفور . نعم سمعت من الثقاة ان الحمّل اجهضن حين القت الطائرات القنابل على الفاشر .

كان الايمان بأقدار الله حاضرا في اللحظات العصيبة التي قرر فيها السلطان الخروج من الفاشر وهو هتون لدمع نازف كالدم من مآقيه مثلما سالت الدماء من ابطال ملحمة سيلي ، كان متحسرا على عدم خروجه مع الجيش لملاقاة الغزاة ونيل الشهادة مثلهم ، ولم يُقصّر الموقاوي من تذكيره برجاله المخلصين من امثال ادم رجال الذين ذهبوا ضحية الوشاة من جواسيس زرعهم الاستعمار مبكرا فاحاطوا به بالمخادعة والمخاتلة . وزينوا له سماع وشاياتهم ضد رجاله المخلصين الذين استنفدهم قبل حلول موعد الاحتياج اليهم ، او كما قال الموقاوي (حرق الجدول قبال البرد) .

وكانت الشعارات المنقوشة على جدر قصره الفخيم معزية من مصيبة الدنيا هذه ، كانت معبرة عن اللحظة رغم انها نقشت منذ الابتناء ، فحياتها باطلة ونعيمها يزول ، فلو كانت تدوم لاحد لدامت لرسول الله ، لان كل المخلوقات خلقت لاجله ، فلو لاه ما خلقت جنة او نار ، ولا عرش ولا كرسي ، ولا لوح ولا قلم ، ولا سماء ولا ارض ، ولا شمس ولا قمر ، فكل شئ هالك ، ولا يبقى الا وجهه الكريم . . فأي عزاء ، وأي مواساة لمؤمن من مصاب أقوي وأبلغ من تلك الكلمات المنقوشة في حائط قصره ؟

لم يفقد القدرة على التصرف امام الهجمة الشرسة المستمرة بالطائرات ، اذ وجه باقامة سقالات داخل مدينة الفاشر لتكون بمثابة ابراج يعتليها القناصون لضرب الطيارين في طائراتهم المغيرة ، وعند خروجه من الفاشر اغارت الطائرة على الجموع المحيطة بالسلطان فاطلقت الطائرة النار من المدافع الرشاشة ، والقت القنابل ، فامر السلطان اتباعه بالتفرق حتى لا تعظم ضحايا الغارة ، بينما ارتكز هو فاطلق على الطيار المغير (سليزور) النار فاصابه في فخذه فاضطر للهرب بالطائرة بصعوبة بالغة فهبط في جبل حلة ، و كان هذا سببا لانهاء خدمة الطيران في دارفور ؛ ففي 25 مايو وصلت لكيلي رسالة تقول (نسبة لجرح احد الطيارين ومرض الطيارين الآخرين فلن يكون هناك استطلاع ، وبعدها بيومين وصلت رسالة اخرى تقول نسبة لخطورة

حالة الآلات وقرب الامطار ؛ يجب توقف الحاجة للطيران فورا كما يجب ان تنسحب الطائرات من السودان) (23) .

يحكي الفكي محمد نيل احد مستشاري السلطان في المسائل الدينية على لسان حفيده الاستاذ عبد الله اسحق اللحظات الاخيرة او آخر اجتماع للسلطان مع مستشاريه في الفاشر قائلا : جمع السلطان كل المستشارين في غرفته الخاصة فقال لهم : ان الغلبة في الحرب للعدو لعدم التكافؤ في الاسلحة ، وان الاسلحة والتعزيزات من السنوسي في ليبيا ومن تركيا عبر ليبيا لم تصل لتمكن وسيطرة العدو على الطرقات ، وان الأمر يقتضي ابلاغكم بقراري ، فقد اخترت اللقاء ، فمن كان له حاجة فليقضها الآن قبل فوات الأوان ، ومن دعته الضرورة لأمر فليكن أمره كمن اضطر غير باغ ولا عاد ، أوكمن الا ان يكون متحيزا الى فئة . . ولا يسلكن احدا طريقا سلكه احدكم . خرج الفكي محمد نيل الى اسا قرفا ، ثم لكتال وتولو والحسكنيتة الى قوز المعاليا ، واستقر في منطقة التعالبة او ام مصارين وكان يقيم فيها شقيقه ابو الحسن وظل فيها الى ان توفاه الاجل .

وخرج السلطان من الفاشر الى بير طويل التي تبعد حوالي عشرين ميلا جنوب غرب الفاشر ، فقضى ليلته هناك ، فامر موظفيه بالعودة للفاشر ، بينما سلك هو الطريق الذي يؤدي الى الملم مرتع صباه ، ثم الى كدنير ، ثم كاس .فاستقر في كالو كتنج جنوب غرب جبل مرة ، وامضى فيها الخريف ، وصرف التعليمات للشراتي من قومه بالذهاب الى مناطقهم لادارة امر الناس الا ان اغلبيتهم رفض التخلي عنه فآثروا البقاء معه ، ولحقت به قوات من الادارات المختلفة حتى اصبح معه نحوا من خمسة الف اغلبهم مسلحون بالحراب والسيوف والسفاريك ، وكان يقوم بمتابعة الشراتي في اداراتهم ، لكنه اضطر للخروج من كالوكتنج الحصينة نسبيا الى كولمي باسباب انتشار مرض الجدري في قرى جبل مرة والخوف من انتشار الوباء بين جيشه واسرته . واقام في كولمي مسجدا وانشأ مقرا مؤقتا له بعد ان عمل بعض التحصينات ببناء اسوار حول المقر .

كان احتلال الفاشر و دخول الغزاة فيه في 23 مايو 1916م وخلال خمسة ايام من الاحتلال تم جمع 3230 بندقية و55 الف طلقة وثلاثمائة وزنة من البارود واربعة مدافع واستسلم عدد كبير من الموظفين بمن فيهم الملك محمود الدادنقاوي وعربي دفع الله ،

والكتبة والموظفين الذين احتفظوا بمواقعهم خداما للعهد الجديد ,

ويتابع ثيوولد يوميات الحرب على دارفور فيقول ان الملاحقة الفورية للسلطان كانت مستحيلة بعد سحب الطائرات ، ويقول ان السلطان راسل كيلي لاول مرة بعد خروجه من الفاشر في 29 مايو 1916 م يطلب فيه السماح له بترك دارفور والذهاب للاراضي المقدسة لامضاء بقية عمره ، ورد عليه كيلي ان عليه تسليم اسحلته ، فرد السلطان في الثالث من يوليو انه سيأتي بعد بداية اول الامطار واستفسر عن مكان اقامته الجديدة وعن الاشخاص الذين سيصطحبهم فرد عليه كيلي ، وصمت السلطان ولم يرد لكيلي الا بعد اسبوعين ، فقد كتب في 24 يونيو ان غالبية اتباعه رفض الشروط المعروضة للاستسلام كما ان الطرق سدت امامه للفاشر بالاعراب .

تجمع حول السلطان خلال هذه الفترة 3115 رجلا مسلحا . وكتب اليه كيلي في 8 يوليو ولامه على عدم المجيئ اليه في اول الخريف ، ومنحه وقتا محددا للاستسلام ، ووجه الحاكم العام كيلي بالتخيط بعناية ، و باستخدام طابور متحرك ضد السلطان اذا رفض الاستسلام ، فوضع كيلي بناء على ذلك خطة لبدء العمليات الحربية ضد السلطان في نوفمبر بعد نهاية موسم الامطار . واقترح وضع قوة قوية في كبكابية على بعد ثمانين ميلا غربي الفاشر لتكون نقطة حشد وللحصول على معلومات طبوغرافية لحملة نوفمبر ، واعتقد كيلي ان السلطان انتقل من كالوكتنج لكولمي لان الاخيرة بعيدة عن كبكابية نقطة ارتكاز الكتيبة العربية .

اثناء مكث السلطان في كالو كتنج ؛ وشى بعض الوشاة بالشرتاي يوسف عبد الله المعروف بيوسف فنجو شرتاي لوينج بجبل مرة ؛ انه ممالئ للانجليز ، فقام السلطان باستدعائه ؛ الا انه رأى الذهاب للامام الشيخ عبداللطيف عثمان في طرة ، الذي كتب للسلطان ان اتهام الشرتاي باطل وانه على طاعته وانه سيحضر اليه في رفقته الشخصية لتأكيد طاعته ، قال السلطان للذين وشوا : لن أصدقكم فأكذب الشيخ الامام ، لم نعهد عليه كذبا ، فعفى عن الشرتاي يوسف عبدالله .

في 7 اكتوبر وجه كيلي الرائد هدلستون بحوالي 250 رجلا من الهجانة لاقامة مركز جديد في كاس على بعد 20 ميلا من كالوكتنج وطلب تعزيزات من الخرطوم لعمل كماشة من القواعد الشمالية بكبكابية والجنوبية بكاس في وقت واحد هو يوم 19

ديسمبر . وصل هدلستون مشارف كاس وعلم ان زكريا الابن الاكبر للسلطان في دبس شمالي كاس على نحو ميلين فتوجه الى هناك - لئلا يقطع زكريا اتصالاته مع الفاشر - في 14 اكتوبرومعه مدفعان و 2 مكسيم و12 كشافا من المشاة الراكبة ، هجم فجأة قوة الامير زكريا المكونة من 120 من حملة البنادق والفاً من من حملة الحراب من على بعد 600 ياردة فقط ، فانجلت المعركة في خمس دقائق بسبب التفوق في الاسلحة وعامل المفاجأة ، وعلم هدلستون ان ثلاثين ميلا فقط هي المسافة التي تفصله عن السلطان علي دينار ، فقرر السير اليه وطلب من كيلي تزويد قواته بمائة بندقية ومكسيمين لمهام الحماية ، وضابطين بريطانيين و20 عنصرا من الكتيبة العربية للمشاة الراكبة .

كان هدلستون متعجرفا ومتشوقا لسفك الدماء ، ورد على السلطان من دبس حين عرض عليه البحث عن السلام لان النساء والاطفال اصيبوا بالجدري ؛ انه اذا لم يصل اليه زكريا ابن السلطان خلال خمسة ايام ؛ (فانني سآتي مع كل قواتي وادمركم). وعلل لقادته ضرورة تحركه لمعسكر السلطان في كولمي بانه يعتبر سرعة التحرك ذات اهمية عظيمة اكثر من زيادة عدد القوات التي طلبها . لكنه طلب استعراض قوة كبكابية لمساندته ، في 25 اكتوبر كتب ماك كوان وكيل كيلي في ادارة دارفور للحاكم العام انه قام بارسال التعزيزات التي طلبها هدلستون وانه ارسل جيلان للعمل كضابط سياسي في القوة . والح هدلستون في رسالة له بالسماح له بالتقدم لكولمي مراهنا ان تقدمه سيفضي الى هروب من حول السلطان وان ذلك سيدفع السلطان الى الاستسلام او الهروب ليعيش كلاجئ .

في 27 اكتوبر تلقى ماك كوان رسالة من القائد الفرنسي في قوز بينا حاضرة دارسلا بتشاد المحتلة من الفرنسيين ذكر له انه تلقى معلومات عن التحرك البريطاني لكبكابية تعقبا للسلطان علي دينار ، وانه تلقى اوامرا بالتحرك الى سيمبار بالقرب من بندسي وعلى بعد يومين فقط من كولمي ، وان لديه 150 بندقية و 2 مكسيم وانه يضع نفسه تحت تصرف الجيش البريطاني الغازي . وجاءت الخطة كالآتي ؛ يتم ارسال تعزيزات لهدلستون في دبس يوم 22 نوفمبر ، يتم كتابة رسائل لكل من هدلستون والقائد الفرنسي في دارسلا ، ويتقدم الفرنسيون للتعاون مع هدلستون في 27 نوفمبرشريطة بقاء السلطان في كولمي ، تتحرك قوات كبكابية جنوبا لمسافة يومين من حدود كولمي

وتنتظر من هناك تعليمات هدلستون . ولما وصلت برقية الضابط الفرنسي المهيمن على ابشي ان خطر السنوسية قد انحسر ويمكن ارسال قوات لمساندة العمليات ضد السلطان علي دينار لماك كوان ارسل الحاكم العام التعليمات لماك كوان لشرح خطتهم للفرنسيين ومدهم بآخر المعلومات عن قوة السلطان و بمكان وجوده و نواياه ، وقال له يجب ان تضيف انه اذا فر علي دينار الى الشمال تحت ضغطنا من دبس وكبكابية اضافة للضغط الفرنسي من سيمبار ؛ فاعتقد انها ستكون خطة ممتازة اذا تم تعزيز تومتوما بقوات متحركة من ابشي لاعتراض اي تحرك نحو الشمال .

في 31 اكتوبر وصلت التعزيزات التي كان هدلستون قد طلبها لدبس ، وكتب هدلستون ان التعزيزات جعلت قواته قوية بشكل يجعل من المستحيل صدها من قبل قوات السلطان ، ثم قال انه في صباح الغد الاول من نوفمبرسيتقدم نحو كولمي بتشكيلة من ؛ ثلاث ضباط بريطانيين ومعهم مستر جيلان وعشرة ضباط مصريين، ومزودين باربعة مدافع مكسيم ومدفعين ، وعدد 260 ضابط صف وجنود فيلق الهجانة والفرقة 13 السودانية ، 12 كتيبة عربية ومشاة راكبة ، ثمانية شرطة ومفرزة طبية، وان يترك حامية دبس تحت قيادة ضابط مصري وثلاثين رجلا في موقع محصن. امضى الطابور الراكب ليلة 2 نوفمبر في احد المعسكرات التي أُجلي منها الامير زكريا بن السلطان ، وتحرك في اليوم الثالث نحو كولمي و وجدوا معسكر السلطان في كولمي مهجورا على عجل ، وفي الليل اقام نحو الف مدني معسكرا للنزوح واختفت القوات العسكرية للسلطان ، وفي الخامس من نوفمبر وصلت انباء بان السلطان في بربور على بعد حوالي العشرين ميلا ، وحصل جيلان على سبعين حصانا بالسخرة في مساء 4 نوفمبر ، وفي الخامس من نوفمبرتحرك هدلستون بطابور من 100 حصان نحو بربور وتمكن من اسر طليعة السلطان الذي ادلى بمعلومات بان السلطان في جوبا على بعد 12 ميلا فقط ، فسار الطابور عند منتصف الليل فاستراح في الطريق لساعتين ليصلوا وجهتهم مع الفجر . عند السابعة صباحا شاهدت القوة صعود خيط رفيع من الدخان وسط اشجار كثيفة فتم انزال المدافع الرشاشة عن قواعدها فامطرت المدافع الرصاص في اتجاه مصدر الدخان فكانت اول تنبيه للسلطان بقدوم الغزاة . وتم تبادل للنيران من قمة التل الذي كان فيه السلطان الى قمة التل الذي تمركز عليه الغزاة .

انجلت المعركة وتقدم الغزاة لتفقد ارض المعركة ، وجدوا السلطان مقتولا بطلقة

اصابت وسط جبهته (24) وسقط بجواره ابنه محمد الفضل شهيدا واحد المخدمين. ووجدوا ابنيه حسين وسيف الدين ومعهما حاجب البلاط حسن سبيل يقفون بصلابة ورزانة لتنفيذ وصية السلطان الا يتركوا الكافر يرى وجهه . كان الشهيد مدركا اختلال ميزان التسلح ، كان معه في كولمي نحوا من خمسة آلاف من القوات المسلحين بالاسلحة البيضاء وعددا من الشراتي ، ولما شعر باستحكام الحصار امر الشراتي بالذهاب الى مناطقهم واوصاهم برعاية اهليهم ثم انعزل عن معسكر ابنائه واتباعه مثلما فعل بالخروج من الفاشر لئلا تدور معركة وهو بينهم فيتضررون . وهذه قمة التضحية والفداء من قائد ظل يسترخص حياته مقابل سلامة مواطنيه . وطبق المثل القائل (موت ولد ولا خراب بلد) في نفسه حينما جعل نفسه ولدا بارا لبلده دارفور التي لم يرد خرابها وقام بتفديتها بنفسه .

ندع الشيخ أحمد ادريس وهو احد حفظة منطقة سندو يحكي تفاصيل اللحظات الاخيرة ويصف لنا المراسم الجنائزية للسلطان الشهيد كما يحكيها عنه حفيده احمد الحاج ، قال انهم عند غسل السلطان وجدوا انه ضرب في ثلاث مواضع من جسمه ؛ في المحصن بالقرب من فخذه الايسر ، والثانية في الجبهة ، وان الضربة المميتة كانت في القلب ، وان راس المقذوف الذي اصاب القلب لم يكن رصاصا ، كان المقذوف قلب ابنوس في حجم اصبع وحلزوني يشبه قرن الغزالة ، وان الشيخ رولو وهو احد الحفظة الذين تولوا تبريد السلطان هو من قام بنزع الراس الابنوسي من قلب السلطان بعد ان جذبه باسنانه . الشيخ رولو دفن في منطقة دبة جراي جنوب دار كوبرا .

قام الشيخ الحافظ احمد ادريس ومن معه من الناس بالاستنفار لابلاغ المواطنين باستشهاد السلطان ، وبدعوة حفظة المنطقة الحضور للصلاة على السلطان ، فارسلوا جيادا في كل الاتجاهات ، فحيثما تعب الجواد من الجري يسخر جوادا بديلا لمواصلة السير للقرى الأخرى .

والتألم اعداد الناس في اليوم الثاني من مقتل السلطان للصلاة عليه ، واصطف في الصف الاول لصلاة الجنازة واحدا واربعين حافظا من مشاهير حفظة القرآن الكريم ، وعندما حُمل السلطان لقبره اهتزت الارض وسمع دويا كالرعد ، فطلب الشيخ احمد ادريس الا يقترب من القبر الا حافظ قرآن ، فاحاط الحفظة بالقبر ومن خلفهم بقية الناس فانزلوا السلطان في اللحد ودفنوه مشيعا بتلاوات منهم جميعا بما يعرف عندهم

بالحزب .

استشهد مع السلطان ابنه الاطرش ، ورجلا فدائيا من البني هلبة ضخم الهامة يقال له ابراهيم مرتوقة ، فدفنا مع السلطان ، كان ابراهيم مرتوقة يصحب السلطان دوما ويداريه بهامته الجسيمة ، فكان كالدرقة يواجه المخاطر التي تحدق بالسلطان املا في ان يتقيها بجسمه ، وكان مخلصا للسلطان ، ويقال انه من نبه السلطان بوجود اشخاص يلبسون اردية الكفار في التلة المواجهة لهم مختفون وراء الاشجار ، وسرعان ما انهمرت عليهم طلقات المدافع والبنادق الغادرة .

يؤكد سكان وادي زاري ان المعتدين بعد منصرفهم من فرقو مروا بهم وان معظمهم كانوا يتكلمون بالعربية اي انهم كانوا سودانيين يخدمون في جيش الاحتلال الانجليزي المصري .

اما المستعمرون فقد اعلنوا في 1/1 / 1917 م دارفور مديرية تابعة للسودان ، ومن اخطائهم الجسيمة التي تبين مدى اصرارهم على معاقبة اهل دارفور بالافقار ؛ أنهم قاموا بالغاء العملة الوطنية دونما تعويض ، و عمدوا الى اجراءات تعسفية ضد ذرية السلطان على دينار تحديدا بالاستيلاء على كل ممتلكاته ، والحيلولة دونها و الورثة ، فتلك الاموال كانت شخصية بما في ذلك منزله .

وكان خوفهم من ابناء السطان ان يقودوا ثورة ضدهم على غرار الامراء الذين تتابعوا في قيادة الثورة لاستعادة الدولة بعد منواشي ، كان هناك سجلا في خزانة القصر يحتوي على قوائم بذرية السلطان بشكل دقيق مرتبين في اعمدة في نظام تسلسي في صفحة بعنوان يقول (سيدتنا كذا وكذا مع اولادها : الاسم والجنس) . وكان عدد الاولاده الذكور فقط حوالي مائة وعشرون (25) .

قام الاستعمار بتشتيت ابناء السلطان و كان اغلبهم قُصّرا في مدن السودان المختلفة حتى لا يلتقوا مع بعضهم ولا بقومهم فيفكروا في الماضي فيثوروا لاستعادة الدولة مرة ثانية ، وقاموا بفرض ضريبة على الكائن البشري باسم الدقنية لاستخلاص تكاليف الحملة الاستعمارية على دارفور ، وكانوا في جمعها انتقائين وبنحو قبلي ، و المؤسف انها ضريبة استمرت حينا من الدهر حتى بعد استقلال السودان فلم يلغها الا الرئيس جعفر النميري رحمه الله في عهده ، ومنعوا التحدث في مدينة الفاشر بلغة

الفور وكانت هي اللغة الرسمية بينما كانت المكاتبات تتم باللغة العربية .

الخاتمة :-

- كان ضروريا التعريض للتاريخ القديم لدارفور بالاشارات الدافعة لاجراء بحوث و دراسات لماض رسم ووجه المستقبل ، فرأينا ان السلطان علي دينار نسمة مباركة لآباء كرام توارثوا حكما متصلا لاكثر من ثمانمائة عام ابا عن اب في الاسلام فقط ، وهذا نادر في التاريخ الانساني وينم عن استقرار سياسي لا يُضاهى بفضل عدل السلاطين الفور فما هي العبر المستخلصة من الاستقرار السياسي للسلطنة ؟.
- عندما تتوفر اسباب و ضرورات الاستقرار فان الانسان ينشئ حضارته ، فلو ظل محجوبا عن الآخرين بذاته وبحرثه في الحياة ؛ فان ذلك لا ينفي وجوده ولا وجود حضارته المدنية المطبوعة بالاستقرار بشواهد من آثار حرثه . فجبل مرة اهتبلت كل اسباب استقرار الانسان ، فصار مكنونا للرزق المتيسر ، وحامية لانسانه من العاديات المغيرات بان جعلت باطنها ملاذا آمنا باحتفار انسانه للملاجئ لسكناه الآمن ، وبشقّه للانفاق لترحله و انتقاله متخفيا من عيون الاعداء المتربصين ، حتى فاض بالناس بما أُطلق عليه الانفجار السكاني ، ولما هدأت الحروب في السهول ساح من لاذ بجبل مرة محتميا من ويلاتها فى السهول المحيطة فنشأت القبائل التي تقول ان اصل موطنها جبل مرة التي صارت الحاضنة اللغوية والثقافية للسكان القدامى الذين تابعوا بناء حضارتهم المتميزة . فمن من المختصين سينبرى لدراسات تؤكد هذا ؟
- هذه الحضارة ما كانت لتنعزل عن جوارها في كل محيطها ، إذ لا مفازات فاصلة، والاودية الخارجة من الهضبة لا شك انها وحينما كانت دائمة الجريان قد شكلت شريانا لتواصل شعب الهضبة مع شعوب النيل و الشعوب حول بحيرة تشاد و حوض النيجر غربا ، وشعوب الهضبة الاثيوبية شرقا ، ولربما الشعوب ما بعد الغابات الاستوائية جنوبا . فيصبح اذن استخدام واقع الجغرافيا الطبيعية آنذاك مدخلا لدراسة العلاقات الازلية ما بين الشعوب تضييقاً لمنافذ الانحطاط التي

يمثلها التعالي العرقي و الانكفاء لتأكيد ذات ضيقة بالانتساب الى الاعراق فقط (المفترضة زورا سُموَّها) وترك رحبة الانتماء للارض التي هي الاوعب من اصلاب الرجال محدودين .

- ان بحوثنا يجب ان تتصوب في متجهات تأكيد ترابط الشعوب بالتواصل والتصاهر وبرضاهم الفطري للعيش معا ، وان وُرّاث الحضارات التي نزهو بها ؛ شعوب متواجدة بيننا ، وليست من الحكمة والعدالة والحرص على الوحدة الوطنية سرقتهم واستلابهم ؛ بنفي علاقاتهم بصناع الحضارات القديمة . فهؤلاء لهم القيمة الاعلى لأنهم حققوا التمازج الضروري للعيش معا مع القادمين لبلاد السودان مهما اوغل قدومهم قدما ، وفلنُسلّم بمسلمة اب تاريخ السودان استاذنا البروفسور يوسف فضل حسن حين قال (لقد مضى العهد الذي يظن فيه ان فردا يمكن ان يولد حدثا تاريخيا)
- ان النظر الى الجغرافيا الطبيعية ، واستخدام اللغات في استنباط العلاقات الاثنية ، وفي إيالة المشوه بكثرة تداول الاسماء من لغة لاخرى الى الاصول الصحيحة للغة الأم ؛ سيسهم في فهم دقيق لتاريخنا وعلاقاتنا ، كما بدا لنا من مقاربات تحديد وجود الانسان في هضبة جبل مرة قبل انبعاث البركان ، وفي وجود العلاقة ما بين حضارة هذه الهضبة مع الحضارة المروية كآخر مشهد لحضارات النيل القديمة ، وهذا مجال مفتوح للمختصين الوطنيين لتصحيح ما شوه من مسميات .
- يبدو ان للاسلام في بلاد السودان قصة غير الاسطورة المتداولة ؛ فإذ كان احتكاكه مع شعوب افريقيا بالهجرة الاولى في بداية بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك قبل هجرته للمدينة المنورة ، حتى اسلم بذلك الاحتكاك الاول النجاشي . ثم توالى الاحتكاك ما بعد فتح مصر ، ففي 651 م عقد معاهدة البقط ؛ لذلك سيكون عسيرا فهم بقائه بعيدا من التأثير على الناس وعلى الحكام خاصة الى العام 1400 م في حالة دارفور والعام 1552م في حالة السلطنة الزرقاء ؛ وقد شهدنا ان ملك الحبشة كان اول ملوك الارض الذين اعتنقوا الاسلام على ظهر الارض ، فما بال شعبه او حتى بنيه يصرمون وجوههم بما اهتدى به النجاشي طوال كل هذه القرون الطويلة ؟ !
- ان لوجود مسجد مبني بفن عمارة متميز هو مزج ما بين تقنية التورا (الفور القدامى قبل اسلام ابنائهم) و تقنية البناء القيراواني ، وبسعة لاكثر من خمسمائة

مصلي لهي دلالة في ظني ان المؤثر الاسلامي كان موجودا قبل ان يقرر الملك شاودورشيد بناء مسجد جبل فارا أحد مقاره الكثيرة فوق الهضبة ، بمعنى ان المسجد ببنائه الحضاري المذهل لدليل على وجود الاسلام قبل بانيه او على الاقل قبل عشرات السنين من اعتناقه للاسلام لأن سني حكم فرد غير كافية في تقديري للانتباه الى ضرورة المسجد ثم التحضير والتنفيذ ، سيما وان التنفيذ احتاج الى خبرات اجنبية تواءمت مع فن وميراث وطني اقنع المهندس الاجنبي المتخيل بالاستفادة بل بالاعتماد على جوانب عديدة من ذلك الفن المعماري المحلي، ويتعزز هذا الظن بادلة اضافية هي وضوح وجود المؤثر الاسلامي في اسمي السلطان شاو وفي اسم ابنته خيرة وذلك قبل وصول احمد المعقور لدلرفور وفقا للاسطورة القديمة نفسها ، ولكن الدليل الاقوى هو ما قاله السلطان علي دينار في رسالته لسلطان المسلمين في العام 1916م حين كتب ان لاجداده سلاطين الفور في ذلك الوقت ثمانمائة و سبعين سنة دأبوا فيها على ارسال المحمل خدمة للمشاعر المقدسة بشكل مستمر . هذه المراجعة لتأريخ ولوج المؤثر الاسلامي على السلطة في دارفور و بقية السودان ؛ تجعلنا امام مشهد جديد يقول ان الاسلام كان حاكما في دارفور في العام الف ميلادية ، مع ملاحظة ان توحد الوجدان تجاه قضايا الامة انما يحدث بعد مرحلة من اعتناق الاسلام ، اعني ان الذي ارسل المحمل الاول من دارفور تجاه الاراضي المقدسة قبل ثمانمائة وسبعين سنة من العام 1916 م ؛ لن يكون هو اول ملك يعتنق الاسلام فيرسل من فوره المحمل خدمة للحرمين وبقية المشاعر المقدسة ! وهذا اسقاط للرأي الذي سبق بأن شاو دورشيد الذي بنى مسجد فارا لم يكن هو اول ملك اعتنق الاسلام من بين سلالة ملوك الفور . تعزز بهذه فكرة ان الغريب الحكيم مذهب اسطوري لتفسير تاريخنا .

- ان لنهج انتشار الاسلام بدارفور دوراً في تفسير التاربخ الاسلامي للسلطنة ، فالسلاطين المسلمون قرروا نهج التدرج في الاسلمة ، فسارت الاسلمة متوائمة مع التقاليد القديمة سلميا ، لم يكره الناس على الاسلام حتى اذا ما عم الاسلام و لم تبق الا جيوبا معزولة من الوثنيين (البورو) في تاريخ متأخر هو عهد السلطان موسى سليمان (1638 — 1670 م) ؛ أمر السلطان باخراجهم من محيط العاصمة طرة فقط ، كذلك ؛ فحتى عهد السلطان موسى ؛ لم تتغيرعادات دفن

الموتى من الوثنية الى الاسلام ، بدليل ان والد السلطان نفسه كان قد دفن على طريقة التورا فقام ابنه السلطان موسى باخراج رفاته ودفنه على الطريقة الاسلامية ، و منذ ذلك الحين تحول دفن الموتى المسلمين لطريقة الدفن في الاسلام ، وذكرنا ايضا ان السلطان احمد بكر بن موسى هو من ارسى تقليد ختان الرجال في الدولة وبالتالى انتهى في عهده فقط عادة عدم ختن الرجال . فيمكن اذن القول ان الاعلام بتحول الدولة نفسها للاسلام خضع لضرورات مجاراة الاعراف والتقاليد القديمة التي كانت لها وزارة متخصصة في بلاط سلاطين الفور يتولاها وزير يُطلق عليه لقب ابا فوريه . ورغم ذلك وبذكاء ارسى السلطان سليمان الثاني تقليدا اعتبر ضمن تقاليد الفور ، وواجبة المراعاة من كل السلاطين كعرف وتقليد ، فكان له فضل تسريع وتيرة التحول الى دولة اسلامية حقيقية حينما اوصى خلفاءه ان يجعلوا احياء سنة من سنن الاسلام او اماتة بدعة من البدع السارية مضمارا لتسابقهم ، وان يكون حفظ القرآن الكريم من مؤهلات تنافس الامراء من ذريته لتداول السلطة فيما بينهم . فبهذه الوصايا ومع انتشار المعرفة بالدين الاسلامي انتقلت دارفور بهدوء شديد الى اسلام معرفي غير متعصب لان المواطنين والحكام جميعا تسلحوا بمعرفة وفقه عميق لتعاليمه ونهجه ، لقد ارسى المجتمع جملة من الاعراف حاصرت الجهل واقتراف الموبقات حتى محّت دارفور امية الرجال الاسوياء في مجتمعاتها الحضرية منذ زمن بعيد . وصارت مستودعا لحفظة كتاب الله ومصدرا لتوزيع المصاحف المخطوطة باليد لبلاد المسلمين قبل انتشار الآلة الطابعة .

- **سلمت دارفور من الغزو الاجنبي لمحمد علي باشا رغم استقطاع كردفان منها في 1822 م ، ولكنها احتلت بواسطة الزبير باشا رحمة بعد معركة منواشي واستشهاد السلطان ابراهيم قرض بن السلطان محمد الحسين نهايات العام 1874 م ، ولم تستسلم دارفور للغزو ، رفعت راية المقاومة طوال الحكم التركي او على الاصح طوال حكم اسرة محمد علي باشا لمصر ، وشكلت مقاومتها للحكم الاجنبي سمة اختلاف ما بينها والسلطنة الزرقاء اثرت فيما بعد في نهج النظرة الامنية لدارفور ، ولما استولت المهدية على السودان استمرت المقاومة المسلحة لحكم المهدية ايضا كحكم اجنبي ، وتسلم السلطان علي دينار في العام 1890 م راية المقاومة لاستعادة الدولة بعد استشهاد سلفه السلطان ابو الخيرات بن**

ابراهيم قرض ، وكانت الحرب قد انهكت اهله و افقدتهم الطمأنينة ، والاموال خاصة بالاعمال الشريرة لعامل المهدية في دارفور عثمان جانو ، ففي عهده نزح المواطنون الدارفوريون لوداي ولدارسلا فرارا من بطشه كاول سابقة في التاريخ ، وسيق الناس لام درمان قسرا وبطريقة مهينة عرفت بالإقران لانهم كانوا يربطون كل اثنين بمقابلة ظهريهما لبعضهما فيتناوبان في جر بعضهما من دارفور الى ام درمان (سمي الجبل الذي كان يتم تجميع المهجرين للرحلة الطويلة بجبل اب قرن على الطريق لكتم)! طلب اعيان القوم من سلطانهم الجديد علي دينار ان يتخيّر لهم السلامة بمفاوضة العامل المهدوي لدارفور الذي خلف جانو ، كان السلطان يدرك ان الاستجابة لطلب قومه يعني تضحيته الشخصية و افتدائه للقوم ؛ فإما ان يُقتل او يُسجن او يتخلى عن سلطانه ؛ اجابهم على طلبهم متوكلا وراضيا بما يقدره الله له ، فكاتب العامل الجديد محمود ود احمد الذي سُرّ بفكرة حقن الدماء ، فطلب للسطان الامان من الخليفة عبد الله ، افلحت سياسة السلطان في تغيير اساليب استعادة حكم آبائه بالمهادنة بدلا من سياسة المواجهة العسكرية ، ففي 1889 م وعقب موقعة كرري قاد السطان علي دينار الذي لم يتخل طوال مكثه مع الخليفة من لقبه (السلطان) جموعا من ابناء دارفور لبلده مستعيدا حكم آبائه ومجبرا الانجليز على الاعتراف به ؛ ولما كان السلطان مدركا لضعفه امام المستعمر ؛ فقد سعى لمهادنتهم ايضا و اقر على نفسه دفع الضريبة السنوية الرمزية

- في السودان مقولة تقول (ليس مجدوعا من شجرة) وهي تشرح مقولة اخرى تقول (هذا الشبل من ذاك الأسد) فالسلطان علي دينار بن زكريا بن السلطان محمد الفضل بن السلطان عبدالرحمن الرشيد بن السلطان احمد بكر ، نسمة مباركة من آباء كرام تواصل حكمهم لامبراطورية ضخمة في بلاد السودان لما يقرب من التسعمائة سنة في الاسلام فقط ، فاجداده بناة اعظم حضارة جنوب الصحراء هي حضارة هضبة جبل مرة التي كانت عصرها الحجري قبل اكثر من مليون سنة حسب رأي العالم الجيولوجي الدكتور وليمز ، ومن الثابت انه وعند انبثاق بركان جبل مرة فان المنطقة كانت مأهولة بالسكان صناع حضارة هضبة جبل مرة ممن خلدوا الظاهرة بلغتهم .
- كان عليه مهام جسيمة لتثبيت سلطته وتحديد حدود دولته ، ولاعادة الامن

والاستقرار بعد سنوات من الفوضى العارمة التي سميت بسنوات (ام كواك او بالجمبا) ، وكان عليه اعمار دارفور التي أُهلك فيها الحرث والنسل ، وبدأ السلطان بترتيب اولوياته بعد ان جعل هدفه الغائي جعل دارفور سلطنة اسلامية بحق وحقيقة كما يقول اوفاهي ، فقال السلطان ان عهده يبدأ باعادة اعمار المساجد والخلاوي ، وباستئناف تقليد ارسال صُرّة الحرمين الشريفين ، واعادة الامن ، و القيام بدفع الانتاج من كل نوع . فافلح مبكرا في استعادة الامن وتمليك وسائل الانتاج لشعبه ، وعمل تدرجا على ازالة بؤر المعارضة لسلطانه كوريث شرعي لسلطنة دارفور بكامل الحدود التاريخية ، واسس علاقات الدولة الخارجية ، وخدم المشاعر الاسلامية بارسال المحمل وبتأمين الحجيج والانفاق على حفر الآبار للحجاج وارسال المصاحف المكتوبة بايدي حفظة دارفور للحوزات العلمية واحياء نشاط رواق دارفور في الازهر ، وجعل للحفظة مكانا عليا في السلطنة ، فلهم عرضتهم واستضافتهم بالفاشر طوال شهر رمضان على نفقته ، ورعى اعراف تدقيق حفظ القرآن الكريم بصحة الكتابة على الرسم العثماني المعهود ، إذ كان من شروط اجازة حفظ كتاب الله في دارفور ؛ ان يدفع الحافظ بنسخة من المصحف الذي كتبه الى سبعة من مشاهير الحفظة ممن اجتازوا امتحان (قلم فتة اي القلم الابيض) للتصحيح ، فيعلق كل منهم قلما من البوص في اذنه ، فيبدأ التصحيح ؛ فاذا وجد واحدا منهم خطأ ولو كان ذلك في موضع شكل واحد على حرف من كلمات القرآن فغمس القلم في الدواة ليصحح الخطأ ؛ فانه بذلك يعتبر راسبا وعليه الرجوع لاتقان الحفظ ! كانت هذه المصاحف تودع في مكتبة الدولة فتحمل بعضها مع المحمل لتوزع للحجاج من كل بقاع العالم الاسلامي ، وذلك قبل انتشار المطبعة في البلاد الاسلامية .

- كانت الاطماع الاستعمارية مبيتة للامتداد تجاه دارفور بعد كرري ، فقد وقعت دارفور في اتفاق سايس بيكو في نطاق النفوذ البريطاني ، فكان احتلال دارفور مسألة تحيّن للفرصة واستحكام خطة فقط ، فكانت زراعة الجواسيس حول السلطان بشتى السبل و الواجهات مبكرا ، وكان الايعاز لمن تسموا بزعماء الدين في السودان بالعمل لصالح مد النفوذ الاستعماري لدارفورايضا بتخدير السلطان واثارة مشاعره الدينية ، ثم جاء تحريض الاستعمارلبعض القبائل وتشجيعها على الفوضى واثارة المشاكل بالقيام بالنهب ثم الهروب لمناطق سيطرة الحكومة

الاستعمارية في الخرطوم ، واستحكم المستعمر سد المنافذ لمنع وصول السلاح من مصر او الحجاز للسلطان ، بل رفضوا ارسال شحنات كان السلطان قد دفع لهم قيمتها ، و بالمقابل قاموا بتسليح القبائل التي اعتبروها موالية لهم . كما منعوا انسياب المواد التموينية لدارفور في اطار خطة لتشويه صورة السلطان لدي مواطنيه ونشر الكراهية ضده . ومما عجل الغزو خوف الانجليز من انبعاث ثورة في دارفور تؤلب عليهم المائة مليون مسلم الذين كانوا تحت التاج البريطاني مستعمرين ، او ان ينتبه المسلمون في الاقطار الاسلامية فينحازوا في الحرب العالمية الاولى الى الموقف الذي كانت تمليها عليهم القاعدة الاصولية في الاسلام ان سلم المؤمنين واحدة ، فيقتدوا بالسلطان علي دينار في موالاته لخليفة المسلمين في تركيا . كما سعى الاستعمار لمنع تواصل السلطان مع ابن اخته زعيم طائفة الانصار في السودان السيد عبدالرحمن المهدي .

- تكرر مشهد كرري في سيلي ولكن بصورة اكثر وحشية ، فبعضا من بنادق الراماتون وكثيراً من السيوف والعصي والحراب واجهت الطائرات الحربية والمدافع الثقيلة ومدافع المكسيم الرشاشة وبنادق كل الجنود من جنود الاستعمار، وتدافع الابطال وهم يتخطون موتاهم وجرحاهم نحو مصدر النيران وكانت اغلبها تطلق لهبا ، لان الغزاة وضعوا في فوهاتها قماشا مبللا بالجازولين فتسوقها القذائف تجاه المجاهدين المغاوير وهي مشتعلة ، سقطوا على بعد ياردات فقط من المدافع شهداء من اجل دينهم ووطنهم ، كانت الطائرات المغيرة تروع النساء بكل قسوة ووحشية فيسقطن الاجنة من بطونهن ، ومرة اخرى تبدت معالم التضحية والافتداء في السلطان ، فقرر وهو مدرك لتبعات الخروج من فاشر اجداده الخروج من المدينة لئلا تكون شوارعها ساحة للقتال ، كان يعلم ان المستعمرين لا يأبهون بالضحايا من الاطفال والنساء والعجزة ، فهم يرشقون القذائف في كل اتجاه تاتيهم منها مقاومة ودون تمييز للهدف ، وطائراتهم تركز في ضرب تجمعات العزل فلا تقتل الا النساء والشيوخ المتباطؤون في الحركة لتفادي القذائف ، ثم ان خروجه من الفاشر سيهئ له حشد القوات من جبل مرة وستمكنه من التواصل مع خليفة المسلمين ومع مجاهدي الحركة السنوسية في ليبيا .
- امضى الخريف في كالوكتنج ، وفي بوغازها عسكر ابنه زكريا في دبس حاميا ظهره ، و لكن انتشار وباء الجدري – الذي كان قبل قرون سلاحا بيالوجيا يستخدمه

المستعمرون للفتك بضحاياهم مثلما فعلوها مع هنود امريكا حينما وزعوا لهم اغطية ملوثة فمات الهنود كالاغنام الموبوءة بمرض الام نيني – دفع السلطان الى الخروج من كالوكتنج الى كولمي التي كانت موقع تنصيبه ، ولكأنّه يقول انه رد الامانة الى حيث تسلمها ، فانطوت صفحة في التاريخ مختومة بآخر تضحيات السلطان حين عزل نفسه من المعسكر الرئيس ليتفادى ايضا سقوط الضحايا ، وبالفعل سقط في المعركة الاخيرة ثلاث شهداء كان السلطان واحدا منهم .

- هذا التاريخ مغيب من النشئ ، وحري تدريسه في المدارس وفي مقررات الجامعات وابحاثها لتأكيد وحدتنا الوطنية باسقاط اسم السودان على كل مكونات الوطن حتى لا يغدو وكأن المقصود به ما احتله المستعمر بعد كرري ، فعلى الرغم من وجود كيانين تاريخيين منفصلين منذ آماد بعيدة هما سلطنة دارفور والسلطنة الزرقاء ؛ الا ان تماثلل البيئة الجغرافية بين ضفتي النيل الشرقية والغربية ؛ قد اوجدت وحدة جغرافية ما بين السودانيين بيسر التنقل واعراف التعايش المسنونة من المجتمعات المحلية ، هذه المزية تحتاج لدراسات تبرز وتؤكد عناصر الهوية الجامعة في الامة بتأكيد وحدة التاريخ وعدم نفي حق المجموعات القديمة في امتلاك تاريخهم القديم . وتوظيف التاريخ لصالح حاضر العلاقات الخارجية للسودان ، فمواقف السلطان مثلا مع دولة الخلافة الاسلامية في تركيا يجب ان تبقى حاضراً، وكذلك سنة السلاطين في ارسال صرة الحرمين وفي رفد الحوزات العلمية ورعايتها بالنفقات ، وحماية كل حجاج بلاد السودان الغربي وتعهدهم بالحماية حتى العودة لمن شاء منهم العودة لدارفور ؛ كلها يجب ان تكون مادة لتمتين التعاون بين الشعوب . وبالله التوفيق .

الأمين محمود محمد عثمان

الخرطوم – سودان –

هاتف :208337519942+ – 249928038636+

الهوامش

1 - Theobold - Ali Dinar - The Last Sultan of Dar Fur - p 137 - 143

2 — نفس المصدر ص 147

3 — نفس المصدر ص 165

4— امين محمود . سلطنة الفور الاسلامية ، مصدر سابق ص 246 — 247

5 — نفس المصدر ص 247 — 249

6 — اخلاص علي حمد غزو دارفور ، مصدر سابق ص 72 — 73

7 — مدثر حسين والي و آخرين ، قبيلة البنقا الهوية والتاريخ ، جي تاون ، الخرطوم ط/1 ، يناير 2015 م ، ص 101 — 108

8 — اخلاص حمد ، المصدر السابق ص 81 — 86

9 — نفس المصدر ص 89 — 90

10 —نفس المصدر ص 119

11 — موسوعة النابلسي للعلوم الاسلامية www ; nabulsi < blue

12 — اخلاص ، مصدر سابق ص 154

13 — امين محمود مصدر سابق ص 252

14 — ثيوبولد ، المترجمة ، مصدر سابق ، ص 115

15 — اخلاص ، المصدر السابق ص 198

16 — نفس المصدر اعلاه ، ص 255 — 256

17 — نفس المصدر ص 248 — 249

18 — نفس المصدر ص 166 — 168

19 — ثيوبولد المترجمة ، مصدر سابق 140 — 142

20 — نفس المصدر ص 131 — 149

21 — اخلاص المصدر السابق ص 280 — 281

22 — نفس المصدر ص274

23 — ثيوبولد المترجمة ، مصدر سابق ص 159

24 — نفس المصدر 148 — 160

25 — نفس المصدر ص 150



آثار اقدام حيوانات بُعيد بركان جبل مرة في منطقة كاورا



مدرجات لاستزراع سفوح الجبال في هضبة جبل مرة — نامي بطرة



قصر تونج كيلو الغرفة العميقة – جبل نامي – طرة

بركة السمك بعين فارا - جبال فورنونج



مسجد السلطان شاو دور شيد - عين فارا - جبال فورنونج -- ما قبل 1400 م

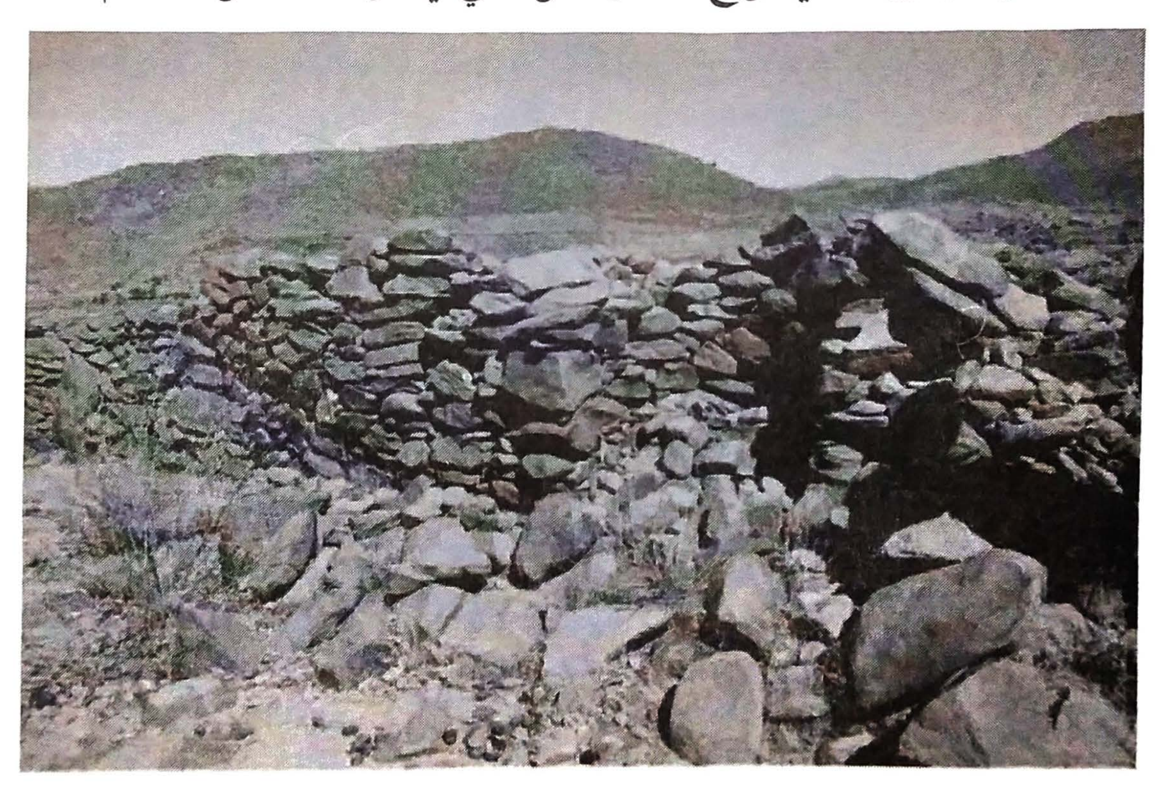
قصر السلطان شاودورشيد بجبل فارا – جبال فورنونج ما قبل 1400 م



داخل مسجد شاودورشيد بجبل فارا مظهر اعمدة المسجد



قصرشاودورشيد في تونج كيلو بجبل نامي في طرة – ما قبل 1400 م



مسجد السلطان دالي في اوري – فورنونج – 1500 م ابعاده 40 في 40 متر

مدينة اوري الحجرية احدى مقار السلطان دالي وكانت عامرة بسد دوا نيرا

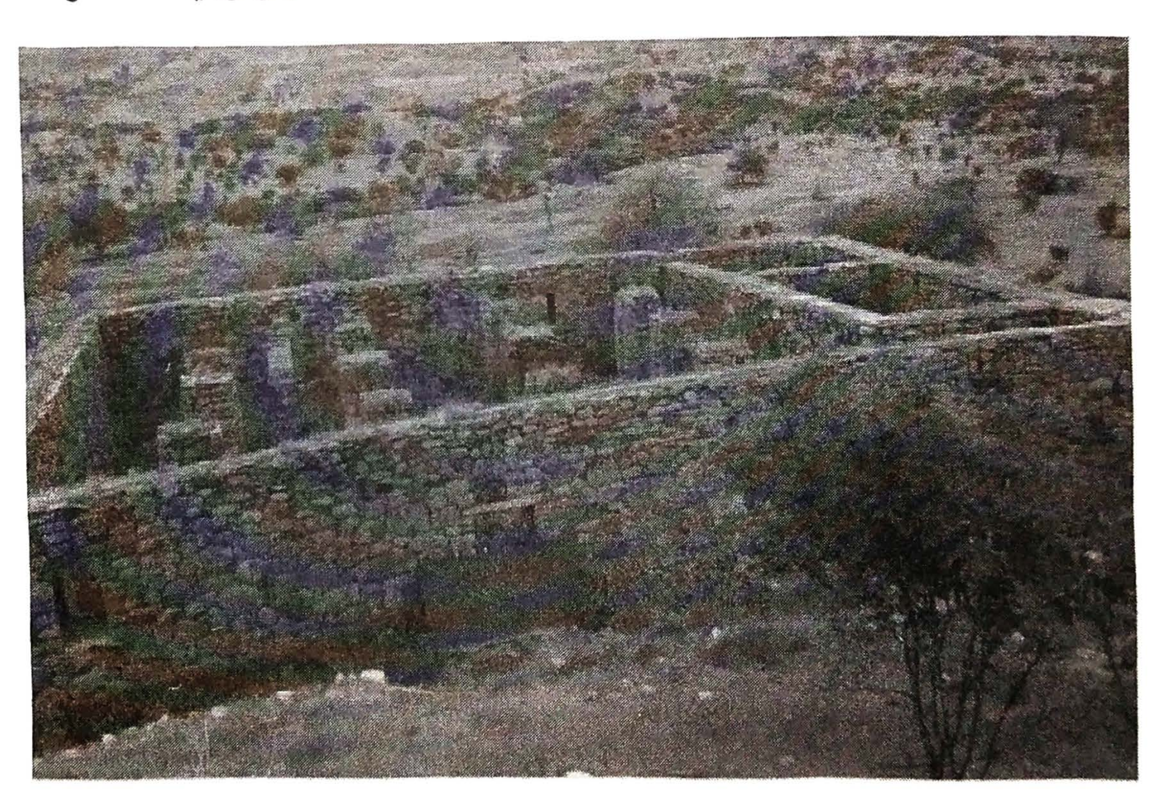


بوابة مدينة اوري التي لم ينتبه اليها المؤرخون



فندق حجري (مرحاكة) من اوري – المدينة الحجرية

قصر السلطان تونسام جد فور المسبعات – المسماة دولوكوري – بطرة



مسجد طرة جامع الذي بناه السلطان موسى سليمان وجدد بناءه على الاساس القديم السلطان عبد الرحمن الرشيد .



مقابر السلاطين بطرة جامع



اعمدة مسجد طرة جامع المعكوفة – رقة قليلة في المنتصف –

مسجد السلطان تيراب بشوبا – يعد الأوسع مساحة من بين المساجد الأثرية بالسودان



مسجد السلطان تيراب بشوبا ذات الركائز المستديرة

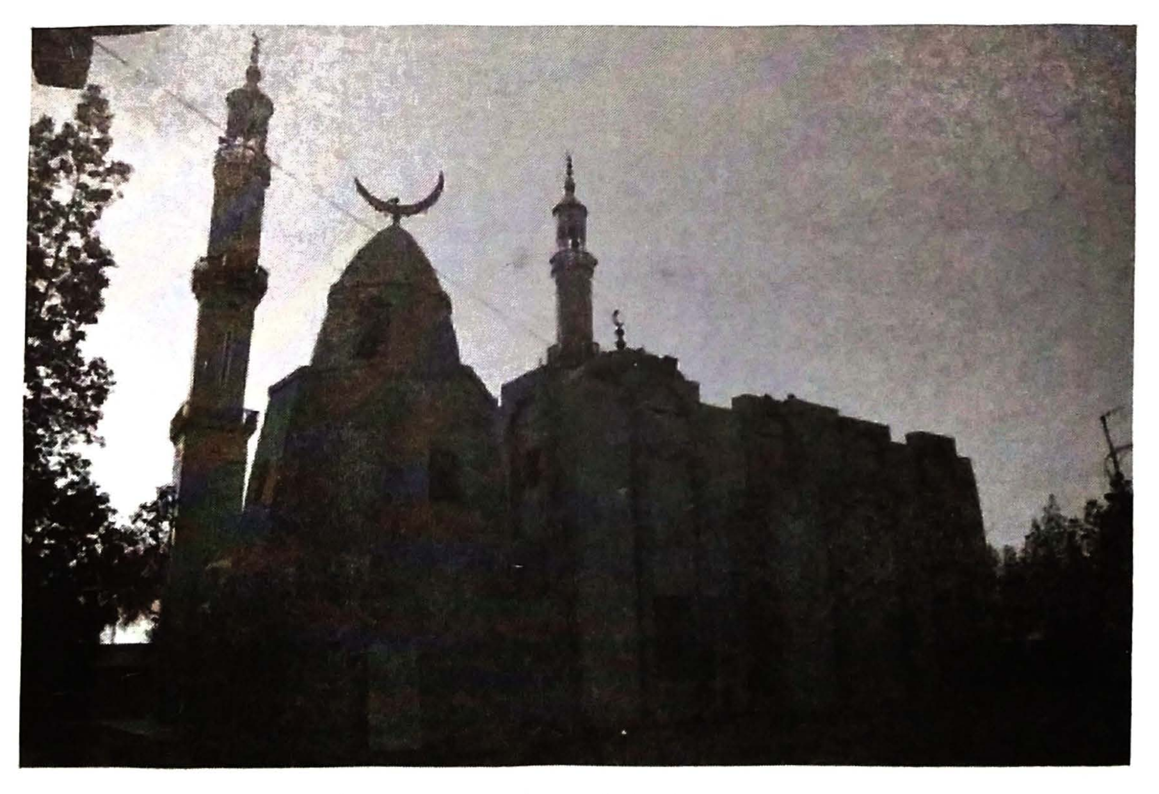
مخلفات صناعة الملح – فولقو – في اوم بكاورا بتقطير التربة المالحة

جلوس فوق كرسي حجري واحواض دق العطور في قصر السلطان تيراب بشوبا

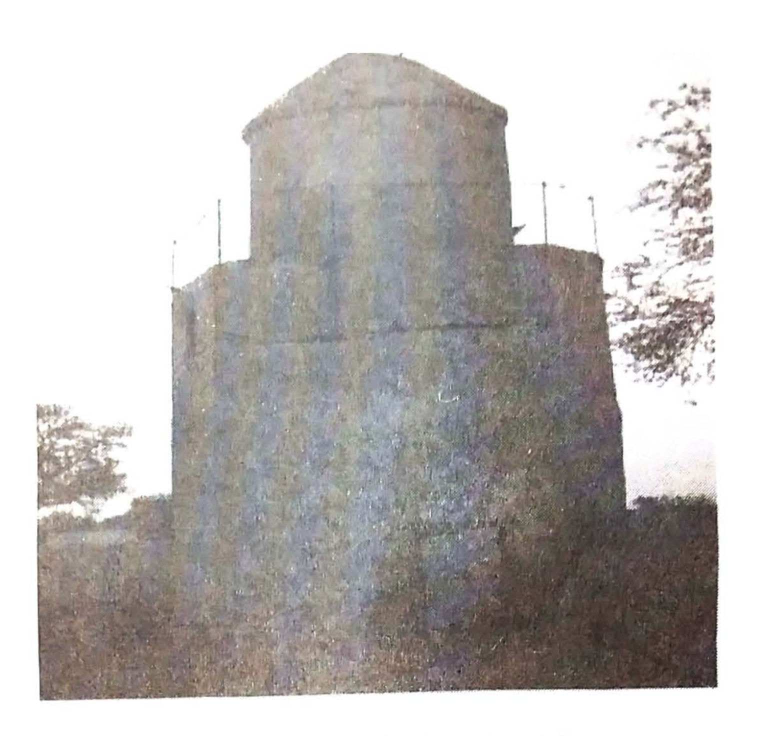
محمل السلطان علي دينارحاملا كسوة الكعبة مارا بشوارع جدة

قصر السلطان علي دينار بالفاشر بعد ترميمه بأمر الرئيس التركي اوردوغان

قصر السلطان علي دينار في الفاشر بعد ترميمه من قبل الحكومة التركية – اعلى واسفل



مسجد السلطان علي دينار في الفاشر

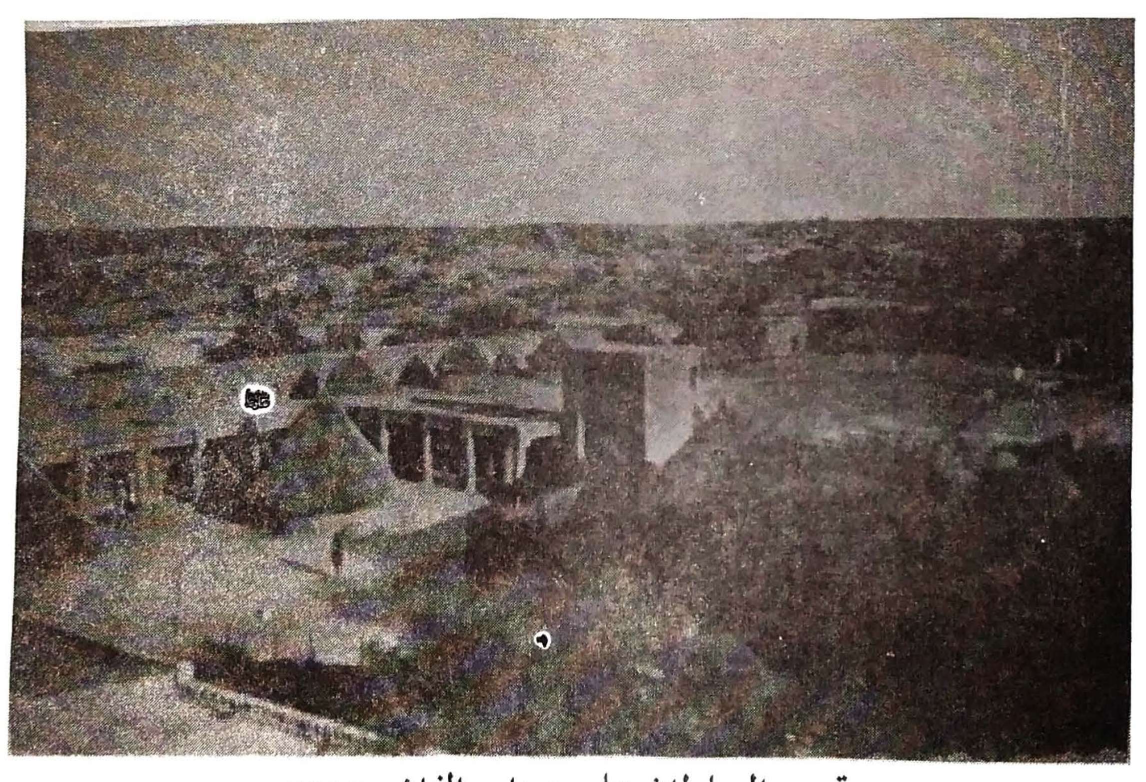


قبة والد السلطان بالفاشر



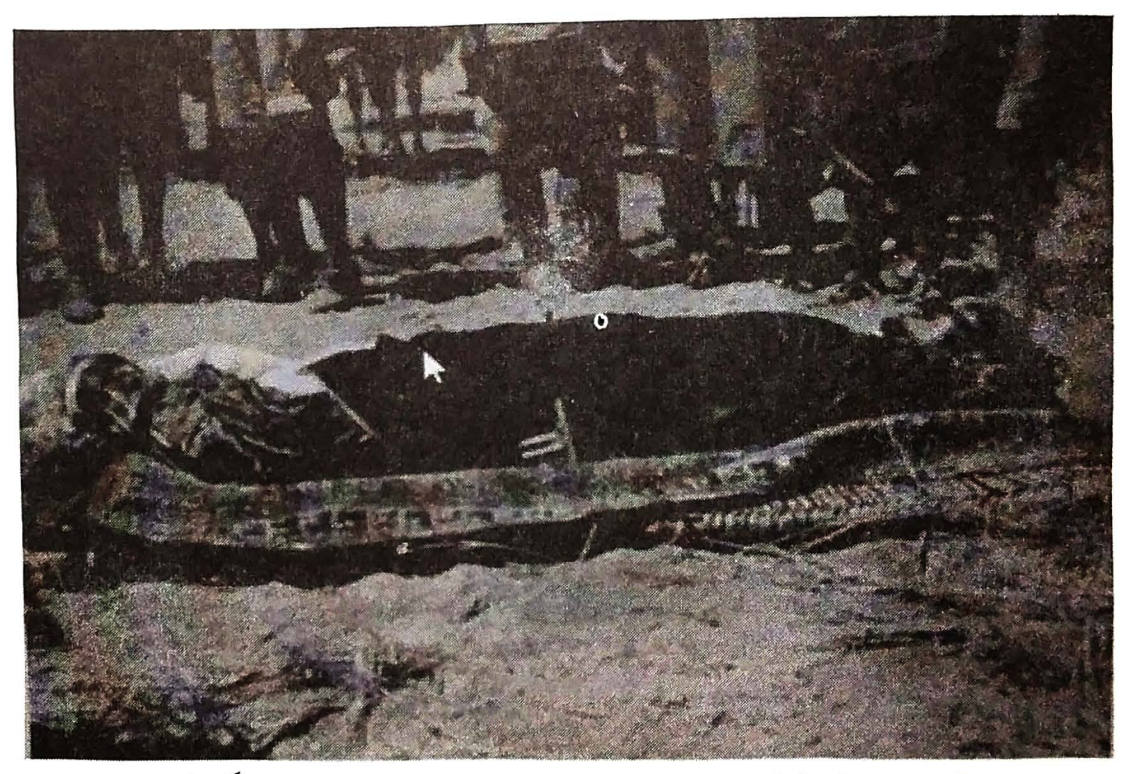
عرش السلطان علي دينار – مهداة له من سلطان المسلمين بتركيا

شهداء معركة سيلي



قصر السلطان علي دينار بالفاشر 1916م

مسجد السطان علي دينار بكولمي



الشهيد السلطان علي دينار مسجى بعد استشهاده بكولمي



ضريح السلطان علي دينار بكولمي



الأميرة حرم بنت السلطان علي دينار – متعها الله بالصحة والعافية – آخر المتبقين على قيد الحياة من ابناء السلطان علي دينار 2019 م



السلطان أحمد حسين أيوب علي دينار – السلطان الحالي – امام قصر السلطان علي دينارالذي حول لمتحف الفاشر .



الرئيس التركي رجب طيب أوردوغان يستقبل السلطان أحمد حسين أيوب علي
دينار سلطان دارفور الخرطوم



السلطان أحمد حسين أيوب علي دينار سلطان دارفور بين أحفاد السلطان علي دينار من تركيا – تركيا

المصادر و المراجع الرئيسية للكتاب:

1 – القرآن الكريم

2 – محمد عمر التونسي ، تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب و السودان

3 – نعوم شقير ، تاريخ و جغرافية السودان

4 – عبد الحميد متولي ، تطور نظم الحكم في السودان

5 – يوسف فضل حسن ، الممالك الاسلامية في السودان

6 – يوسف فضل حسن ، انتشار الاسلام في افريقيا

7 – محمد ابراهيم ابو سليم ، الفور و الاض

8 – محمد ابراهيم ابو سليم ، الآثار الكاملة للامام المهدي

9 – سلاطين باشا ، السيف والنار في السودان

10 – يوسف فضل وآخرين ، الاسلام في السودان

11 – فيفيان امينة ياجي ، سلاطين الظل

12 – حسن قنديل ، فتح دارفور

13 – جوستاف ناختيقال ، رحلة الى وداي ودارفور ، ترجمة سيد علي محمد ديدان ط/ 3 مارس 2013 م

14 – الن ثيوبولد ، علي دينار آخر سلاطين دارفور ، ترجمة فؤاد عكود ، العالمية للطباعة و النشر ، السودان ، 2005 م

15 – ابراهيم يحيى عبد الرحمن ، كتاب المساليت

16 – أمين محمود محمد عثمان ، سلطنة الفور الاسلامية دراسة تحليلية 1400 – 1916 م ، شركة مطابع السودان للعملة 2011 م

17 – ادم تاجر – كتاب الزغاوة

18 –اخلاص علي حمد علي ، غزو دارفور 1916 – التخطيط و التنفيذ شركة مطابع السودان للعملة ،2012 م

19 – جوستاف ناختيقال وتاريخ دارفور – ترجمة النور عثمان ابكر ، الشركة العالمية للطباعة والنشر و التوزيع ، 2011 م

20 – الصادق عبد الله احمد و اسماعيل حامد اسماعيل علي ، تاريخ التنجر ، الافريقية الدولية للنشر القاهرة ، 2017

21 – موسى المبارك الحسن ، تاريخ دارفور السياسي ، دارجامعة الخرطوم ، الخرطوم

22 – شخصيات استمعنا لرواياتهم شفاهة فاوردنا اسماءهم عند ذكرنا لمروياتهم .

المراجع الانجليزية

1- Sahara And Sudan v 4 by Gustave Nachtical
2- State and Society in Dar Fur by R .S . O . Fahey
3- Kingdoms of the Sudan by R.S. O . Fahey and J.L.Spaulding
4- History and Antiquities of Dar Fur by H . G . Balfour Paul
5- The Torra Palaces at Turra Arkel
6- Ali Dinar , The Last Sultan of Dar Fur by Theobold



فهرست الموضوعات

المؤلف في سطور

- الإسم – الأمين محمود محمد عثمان
  مواليد طرة جامع جبل مرة 1956 م

- تخرج في جامعة الخرطوم – كلية العلوم قسم الرياضيات 1980 م

- عمل معلما للرياضيات في المرحلة الثانوية حتى العام 1991 م

- المؤهلات فوق الجامعة – ماجستير الادارة العامة ، دكتوراة في الادارة العامة من جامعة ام درمان الاسلامية عنوانه (ادارة التنازع السياسي – دراسة تأصيلية مقارنة) .

- المشاركات العامة – عضومجلس الشعب الاقليمي الاول لدارفور 1981 م – وعضو اللجنة الشعبية للاقليم – محافظ لمحافظة ام روابة باقليم كردفان ثم محافظا للكرمك و لمحافة باو بولاية النيل الازرق – عضو المجلس التشريعي لولاية غرب دارفور .عضو مجلس ادارة جامعة زالنجي

- اهم المشاركات في المؤتمرات – مؤتمر الصلح ما بين الفور وبعض القبائل العربية بالفاشر 1989 م – مؤتمر السلام الشامل في دارفور نيالا – مؤتمر نيرتتي لقيادات الفور اغسطس 2002 . معظم مؤتمرات حل ازمة السودان في دارفور داخليا وخارجيا في طرابلس ، و ابوجا ، ومن معدي وثيقة هايدلبيرج حول سلام دارفور ، ومن ممثلي المجتمع المدني بمحادثات الدوحة ، وعضو الآلية التنسيقية للحوار الوطني ممثلا للمجتمع المدني الدارفوري .

- **الكتب والاوراق العلمية الصادرة للمؤلف :**

– سلطنة الفور الاسلامية دراسة تحليلية من 1400 –1916 م

– ادارة التنازع السياسى دراسة تأصيلية مقارنة

– الجودية دراسة في حل النزاعات بالاشارة الخاصة لدارفور

– اطلالة السلطان احمد حسين ايوب

– المهمة الدعووية في دارفور ، مقاربة دعوية لحل النزاعان – ورقة حول حل النزاع في دارفور

– ورقة حول محتوى النزاع حول الارض

– ورقة التواصل ما بين السلطنات الاسلامية في بلاد السودان واخرى عن علاقات دارور والفونج

– نظرات في التاريخ القديم لدارفور . . .

كتب تحت الطبع –

الحكم الرشيد – تنميط لحكم يهتدي بقيم الاسلام –

– سياحة في ادب الحكم و السياسة (مقالات منشورة في الصحف)